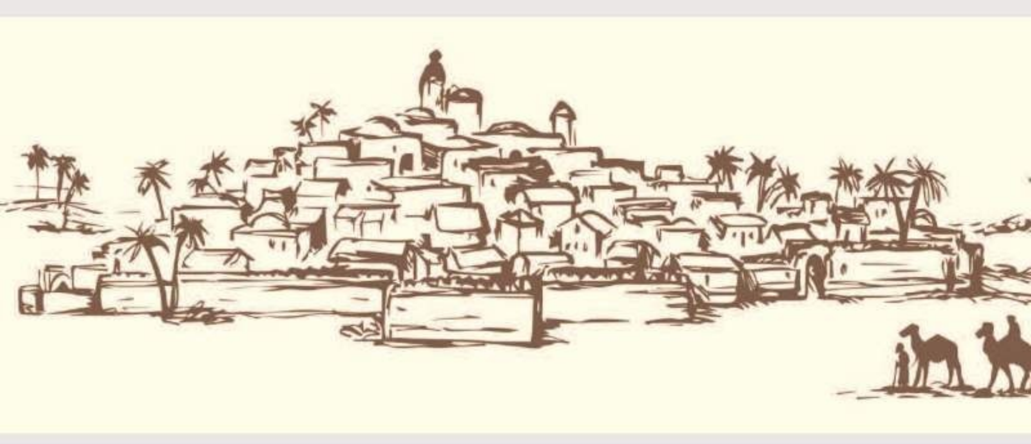




اللقاءات المشرقية في بلاد الشام

(١٣١١ - ١٣١٣هـ)

محمد مارماديوكُ ابن بكثال



نقله إلى العربية : الترجمان أحمد الغامدي


بسم الله الرحمن الرحيم

اللقاءات المشرقية

في بلاد الشام

لمحمد مارماديوك ابن بكثال

(١٣١١-١٣١٣هـ) - (١٨٩٤-١٨٩٦م)

نقله إلى العربية

الترجمان أحمد الغامدي

اللقاءات المشرقية

في بلاد الشام

محمد مارماديوك ابن بكثال





هذا الكتاب ترجمة كاملة لـ:
Oriental Encounters
Palestine and Syria, (1894-5-6)
By: Marmaduke William Picktha
الصادر عن دار:
W. Collins Sons & Co. Ltd 1918

الموزع المعتمد
+966555744843
المملكة العربية السعودية - الدمام

المحتويات

الموضوع	الصفحة
ترجمة المؤلف	٧
الكتاب: اللقاءات المشرقية	٩
مقدمةُ المؤلف	١١
الباب الأول: رشيدٌ الأشقر	١٧
الباب الثاني: رباط الجبل	٢٣
الباب الثالث: سوطُ جلدِ الكركدن	٢٩
الباب الرابع: القاضي الفاضل	٣٥
الباب الخامس: نوادرُ	٤١
الباب السادس: تكملة النوادر	٤٧
الباب السابع: صلصلةُ الجِراب	٥٥
الباب الثامن: شُغلُ شُرَط	٦١
الباب التاسع: ابن بلدي	٦٧
الباب العاشر: مفرق الطرق	٧٣
الباب الحادي عشر: الفارسُ الجوَّاب	٧٩
الباب الثاني عشر: النصراني المتعنت	٨٥
الباب الثالث عشر: انتقام رشيد	٩١
الباب الرابع عشر: الكلب المشنوق	٩٧
الباب الخامس عشر: النمور	١٠٣
الباب السادس عشر: التفاخر فالسقوط	١٠٩
الباب السابع عشر: الفاجعة	١١٥

الموضوع	الصفحة
الباب الثامن عشر: بَسْطِرمَة	١٢١
الباب التاسع عشر: الدليلُ الحَاذِق	١٢٧
الباب العشرون: البَطرَكُ والعِشق	١٣٣
الباب الحادي والعشرون: صاحبُ الأرضِ المُبغَضُ	١٣٩
الباب الثاني والعشرون: قائم المقام	١٤٥
الباب الثالث والعشرون: عن الرشوة	١٥١
الباب الرابع والعشرون: المعركة	١٥٥
الباب الخامس والعشرون: قَتَلَة	١٦١
الباب السادس والعشرون: أشجارٌ في الأرض	١٦٥
الباب السابع والعشرون: شراء البيت	١٧١
الباب الثامن والعشرون: خيبة	١٧٧
الباب التاسع والعشرون: في الجريمة والعقاب	١٨٣
الباب الثلاثون: بستان الكَرْمِ المكشوف	١٨٩
الباب الحادي والثلاثون: الزِنديق	١٩٥
الباب الثاني والثلاثون: بيعُ مسدسنا	٢٠١
الباب الثالث والثلاثون: المتفضل عليَّ	٢٠٧

ترجمة المؤلف

الأستاذ مَارْمَدْيُوكُ بنُ شارلِزَ ابنُ آل بِكْثَال، الأديب الروائي الرحالة، إمام أولِ مسجدٍ وُضع للمسلمين بلندن، وأول إنجليزيٍّ يترجم القرآن الكريم إلىٰ الإنجليزية. المولود سنةَ ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ). والمتوفىٰ سنةَ ١٩٣٦م (١٣٥٥هـ) عن واحد وستين عامًا، رحمه الله تعالىٰ.

ولد علىٰ النصرانية في بيت قساوسة، وتوفي أبوه وله خمس سنينٍ، فنشأ يتيمًا في حجر أمه. كان متفننًا عارفًا باللغات، أرسلته أمه في صباه إلىٰ فرنسةَ؛ فأخذ الفرنسية عن أهلها، ثم إلىٰ إيطاليةَ؛ فأخذ الإيطالية، ثم رجع إلىٰ بلاده وتعلم فيها الألمانية والإسبانية، وضمَّ إليها في كِبَره العربية والتركية والأُردية. لما بلغ ابنُ بكثالَ الثامنة عشرة كانت بلاد الإنجليز قد ضاقت عليه بما رحبت، فارتحل عنها إلىٰ بلاد العرب. ونزل بالشام سنة ١٨٩٤م، وأقام فيها نحوًا من عامين. عرَف فيها العربَ والمسلمين، وخالطهم وأحبهم، ووقعت له نوادر وطرائف جمعها في هذا الكتاب.

ولما أزف الرحيل عن الشام، ودَّع ابنُ بكثالَ صحبه، وشدَّ رحله، ورجع أدراجه إلىٰ بلاد قومه. وانقطع بعد هذه الرحلة عن المشرقِ مليًّا، ومكث في بلاده سنين عددًا، انشغلَ فيها بالتأليف والكدحِ طلبًا للمعاش. ولم ينسَ ابنُ بكثالَ المشرقَ علىٰ طولِ العهد وبُعد الدارِ؛ فغالَبُ ما ألَّفه من الروايات متعلقٌ ببلاد العرب. وكما يقول ابنُ عبدِ رَبِّهِ:

الجسمُ في بلدٍ والروحُ في بلد   يا وحشةَ الروحِ بل يا غُرْبَةَ الجسدِ

فلما استوقد الشوق نفسه، وطال مكثُه في بريطانيةَ وزاد علىٰ عشر سنين، جدد العهد ببلاد المسلمين؛ فنزل مصرَ مدةً، وأقام بعدها في بلاد الترك، ثم

رجع أدراجه. وكلما انقضىٰ عامٌ زاد نفوره من النصرانية وحبُّه للإسلام، حتىٰ جاءت سنة ١٩١٧م، وكان حينئذٍ بإنجلترةَ. فألقىٰ فيها دروسًا عن الإسلام، ختمها بإعلان إسلامه، وتلا أواخر سورة البقرة، التي يقول ربنا فيها:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾

الله أكبر! أسلم هذا الإنجليزيُّ النصرانيُّ الذي تربىٰ في بيت قساوسة، في زمانٍ كان فيه مسلمو الإنجليز شرذمةً تحصيهم من قِلَّتهم. ثم سمَّىٰ نفسه محمدًا، وما لبث أن قُدِّمَ إمامًا لجامعِ لندنَ؛ لإتقانه العربية، وحسن تلاوته للقرآن. وكان يخطب في الناسِ الجُمَعَ والأعياد، ويعظهم ويحثهم علىٰ الثبات علىٰ الدين، وأداء ما افترض الله عليهم، وحمَلَ همَّ الدعوةِ إلىٰ الإسلام، واشتغل بدفعِ ما كان عند قومه من شُبَهٍ في الإسلام؛ إما تصريحًا في مقالاته، أو تعريضًا في رواياته. وحثَّ المسلمين علىٰ دعوة الناس إلىٰ هذا الدين العظيم، ونصح لهم -عربهم وعجمهم- فيما يصلُحُ في دعوةِ الناس. وله خطبةٌ في القاهرة عن الدعوة إلىٰ الإسلام، ذكرَ محبُّ الدينِ الخطيبِ طرَفًا منها في مقدمة كتابه: مع الرعيل الأول. وفي هذه الخطبة كلامٌ حسنٌ لمن تقاعس عن الدعوةِ وحجتُه ضعفُ الأمة، وتكالب الأعداء، وكثرة التُّهم التي يُرمىٰ بها الإسلام.

ثم شدَّ رحاله أواخر سنة ١٩٢٠م إلىٰ بلاد الهند، وتقلب في الأعمالِ حتىٰ تبوأ منصب رئيس تحريرٍ لمجلةٍ اسمها الثقافةُ الإسلامية. وكان أثيرًا عند نظامِ الملكِ عثمان علي خان، فأجرىٰ له راتبًا وفرَّغه لترجمة القرآن الكريم إلىٰ الإنجليزية. فأتمَّ الترجمة في ثلاث سنين، وطُبِعَتْ سنةَ ١٩٣٠م، وكتب الله لها قَبولًا عند الناس، نسأل الله أن يقبلها منه، ويجعلها خالصةً لوجهه الكريم.

ثم رجع ابن بكثال إلىٰ بريطانيةَ سنة ١٩٣٥م، وشاء الله أن يتوفاه إليه قبل أن يتم عامًا فيها، وله حينئذٍ إحدىٰ وستون سنة. غفر الله له، ورحمه، وتجاوز عنه، وتقبله، وجعل ما قدمه خالصًا لوجهه الكريم، اللهم آمين، وجميع المسلمين!

الـكـتـاب
اللقاءات المشرقية

أَلَّفَ ابنُ بكثالَ نحوًا من عشرين كتابًا، بعضها أيام جاهليته، وبعضها في إسلامه. أما ما كان بعد إسلامه أو قُبَيله فتجد فيه الحميَّة للمسلمين ظاهرةً، وحبه لبلاد العرب بيِّنًا، وتجده ينفي عنهم المثالب، وينسب إليهم المناقب، ومن هذه الكتب: كتابه هذا الذي بين يديك. وقد جعله أوَّلَ الأمر في مقالاتٍ متفرقةٍ، نشر بعضها قبل دخوله في الإسلام بأشهرٍ، فكانت إرهاصًا لهدايته، وأكمل بقيتها بعد إسلامه، ثم جمعها في كتابٍ واحد. دوَّن بين دفتيه أخبارًا وقعت له في أوَّلِ مرةٍ يضع فيها قدمًا ببلاد الشام، ويلقىٰ فيها خلقًا من العرب والعجم. ذكر طرفًا من هذه اللقاءات الطريفة لِقاءةً بعد لِقاءةً، وسمَّىٰ كتابَه بذلك: اللقاءات المشرقية.

وفي هذا الكتاب، سيتمثل لك ابن بكثال، ويأخذ بيدك ليجول بك في الشام. فتعرِّجون علىٰ مدنها، وتوغلون في قِفارها، وتَبِيتون في خاناتها وفنادقها، وتشربون من ينابيع قُراها، وتفتشون عن سباعها. فإذا أردت أن تنظر في أحوال القوم وتعرف أخبارهم، أراك مراكز الجند، وأدخلك دُور القضاء والوِلاية، وأجلسك في مجالس الدروز والشراكسة وقبائل العرب. وحدثك عن المزَّاحين والنَّوكىٰ والمجانين. وقصَّ عليك بعض الطرائف والنوادر العجيبة والحوادث المفرحة والمحزنة.

ويجمُلُ بمن قرأ هذا الكتاب: أن يربط بين أحداث هذه الرحلة وبين إسلام كاتبه بعد عشرين سنةً من وقوعها. فمن رأىٰ حال ذاك الفتىٰ وهو يجول في الشام ويجالس أهلها، وقع في نفسه أنه أقربُ في سمته إلىٰ العربيِّ منه إلىٰ الفرنجي،

وأنه خالف أهل زمانه من الإنجليز ممن عادَوُا المسلمين، وعادَوُا العرب منهم خاصة. فإن الفرنجة قد بلغوا الغايةَ في سوء المعاملة، حتىٰ جاوزوها إلىٰ التثريب علىٰ من لم تكن هي دأبَه. بل تجد بعضهم يوصي بعضًا باحتقار العرب، وتركِ مخالطتهم وإدنائهم، وسوء الظنِّ بهم أبدًا، وهذا كلُّه يُعرَفُ من أخبار الكتاب. ومثال ذلك: الفرنجي المبشر الذي ذكره في بابَي: ابن بلدي، ومفترق الطرق.

أما ابن بكثال فكان علىٰ خلاف ذلك؛ فتعرَّبَ، وأحبَّ العربَ، واتخذهم أولياء من دون الفرنجة، ونضَا عنه لباس العجم، ولَبِسَ العمائم والعُقُل، وجالس الفلاحين والأشياخ وسامرهم. وما يدريك، لعله رأىٰ ما كان المسلمون فيه من السرور والرضا، أو سمع كلمةً في أحد المجالس، فبذرَ ذلك في نفسه حبَّ الإسلام، وأنبتَ هذا البذرُ الشهادتين علىٰ لسانه بعد أمةٍ من الدهر، ثم أثمر ذلك النبتُ مقالاتٍ ذبَّ فيها عن الدين، وترجمةً لكتاب الله. وقد رأيت بنفسي أقوامًا نزلوا بلاد المسلمين ولم يسلموا، فلما رجعوا إلىٰ بلادهم كتب الله لهم الهداية. فمنهم من رأىٰ من المسلمين حسن المَعشَر وصدق التدين؛ فصارت تأخذه لهم حميةٌ، وصار يذبُّ عنهم إذا تُكُلِّمَ فيهم، ثم أسلم. ومنهم من قايس بين قومه وتنافرهم وسُخطهم، وبين المسلمين وتآلفهم ورضاهم بما قسم الله لهم، ثم أسلم. فابذر بِذارك، لعل الله ينبتها ولو بعد حين!

المترجم

مقدمة المؤلف

في أول سنةِ ١٨٩٤م، كان في مكاتبِ القناصلِ بتُرْكِيَةَ وفارسَ والشام وظيفتان شاغرتان، قدَّمتُ علىٰ إحداهما لكني لم أنلِ المرتبةَ اللازمة بين الذين تنافسوا في اختبارهما. فقنطتُ لهذا؛ وذلك لأني جلستُ شهورًا لا أؤمِّلُ إلا في البلادِ الشامِسَةِ، والأممِ الخوالي، ومباعدةِ ضبابِ لندنَ الذي لا تتبدل ظلمته، وقد صرت أرىٰ ضبابها غمًّا لمَّا لم يحصل لي الفرجُ بالرحيلِ عنه. وأنا إذ ذاك ابنُ ثمانيَ عَشْرةَ سنة، ووقعَ في نفسي أني خائبٌ في أمري كلِّه، بعدما خُيِّبتُ في واقعةٍ أو واقعتين، واكتأبتُ كآبةً شديدة. وصرتُ أتخيل شمسَ المشرقِ والنخيلَ والجِمالَ كأنما هي جنَّةٌ ضيَّعها مني نقصي وتقصيري. وما أشدَّ فرحي لما جاءتني أمي في يومٍ بهيجٍ وقالت لي: لعلَّ تَطوافك في بلاد المشرقِ فيه خيرٌ لك، وقد رأت أن في تشوُّفي إليها دليلًا علىٰ غريزةٍ في نفسي، وهي مشفقةٌ عليَّ مستشعرةٌ لذلك؛ لأن لها ذكرياتٍ عن بلادِ المشرِق.

وإخالُ أنَّ أهلي استقرَّ عندهم رأيٌ إذ ذاك؛ وهو أني لو تعلمت لغاتِ البلادِ وعرفتُ أحوالَها من فوري، لكان ذلك واسطةً تبوِّئني عملًا في وزارة الخارجية ولو بعد حين. وأعجبَ هذا الرأيُ كبارَ أهلي؛ لأن فيه عذرًا يكفيهم نفقةَ سفري، إلا أني لم يَرُقْ لي البتةَ من أوَّلِ وهلة. ومُذ وصلتُ إلىٰ مِصْرَ، وهي وِجهتي الأولىٰ، زالَ عن هذا الرأي بالكلية ما كانَ له من زُخرفٍ رأيته في بلادي. فما عدتُ أحفِلُ بالأوربيين حينئذٍ، وصرتُ أراهم شُذَّاذًا في هذه الأرضِ لا يليقون بها. وكنتُ نازلًا علىٰ إنجليزٍ في دارِهم، فتخالج في نفسي أنَّ هذا الرأيَ أو الوَجْدَ مُحَرَّمٌ، وأردتُ في بادئِ الأمرِ أن أُذهِبَه. وما تعلمت منهم حتىٰ تلك

الساعةِ إلا ما يُرادُ به إكراهي علىٰ اتباع معتقداتٍ فُرِضَت علىٰ جماعةٍ من الناس. فمن الأمورِ التي كان الرجلُ الذي طالما تأسيت به لا يقترفها، ولا هي تخطر بباله: أن يعمد إلىٰ مخالطةِ المشارقةِ علىٰ أنهم أنداده.

وكنتُ أمنِّي النفسَ سرًّا أن أخالِلَ أهلَ البلادِ، وكادت هذه الأمنية ألا تُجاوِزَ صدري كغيرها من الرغائبِ الغريبةِ التي قدحت في فؤادي، لولا حادثةٌ خلصتني مدةً من ولايةِ الإنجليزِ عليَّ. وذلك أنَّ قومي عَهِدوا إليَّ برسائلَ إلىٰ جماعةٍ من وجهاءِ الإنجليزِ بالشامِ أعرِّفُهم بها عن نفسي، ومِن هؤلاء أهلُ بيتٍ سَنِيٍّ في القدس. واستقرَّ أني لا بدَّ أن أقصدهم رأسًا أوَّلَ ما أصل إلىٰ ذلك القُطرِ، فأستخبِرهم وأستنصِحهم. لكنَّ الله شاءَ أنْ ألقىٰ في السفينةِ التي أقلَّتني من نابولي الإيطاليةِ إلىٰ بُور سعيدٍ رجلًا من أصفيائهم. بل جاورهم في نفسِ الدارِ سنينًا، فتبوأ حينئذٍ مَقامَ معلمي. ومكثتُ في القاهرةِ أسابيعَ لا لشيءٍ إلا لأنه مكثَ فيها، ثم رافقته إلىٰ يافا في نفسِ السفينةِ. لكنه آثرَ ألا أجيء القدسَ من حيني لسببٍ لا أعرفه، وما أظنه إلا الجنون. فلما نزلنا إلىٰ البر ساقَ إليَّ حديثًا في القومِ الذين أردت زيارتهم، وفي غرابتهم وشدة اضطراب أخلاقهم. وقال: إنَّ مُكثي بيافا خيرٌ لي إلىٰ أن يبعث إليَّ يطمئنني أن القومَ سيرحبون بي. ثم عرفت فيما بعدُ أنَّ حديثَه هذا كَذِبٌ محض، وبُهتانٌ علىٰ بيتٍ مِضياف. لكنِّي صدَّقته إذ ذاك كما صدَّقتُ كلَّ حديثٍ حدثني به، فلم يكن لي سبيلٌ ألتمس به أخبارَ القوم غيره.

فأخذت بقوله وبقيت في يافا، وسكنتُ في فُنَيدِقٍ في الحيِّ الألماني جمَعَ من المحاسنِ النظافةَ والرُّخصَ. ولو قعدتُ فيه أنتظر البشرىٰ التي وعدني بها صاحبُ المشورة، لوجدتني ثاويًا فيه حتىٰ الساعة. وضَجِرتُ من العيشِ في أولِ أسبوعين، حتىٰ أشفقَ عليَّ من عزلتي الأستاذُ هَنَوَر، وهو قسيس الإنجليز، وتاجرُ آثارٍ عتيقةٍ معروف. فأخرجني ومَشَّانِي، وعلمني كلماتٍ عربية. وكان مولد هنورَ بالقدسِ، وأُشرِبَ محبةَ هذا البلد. ثم بُحتُ له -بعدَ ترددٍ- بأمنيَّتي التي أسررتُها بمصحابةِ أهلِ البلادِ، فاستحسنها. ولقيتُ دليلًا كيِّسًا[١]، من أشهر المزَّاحينَ في

(١) الدليل: صنعته الدلالة؛ وهو الذي يدل الناس علىٰ الطرق والمزارات. والأعاجم تسميه: التُّرجمان أو الدراقومان؛ لأنه يحسن لغتها، ويترجم لها. (كل الهوامش من إضافة المترجم)

الشامِ كلِّها. ووافقَ أنْ كانَ نزيلًا بنفسِ الخانِ الصغيرِ الذي نزلتُ فيه، ولم يكن له في الدُّنيا شغلٌ إلا تأمُّلُ الغادي والرائحِ مِن حوله. فأعانني علىٰ أن أتفصىٰ من طريقةِ الأوربيين وسِيرَتِهم، وأنغَمِسَ في طريقةِ أهلِ البلاد في العيش.

سرت معه في سهلِ شارونَ نطوفُ علىٰ ظهورِ الخيل، ونقيم بين ظهرانَي الفلاحين، ونجالسهم في المقاهي في رام الله، واللُّدِّ، وغزَّةَ، ونلتقي صنوفًا كثيرةً من الخلق. فتعلمت لسانَ القومِ من غيرِ جهدٍ مني، بل وأنا ألعب. وكنَّا نخرج علىٰ خيلنا من لدن بزوغِ الفجرِ إلىٰ مغيب الشمس. فحججنا إلىٰ مسجدِ النبيِّ روبِنَ بنِ يعقوب في منتصفِ الطريقِ إلىٰ غزةَ، في أطرافِ أرضٍ ذاتِ بِرَكٍ عند البحرِ. وسرنا ناحيةَ الشَّمالِ إلىٰ سفحِ جبلِ الكَرْمَلِ، وسَبَرنا شِعابَ جبالِ الخليل، واختلفنا إلىٰ الحمامات التركية، ونزلنا علىٰ أهلِ البلادِ في بيوتهم وأكلنا طعامَهم، ولَزِمْنَا عاداتِ أهلِ الأرضِ في شأننا كلِّه. ولقد عَجِبْتُ من شدَّةِ الراحةِ التي وجدتها في هذه العِيشة. وما رأيتُ قطُّ فيما تصرم من سِنِي عُمُرِي أحدًا سعيدًا، فهؤلاء هم السعداء حقًّا. ولربما كانوا فقراءَ، لكنهم لم يطمعوا في غِنىٰ. والله إن التنافسَ لا يُعرَف عندهم، ومبلغُ التسابقِ بينهم خيلٌ ورمح. أما كِراءُ الدُّورِ والرَّواتبُ فهمومٌ لم تطرق أسماعَهم. وأما التفريق بين طبقاتِ الناسِ -كالذي عَهِدناه- فليسَ عندهم، وكلُّ الخلقِ يكلمون بعضَهم، وترىٰ بينهم أخوةً مستحكمة، مع الفرقِ بينهم في الطبقات.

ورأيتُ قومًا يستهجنون سوءَ إدارةِ هذه البلادِ، وما يقصدون إلا أنَّ الحكومةَ تَكِلُ الناسَ إلىٰ أنفسهم وأهوائهم، حاشا في عظيمِ المسائل. ومع أن أهلَ أوربةَ يُجِلُّونَ الحكومةَ التي تتصل بكلِّ امرئٍ وتدخل نفسَها في معيشته بقدرٍ معين، إلا أنَّ المشارقةَ لا يطيقون ذلك. وقد رأيتُ رؤيا أن الأممَ المبتلاةَ حَمَلَها بُؤسها علىٰ السعي في إشقاءِ الأمم السعيدة، وقد تجلَّتْ هذه الرؤيا لي في السنينِ التوالي. لكنِ اعلم أن هذه العِيشةَ المشرقية الهينةَ اللينةَ فيها مع ذلك شدَّةٌ ومَنَعَةٌ إن أُرِيدَت بتبديل، تَغْلِبُ من أراد قلبها إلىٰ كدٍّ وكدحٍ مُنَغِّصٍ مُكَدِّر، ويعرف ذلك من سعىٰ في تغييرها.

وجمعني صديقي الشاميُّ سليمانُ، صاحبُ ما سيلي من القصصِ، بالأوربيين الوحيدين الذين اتبعوا طريقةَ المشارقةِ في العيش. وهم أهلُ بيتٍ فرنسيٍّ إلسازيٍّ[1]، واسمُهم آل بَالْدِنَسْبَرْقِير، واشتركوا مع سليمانَ في إطلاعي علىٰ البلدِ وأكرموني. وقد اشتهروا بأنهم أئمة النِّحالةِ العلميةِ في فلسطين. فكانت لهم مناحِلُ كثيرةٌ في مواضعَ شتَّىٰ من البلادِ، يحملونها في مواسمها علىٰ الرواحلِ، ويفتشون عن منابتِ الوردِ الحديثةِ. وقد رأيتها بالقرب من بساتينِ يافا، وفي جبالٍ جنوبيَّ الخليل. وقد غفَلَتِ الحكومةُ عن تجارتِهم مليًّا من الدهرِ، حتىٰ شاعَ بينَ الناسِ أنها مربحة جدًّا. فضُرِبَتْ عليهم إتاوةٌ غاليةٌ، أبىٰ البَالْدِنيُّونَ بذلَها. وقالوا: إنْ شاءتِ الحكومةُ أخذَ الخلايا فلها ذلك. فأُرسِلَ الجندُ لإنفاذِ النهب. إلا أن النَّحَّالينَ نزعوا من كلِّ خليةٍ قاعدتها، فلما رفعَ العسكرُ الخلايا انثالَ عليهم النحلُ الغاضبُ، ففرُّوا. ورضيت الحكومة بعد هذه الحادثةِ بالصلح.

وإني لأحفظُ اليومَ الذي خرجتُ فيه مع إيميلَ وصامويلَ البَالْدِنِيِّين في مسيرِ يومٍ طويلٍ، عرَّجنا فيه علىٰ عَسْقَلَانَ وعَقْرُونَ، وأذكرُ الغداءَ الذي أعدَّهُ لنا عريفُ قريةٍ، مِن شاةٍ كاملةٍ مشويةٍ، حُشِيَتْ مكسراتٍ وخضروات. وأحفظُ اليومَ الذي قطعتُهُ مع هِنري البالدنيِّ في ناحيةِ الخليل. وإن صحبةَ من صادقتهم تلكَ الأيامَ لَصحبةٌ لا تنقطع حتىٰ الممات. فما زلتُ حتىٰ الساعةِ صاحبَ هَنَوَرَ والبَالْدِنيِّينَ، وسليمانَ، وغيرهم من أهلِ البلادِ ممن لم يزل حيًّا.

وخلاصةُ القول أنِّي انتفشتُ في البلادِ شهورًا لا يقِرُّ لي قرارٌ، في سمتٍ لا يليق بإنجليزي. ولمَّا رجعتُ بعدَ إبطاءٍ، وإلحاحٍ في الدعوةِ، واستعملتُ الرسائلَ التي عَهِدَ إليَّ بها أهلي لأستعرِفَ بها: كنتُ في ثيابٍ شبيهةٍ بأهلِ البلدِ، وملءُ قلبي حُبًّا للعرب، فخُبِّرتُ أن ذلك لا يجمل بي البتة. وكانَ أصحابي من أهلِ البلادِ موضعًا للرِّيبةِ عند الإنجليز. بل قِيلَ لي: إنهم لوجودهم كارِهون، فإذا نافحتُ عنهم، شددوا عليَّ النكيرَ من فورِهم بقولِهم: إني فتًى غِرٌّ. ولا جرمَ لا يكون لي أن أدَّعيَ لنفسي تجرِبةً توازِنُ تجرِبةَ نُصَّاحي الرشداء، ممن ناصحوني

---

(١) إلساز: إقليمٌ في شرقِ فرنسة.

ألا أثق بأهل البلاد، وأكثروا من هذه النُّذُرِ حتىٰ صارت في مرتبةِ أصولِ الأخلاقِ. وإنَّ مِنْ لذائذِ الشبابِ المضمرةِ عصيانَ أصولِ الأخلاق.

ولهذا وشبهه ترىٰ الكرامَ الذين سكنوا الشامَ من الإنجليزِ عيَّابِينَ أفظاظًا في هذه الورقات التي بين يديك، حاشا قليلًا منهم. وهم أفظاظٌ في رأيي الذي لم أبُحْ به إذ ذاك، لكنَّ فظاظتَهم لم تَكُنْ عليَّ. ووالله إن كثيرًا منهم لَطَفَ بي، لا سيما في وقتِ مرضي، حتىٰ صرتُ لا أتذكره إلا بمحبةٍ وأُنس. إلا أنَّ خُلُقَ السوادِ الأعظم منهم لم يماثل خُلُقي، وكانَ ذلك شديدًا علىٰ نفسي؛ لأني كنتُ لا أزال في ذلك الوقت أوقر خُلُقَهم وأظنه هو الصوابَ، ولأني كنتُ أرىٰ نفسي في بعضِ الأحايين قد مشيتُ في الضلالةِ، وصرت إلىٰ حالٍ محزنة. فكانوا -لعمري- مدَّةَ إقامتي في المشرقِ كأنما هم شخوصٌ ساخطةٌ من ورائي، كما صورتهم في هذا الكتاب. وتطابقَ رأيي وهوايَ مع رجلٍ، ذكرته أكثرَ من مرةٍ في قصص الكتاب. وسكنتُ معه بضعةَ أشهرٍ في قريةٍ جبيلةٍ صغيرة، ولم تنحل عقدة الصداقةِ التي عقدناها إذ ذاك إلىٰ يومنا هذا. إلا أن صاحبي هذا كانَ شاذًّا عن الأصل، وإن لم يكن في شذوذه هذا أوحدَ.

ثم لما نزلت بالقدسِ أولَ مرةٍ، عشت في تلك الأشهر عيشةً يجوز أن تسميني فيها صاحب وجهين؛ وذلك بسبب رأيِ عامةِ الإنجليزِ في أصحابي العرب. حتىٰ جاءني سليمانُ بعد انقضاءِ موسم السياحةِ، ووعدني بالمغامراتِ، فلمْ أعد أقيم للتحفُّظِ وزنًا. واستأجرنا فرسين وبَغَّالًا، وأوغلنا شَمالًا. ثمَّ أُكرِهَ سليمانُ بعد نصف شهرٍ علىٰ فِراقي؛ إذِ استدعِيَ إلىٰ قريته ونحن عند سفحِ الرأس الأبيض بمقربةٍ من صُور. فمضيتُ قُدُمًا ليسَ معي إلا بَغَّالٌ مُكارِيٌّ واحدٌ أبله.

وعسىٰ أن يتصوَّرَ في ذِهنك من الصفحات التَّوالي ما كان بعد ذلك من المغامراتِ. وقد عمدتُ إلىٰ صورٍ في الذهنِ ما زالت بيِّنَةً حتىٰ بعدَ تصرم عشرين عامًا أو أكثر، وصُغْتُ منها قصصًا. وهذا الكتابُ ديوانٌ لأمورٍ صغيرةٍ، لا ريب، إلا أني أحسب أنَّ كتبَ القصصِ الهزلية التي احتوت تجارِبَ مثلَ هذا الكتاب، لربما تَعلَّمَ المرءُ منها شيئًا من حُبِّ الخيرِ للناس، ما لا يقتبسُه البتةَ من فائقِ التصانيف.



الباب الأول

رشيدٌّ الأشقر

انبسطت هذه الصحراءُ الغبراءُ، وتموَّج علىٰ رمضائها سرابٌ من القيظ، وأبعدَتْ حتىٰ بلغت موضعًا فيه جبالٌ اعترضت في أفق السماءِ الصحوة. أجدب كلُّ كلَئِها من قحطٍ تتابع عليها ستةَ أشهرٍ، فما أبقىٰ فيها إلا زُرْقَ الشوكِ وصُفْرَه، وشجيراتِ عِضاه[1]. بيد أن هذه البيداء بأسرها لتزهو زُهُوَّ الزهرِ من بعدِ أن تهطل عليها أمطارُ الشتاء الثجَّاجة. وقد قطعتها في الربيع بعدَ ذلك، يومَ كَثُرَ وردُها البري كثرةً عجيبةً، وغشي بقاعها الميتة، ويومَ توهج حُمر الخُزَامَىٰ وسط حِنطتِها، ويومَ انبسطت حقولُ السنابل أميالًا يتمايلُ قصبها حولَ ثلاثِ قرًى هناك بيوتُها من طين.

أما الآن فكلها بيداء. وبعد مسيرِ أربعةِ أيام في مثل هذه الأرض، صرنا نجدُ حلاوةً في التفكر في وجهتنا، وهي مدينةٌ ماؤها عِدٌّ[2]، وحدائقها ظليلة، وتطرب فيها لتغريد طير. وكنت أتخيل في ذهني حالَ وصولنا إليها وما نجده من ظلٍّ، وجَمامٍ، وشرابٍ باردٍ في كؤوس طوالٍ، ودندنةِ أسواقٍ يُستأنَسُ بها. وكنت أسائل نفسي: ماذا أجد هناك من رسائلَ أُرسلت إليَّ؟ وكل ذلك أفكرُ فيه وفي نفسي لحنُ أغنية «تقدموا جند النصارىٰ». فطقطقةُ حوافرِ الخيلِ تُوقع أبدًا في

(١) نباتُ الشوك في العربية عِضٌّ وعِضاهٌ، فما كان له جِذعٌ كالسَّمُرِ والسدر فهو العِضاهُ، وما كان شُجَيرةً في الأرضِ كالشُّبرمِ والشِّبْرِق فهو العِضُّ.

(٢) الماء العِدُّ: هو الوافر الدائم الذي له مادةٌ لا تنزح ولا تنقطع.

خاطري لحنًا لا يصلحُ البتةَ للمقام الذي أكونُ فيه، ولا حيلة لي بمنعه أو اختياره. ثم - وأنا في حالي تلك - أفزعتني صرخةٌ صرَخها رفيقي بغتةً، وفي صوته غضب. ورفيقي هذا بغّالٌ استأجرتُه. وكان قد تقدَّمني في المسير، فلما أهَبَّني تنبهتُ أنه قد لحق رُحَّلًا آخرين وأخذ يحادثُهم، وهما رجلان علىٰ حمارٍ، والرديفُ منهما جنديٌّ تركي. ولم يكن في مدِّ البصر حيٌّ غيرُ ثلاثتهم، ونَسْرٌ ما يزيد علىٰ نُقَيطةٍ في أديمِ السماء.

وأحسبُ أن أمرًا وقع بينهم؛ إذ كأني بالجندي متفكِّهًا، وصاحبي المسكينُ يشيرُ بيديه ويومئ إيماءَ مُحاجٍّ قانط. ثم كرَّر نعيره الشديدَ الذي نغص عليَّ سُلوتي، وعطَف بغلتَه، ورجع مسرعًا ليلقاني.

صَخِبَ لمَّا جاءني: «خنجري خنجري! خنجر الفولاذ العظيم! فيه شرفي! وفيه أَحسَنُ إتقانِ صقلٍ وتحليةٍ! وهو ميراثُ أهلي! سرقه ذاك الخسيسُ. قطع الله عمرَه! أقصِد الجنديَّ بكلامي. أحسب أنه أعجبه، فسألني أن ينظرَ إليه لحظةً، وأنا غِرٌّ ما فطِنتُ له، فأعطيته إياه. فما كان منه إلا أن أدخلَه في حزامه، ثم سألني أن أُريَه الرخصةَ التي أُذن لي فيها بحمل سلاحٍ، ومَن مِن الناس سمِع قطُّ بمثل ذلك في هذه البادية؟ وأبىٰ أن يردَّه إليَّ، مع أني تضرعت إليه. وأنا خادم سعادتك، فحدِّثْه عني، وأرغِمْه علىٰ ردِّه. فهذا الخنجر ميراث أهلي». وطفِق هذا الأشيبُ يبكي عندي بكاءَ طفلٍ.

وكنتُ حينئذ في عنفوان شبابي، ففُتِنت بقوله، وبإلقائه مقاليدَ كلِّ أمره إلىٰ سُلطتي. وكان تعويلُه علىٰ مروءتي أغلىٰ عندي من الذهب وكريمِ الحجارة. فتشجَّعت، وركضتُ فرسي خلفَ ذاك الغاصب.

فلمَّا أدركتُه صِحتُ به مزمجرًا: «رُدَّ ذلك الخنجرَ! إياك أعني يا جندي».

فأقبل عليَّ بوجهٍ تكلف ألا يُظهر علىٰ صفحته كيدًا، صبيحٍ، أشقر الشارب، خفيفِ اللحية، أبصرتُ في عينيه مكرًا. ثم قال لي متلطفًا: «أي خنجر؟ فما فهمتُ قصدَك».

فقلتُ: «الخنجر الذي سرقتَه من هذا البغَّال».

فضحِك الجندي استخفافًا، وقال: «إيه، ذلك الخنجر. هذا شأنٌ أحقرُ من أن تصرِفَ سعادتُك- إليه نظرَك. وأما هذا الخبيث الذي تنازعُني فيه فمجرمٌ معلومٌ، وإنا نعرف بعضنا من قديم الدهر».

فزعَق البغَّال من ورائي: «أُقسم بلحية النبيِّ، والقرآنِ الكريم، ما رأيتُ وجه هذا الشيطان قطُّ قبل هذه الساعة».

فأمرته مرةً ثانيةً: «رُدَّ الخنجر!».

فما كان جوابه إلا أن قال بلينٍ: «والله، لا أفعلُ أبدًا».

فقلتُ: «أقول لك: رُدَّها!».

فتبسم الجندي ابتسامةً بهيجةً، وردَّ مُهمهِمًا: «كلا، لا يكون ذلك. ولا لسعادتك، وأنت مَن يعلم الله أني أكاد ألا أجد سبيلًا أبلغ بها رضاك إلا قطعتُها. فلا تُلحَّ عليَّ في هذه المسألة. ولْيُرضِينَّك مني أن تعلمَ أنه لو كان خنجرَ سعادتِك لرددتُه من ساعتي. لكن هذا الرجل مَقِيتٌ كما أخبرتك. وإنه ليعزُّ عليَّ أن أرىٰ امرأً رفيعَ الدرجة علىٰ خلقٍ لا يليقُ به إرضاءً لهذا، وما هذا إلا كلب».

قلت له: «أمَا لو كان كلبًا، فهو في ساعتنا هذه كلبي، فرُدَّ الخنجر».

فقال: «يا أسفَىٰ يا حبيبي! فإن إجابتَك إلىٰ ما سألتَ متعذِّرة».

وأشار الجندي حينئذٍ بيده صدًّا عن المسألة من أصلها، وأعرض عني. ثم استلَّ من حزامه سيجارةً، وهمَّ أن يوقدَها. وأما صاحبُه علىٰ الحمار فلم يلتفتْ إلينا، ولم يُلقِ لحديثنا بالًا البتة. وقد طال جدالُنا هذا حتىٰ أحسستُ أني لو استمررنا فيه قليلًا لما تمالكتُ أن أضحك. وإن بقي في يديَّ حيلةٌ فلا بد أن أحتالها من فوري. فانتزعتُ مسدسي من قِرابه، وحملتُه علىٰ رأس العِفْريت، وصِحْت به: «رُدَّ الخنجر هذه الساعةَ، وإلا قتلتُك!».

خَرِع الرجل[1]، ورجع لنا الخنجر في لمح البصر. أعطيتُه البغَّالَ فحمِد الله وله عويلٌ، وذهب به. فاطمأننتُ كاطمئنانه، وهممتُ أن ألحقَه، إلا أني لما رأيتُ الجندي كاسفًا كأنما تقطَّعتْ به الأسبابُ، حملني شكلُه علىٰ أن أفتح

(١) خَرِع الرجل؛ أي: استرخىٰ جسده، ولانت مفاصله بعد شِدة كأنما خرَّت؛ لفزعٍ أو ضعفٍ أو موت.

المسدس وأُرِيَه أنه كان فارغًا من الرصاص. فلمَّا فعلتُ، تبدل شكل خصيمي، فاستقام ظهرُه، وأطبق فمُه، ورجَعتْ لعينيه فطنتُهما الأولىٰ. ورماني ببصره ساعةً مرتابًا، ثم ضحك. وآهٍ كيف ضحك ذاك الجندي! والتفت إليه صاحب الحمار وابتهج معه. وتعانَقَا، وعلت أصواتُ ضحكهما من الفرح، وولَّىٰ الحمار الذي تحتهما بهما، ومضىٰ خاضعًا.

جلستُ أنتظر غَداءً قُدَّامَ خانٍ للرُّحَّلِ، في وادٍ صغير اخْضَرَّ بأشجارٍ مثمرة، بجوارِ جدولٍ جارٍ زيَّنت ضفافَه دِفْلَىٰ[1]. وبينما أنا جالسٌ إذ طلع الحمارُ وراكباه مرةً ثانية. فلما وقع بصرُ الجندي عليَّ هوىٰ من حماره وهُرِع إلىٰ الخان كأنما أطبقت الجن علىٰ عقله. ثم ما لبِث أن رجع بما طلبتُ من طعام، وهيَّأ لي مائدةً تحت ظل الشجر.

ثم قال لي: «لن أذرَ غيري يقوم علىٰ خدمتك؛ حبًّا لِمَا مازَحْتني به من دعابةٍ نَذْلة، أمَا كان به رصاص؟! أبعد الرعبِ كلِّه الذي نزل بي؟!»، ثم سكت هُنيَّةً وقال: «ذاكم مسدسٌ فاخر، فهلا أرَيْتَنيه؟!».

فما كان جوابي إلا أن قلتُ: «نعم، انظر إليه حتىٰ تشبعَ منه؛ فلا يكون لك أن تمسَّه».

فرجع يضحك من جوابي مثلَ ضحكه الأول، كأنما أنا عنده أفكَهُ بني آدمَ.

ثم قال: «فخبِّرْني ما كنتَ صانعًا إذا أبيتُ؟ لم يكن في المسدس رصاصٌ، فما كنتَ تصنعُ؟».

وكانت كَفُّه حينئذ مبسوطةً علىٰ مقعدٍ، فضربتُ براجِمَها[2] ضربًا رقيقًا بمؤخر المسدس حتىٰ أبيِّنَ له ثِقَلَه.

فصاح معظِّمًا لقولي: «أناشدك الله! أما إن ضربتني به فما أظنك إلا تهشم رأسي! وكل ذلك لشقيٍّ لا قَدْرَ له، استأجرتَه أسبوعًا ولن تلقاه بعده». ثم جدَّ في كلامه فجأةً وقال: «يا أفندم، استعمِلْني خادمًا لك أبدَ الدهر. ادفعْ إلىٰ الجيش

---

(١) الدِّفْلىٰ: صنف من الشجر، مزهرٌ حسن المنظرِ، يكون في الأودية.

(٢) البراجم: مفاصل الأصابع من ظهر الكف، واحدتها بُرْجُمَة.

خمسة جنيهات ثمنَ مفارقتي إياهم، وهي إن غلت قليلًا إلا أنَّ الله يعلمُ أني رادُّها إليك بخدمتي إياك. فبالله استعمِلْني، فدتك نفسي».

اتخذتُ رأيه هُزُوًا، وأصرَّ عليَّ فيه. فلما ارتحلت أنا والبغَّال ركب إلىٰ جانبنا علىٰ حمارٍ غيرِ الأول، وهذا الحمار «عاريَّةٌ» كما أخبرني، فعلمت من ذلك أنه رجلٌ أريب. ثم قال لي: «والله، إني لأُحسِنُ إنعالَ الخيل، وطبخَ الدواجن، وإصلاحَ الثياب خياطةً، وأصيب الطير في جَناحه، وإني لمتكفِّلٌ لك بشؤون البيت والمَربِط، وصانعٌ كل ما تودُّ سعادتُك. وأما اسمي فرشيدٌ، وكنيتي الأشقر، ورباطي في قرية كرمين، وهي مسيرةُ يومين من المدينةِ، لا غير. فتعالَ بعد يومٍ أو يومين وادفع النفقةَ التي تخرجني بها من الجيش. ولا تَشغَلنَّ فكرَك بأجري، وما عليك إلا أن تجربني».

فلما نزلنا في الخان الذي بتنا فيه الليلةَ وكان خانَ ضنكٍ، أحسنَ خدمتي، ووقَّرني حتىٰ ودِدتُ أن لي خادمًا مثلَه. فلما كان الغدُ ركِبنا ساعةً متجاورين، ثم افترقنا.

فهَمهَمَ قبل مفارقتنا: «سألقاك إن شاء الله بعد أيام. اسمي رشيدٌ الأشقر، فلا تنسَه. وسأُعلم قائدَنا أنك آتٍ بالمال».

فقلت له إني لربما نظرتُ في الأمر.

فطفِق يتضرع إليَّ: «تعالَ إلينا، ومثلُك لا يُخزي رجلًا ركَن إليه. وأنبأتُك أني مخبرٌ قائدَنا بمَقدَمِك. أوَّاه! لا تُخزني عنده وعند أصحابي». ثم ابتسم متلطِّفًا، وسألني: «أوَتحسبني لصًّا فاسقًا لأني أخذتُ خنجرَ ذلك الرجل؟ فهلا علمتَ يا سيدي أني ما صنعتُ إلا ما هو حقٌّ عليَّ وواجبٌ علىٰ كل جند السلطان في أرضه؟ وما خرج عن طاعة القانون حقًّا إلا ذاك البغَّالُ؛ إذ حمل سلاحًا بغير رخصة. وأنت مثله، أفعندك تذكرةٌ لهذا المسدس الفاخر؟ أرأيتَ الموضعَ الذي تغدَّينا به أمسِ؟ كان به جندٌ غيري. فلو لم أصنع إلا أن أناديَهم لأستظهرَ بهم، لكان لي أخذُ خنجره ومسدسك هونًا، علىٰ صدقٍ ومتابعةٍ تامةٍ للقانون، فلِمَ لم أصنعْ ذلك؟ لأني أحبك! فقل لي: إنك آتٍ كرمينَ ومعتقٌ إياي من الجيش».

ثم أتبعتُه بصري وهو يهرولُ علىٰ حماره نحو أخدود يشُق الأُكُمَ فيه دربٌ إلىٰ كرمينَ للخيَّالة. ومع أن كل القرائن دلت علىٰ خبثه، إلا أن الرأيَ الذي ارتحتُ له سلامةُ طويته. ولو سمع أيُّ أُورُبِّيٍّ في هذه البلادِ الخبرَ لارتفعت كفَّاه فزعًا وصاح بي أنِ «احذرْ!»، إلا أني -وأنا أسيرُ في هذه الأرض القاحلةِ الجدباءِ قاصدًا مدينةً ذاتَ خضرةٍ وماءٍ مَعِينٍ- أيقنتُ أني لا بد ذاهبٌ إلىٰ كرمينَ.

الباب الثاني

رباط الجبل

لم يقع في مسيرِ اليومِ الطويلِ أمرٌ يُحفل به، أما الليلة فكانت خلافَ ذلك. وكنت قد بتُّها في قريةٍ جبليةٍ في خانٍ عجيبٍ يقومُ عليه نصرانيٌّ سمينٌ من أهلِ البلدِ اسمُه إلياس. زعم، فيما علَّق من لافتة، أنه يمُدُّ مَن نزل عنده بطعامٍ وسكنٍ فَرَنْجيَّين. والعربُ تقصد بالفرنجيِّ ما كان علىٰ طريقةِ المحدَثين من الأوربيين. وكان في الدار مجلسٌ فسيحٌ إلىٰ جواره حجرة نومٍ لها نفس السَّعة، تكفي بضعة وثلاثين مسافرًا. وما كان بالدار مَربِطٌ، فاضطُررت إلىٰ البحث عن مَربِطٍ في موضعٍ غيرِه. ولما حضر العَشاءُ أُتينا بخِوانٍ، وأُجلسنا في مقاعدَ حوله، وقُرِّبَ إلينا طعامٌ ما هو بأوربيٍّ البتة، بل يونانيٌّ طبخُه رديء. ووُضعَ لكل نزيلٍ شوكةٌ وسكين ومِلعقة، إلا أن كثيرًا منهم طرحها وباشرَ الأكلَ بيده. وكان في الدار حُجُراتٌ، في أطولها اثنا عشر فراشًا علىٰ سُرُر، ضمِنت أحدَها بأن عرضت علىٰ صاحب الدار أن أزيدَه شيئًا طفيفًا فوق كرائه. وفي حجراتٍ غيرها فراشان أو ثلاثة أو حتىٰ أربعة. وكان معنا في حجرتنا شيخٌ إرمينيٌّ وقور، معه زوجتُه التي وقف عليها يحرُسُها بمسدسٍ طَوال الليل. وكانت به حماقةٌ شديدة، حتىٰ إنه لربما رفع صوتَه مهدِّدًا كلَّ امرئٍ اجترأ علىٰ أن يقرب منها. وبعد أن صنع ذلك مرارًا، قام رجلٌ يليني من فراشه ومشىٰ علىٰ تؤدة إليه، وأخذه من عنقه، وقال له منذرًا: «يا رجل! أمجنونٌ أنتَ أم ما عِلَّتُك؛ إذ تَهِيج شهوتَنا بحديثك عن النساء؟ صَهٍ وإلا ضرب الصالحون منا عنقَك وأخذوا منك امرأتَك. أوفهمتَ؟»، وهزَّ

ذلك الزوجَ الغيور كأنما يهز دميةً، وقال له: «صه، أسمعت؟ فإنَّا رجالٌ نشتهي أن ننام».

قال لي هذا النذيرُ لما رجع إلىٰ فراشه: «ألم أقُلِ الحقَّ يا أخي؟».

فأجبته: «بلىٰ والله، قلتَ الحق». ولم نسمع للزوج الغيور بعد ذلك رِكزًا، بيد أن الضوضاءَ من غيره لم تنقطع؛ فقد مكث رجالٌ في المجلس يلعبون الورق. وكان عند صاحب الدار المشتغِلِ بأمور الأروبيين صندوقٌ موسيقيٌّ أبقاه الذين يلعبون الورق يعزف الليل كلَّه، والحمد لله أن هذا كان قبل زمن الحاكي.

بدأتُ أجدُ مسَّ الحمىٰ، وفي الدار هوامٌّ، ولا رجاءَ في نوم. فنهضتُ وما زلنا في ليل، فلما لم أجد صاحبَ الخانِ، خرجتُ ولم أدفعْ له كِراءه. ومشيت إلىٰ حيثُ ربطتُ فرسي، موجسًا في نفسي خيفةً من أن تثِبَ عليَّ الكلابُ الضالة. وما انقضتْ عشرُ دقائقَ إلا وأنا أسيرُ علىٰ جانب الجبل، وقد باعدت القرية، مع أني ما زلت أبصرها بغبشٍ يخالطه ضياء النجم. انحدر بي الدربُ إلىٰ وادٍ سحيق، ثم رجع يعلو، وما فتئ يعلو حتىٰ حسِبتُ أنْ لا نهايةَ لعلوه. ولمَّا بلغتُ القمة بعد إبطاءٍ أحسستُ بالفجر. فمع أن كلَّ صدعٍ في الجبالِ ووادٍ بينها ما زال يغَصُّ بظلمة الليل، إلا أن شِعافَ الجبال ابيضَّت كأنها غواربُ موجٍ[1]. وفي جهة المشرق وراءَ ظهري تبيَّن خيطُ الفجر الأبيض ممتدًّا في الأفق، ترىٰ منه حروفَ الجبال جديبةً صقيلةً. وأما هيئةُ النجوم فكانت غريبة. وهبَّت ريحٌ أحسستُ بنسيمها علىٰ خدي، وهبَّت علىٰ الشجيرات والعشب ولها حفيف. وبانت قُدامي وجهتي علىٰ شفا جُرفٍ منتبذٍ، وهي قريةٌ عظيمةٌ مربَّعةُ البناءِ كأنها حِصن. علَت حينئذٍ بيوتَها حُمرةٌ كحمرةِ وردٍ بري، ثمَّ اشتدت حتىٰ بدت كحمرة اللهب. لمنظرِها بهاءٌ، ومن ورائها السماءُ قاتمةٌ، مُلئت نجومًا لم تخنس بعد. ثم سطع علىٰ نافذةٍ شعاعٌ مُؤذِنًا بشروق الشمس.

لمَّا علم جماعةٌ من الإنجليز عن عزمي علىٰ إعتاق رجلٍ من الجيش التركي لأصطفِيَه لنفسي، عدُّوا عزيمتي هذه ضربًا من الجنون. فما خبرتُ أهل هذه البلادِ كما خبروهم، ولربما نهبني الرجلُ وصرت مُعدِمًا، بل لربما قتلني. وهم

(١) غوارب الموج: رؤوسُ الأمواجِ البيضاء. وشِعافُ الجبالِ: رؤوسها.

أحقُّ مني بالحكم، كيف لا؟ وهم مَن سكن هذه الأرضَ عشرين أو ثلاثين سنة. فأظهرتُ أني مذعنٌ لهم حتىٰ لا أكدِّر خاطري. وصار في قضائي لحاجتي هذه شيءٌ من التستر. ثم خرجت بعد إبطاءٍ ولم أكلم رجلًا منهم بكلمة، وأجد في نفسي كأني آبقٌ، ثم دنوت من كرمينَ وأنا أجد نفسَ الموجدة، التي فيها استشعارٌ للمخاطرة.

نهض جنديان عند مَقدَمي، وكانا جالسَين فوق ركامٍ يتشمسان، أحدُهما رشيدٌ الخبيثُ الذي جئتُ أطلبُه. وأرشداني إلىٰ دار قائدِهما، وهو بيت زهيد، به حجرةٌ واحدة تكاد تخلو من الأثاث، وتبِعَنا إليه عصبةٌ من الجند.

وجدتُ قائدهم حسن آغا قد تزيًّا بكامل زِيِّه لمَّا جئناه، وهو شيخٌ كبير، مندوبٌ وجهُه، كثٌّ أبيضُ شاربُه. وكان يلبَس قفازين من قطنٍ عند دخولي عليه. وهو علايلي مُسِنٌّ، والعلايلي: جندي تركي اقتبسَ كلَّ علمه بالصنعةِ من خبرته وتجارِبه في العلاي؛ أي: الكتيبة، لا مِن تعلُّم في مدارسِ العسكر. ولم أرَ في خُلقه مع مَن تحته شيئًا مِن تأمُّرِ العسكر؛ إذ كان يناديهم متودِّدًا بقوله: «يا أولادي»، وكانوا ينبسطون عنده في حديثهم من غير سوء أدب. حَفِيَ بي حسن آغا، وكرر سؤالي عن أحوالي. وأبىٰ أن يسمعَ مني حاجتي حتىٰ أُفطِرَ. ثم أخبرني أنهم يُعِدُّون لي غَداءً، لكنه لن يحضر إلا بعد ساعات. فسألني: أفأتفضَّل عليهم بمعذرتهم في تعلَّتِهم؟ وما أتمَّ قولَه إلا وقد دخل جنديٌّ بطبق فيه أقراصُ خبزٍ عربيٍّ، وجرةُ لبنٍ، وقِطفُ عنب. وطفِق جنديٌّ ثانٍ يطحن قهوةً، وصاحبه ينفخ في فحمِ مِجمَرةٍ. وأبَيتُ أن آكلَ ما قُدِّم إليَّ إلا أن يشاركَني مُضَيِّفي، فما أجابني إلىٰ ما سألتُ إلا بعد أن أطالَ التمنع بأدب. ثم جلسنا بعد الطعام نتجاذبُ أطرافَ الكلام، وخاض الجندُ معنا في حديثنا. فأنبؤوني عن الحروب الخالية وصنائعِ الأبطال. وأحسب أن حسن آغا كان مقاتلًا مشتهِرَ الذكر؛ فقد ألحُّوا عليه أن يحدثني عن مغازيه، وبلغوا الجَهد في إلحاحهم. وجاؤوني برجلٍ معمَّر من خارجِ القريةِ ليلقاني، فقد قاتل في حرب القرم[1]، وعرَف الإنجليز.

---

(١) حرب القرم: حرب عظيمةٌ قامت بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الروسية، سببها طمع الروس في البلاد العثمانية، وأعان العثمانيين بعضُ دول أوربةَ، كإنجلترة، خشية تجاوز الروس إليهم إن غلبوا العثمانيين.

وخرجنا قبل أن يشتدَّ الحرُّ؛ ليَعرضوا عليَّ تُكَنَهم، ومدفعَ ميدانٍ عتيقًا خرِبًا؛ أحسستُ أنهم يبجِّلونه. ثم أُتبِعَ ذلك بالغداء، وفيه صِحافٌ فيها صُنوفٌ من أطعمة العرب، لم ينلِ الجندُ نصيبَهم منها إلا بعد أن فرغنا. وأخبرني رشيدٌ بعد ذلك أن كل ما كان في هذا المحفِل من طعامٍ إنما كان عارِيَّةً. وذلك في أنضَرِ أيام السلطان عبد الحميد. ثم أُتي بعد الغداء بشيء من قهوةٍ، وزادوا في حفاوتهم، حتىٰ شرعنا آخرَ الأمرِ في أصل مسألتنا.

جِيء بكاتب عدلٍ، فكتب لي عقدًا بما دفعتُ. وكتب صَكَّ إعفاءٍ لَزِمَ رشيدًا. ثم ختم حسن آغا السجلَّين بخَتْمٍ شرعيٍّ، ثم سلَّمنيهما بما دفعتُ له من مال.

وخطب فينا فقال: «باسم الله . . . اشهَدوا أن رشيد بن عبد الله المكنىٰ بالأشقرِ حرٌّ من ساعتنا، له أن يذهبَ حيثُ شاء». ونظر إليَّ وقال: «إن رشيدًا لفتًى طيب، وستجده نافعًا. وإن أكبرَ عيبٍ رأيتُه فيه أنه إذا أطاعك في أمرٍ أمرته به، مالَ إلىٰ تحكيم رأيه فيه، وأبدَعَ طريقةً من عنده لإنفاذه، ولا تكون حسنةً في كلِّ مرةٍ. وهو أيضًا يضعف عند فتنةِ النساءِ؛ وهذا عيبٌ كثيرًا ما أوقعه في حرج».

فأفرطَ القومُ في الضحك من قوله الأخير هذا، وأحسبُه لطُرفةٍ مستقرةٍ عندهم لا أعرفُها. وانقبض رشيدٌ من ذلك حياءً. ثم التفت إليه حسن آغا، وقال: «يا بني، احمَدِ الله علىٰ ما حباك به من نعمةِ لقاءِ رجلٍ كريمٍ محسنٍ، كضيفنا الحبيبِ هذا، وهو من الساعةِ مولاك. ولا تنسَ أنه ليس مثلي؛ فأنا رجلٌ كنتُ مثلَك من قبلُ فعرَفتُ ما يكون من حِيَل. واخدُمْه سمحًا بفؤادك ونفسك وذمتك، غيرَ مرتقبٍ لمبادرته بسؤالك كأنك في الجيش. هلمَّ إليَّ يا ولدي وخُذ بيدي. ما أقول لك إلا: كان الله معك الآنَ وأبدًا. وإياك أن تنسىٰ ما تعلمتَه من خيرٍ يوم كنتَ جنديًّا. واعلم أنَّا لن نقطعَ الدعاءَ لك ولمولاك الصالحِ».

وترقرق الدمعُ في عينَي الشيخ، وعينَي رشيدٍ، وأعيُنِ الجند قاطبةً ممن قعدوا القُرْفُصاء حوالَينا.

انصرف رشيدٌ لما أُذن له ليستبدلَ بزِيِّه حُلَّةً لي قديمةً جئتُه بها، وجلس حينئذٍ حسن آغا يحدِّثني عنه مثلما يحدثُ الوالدُ عن ولده، ويبيِّن لي طباعَه وما به من عيوبٍ يسيرة.

فلما فرَغنا استأذنتُه وانصرفتُ، ورشيدٌ قائمٌ ينتظرني في ثيابي البالية، وعلىٰ رأسه طربوشٌ جديدٌ كالذي تلبسه العامة. تشبَّث رشيدٌ بركابِ رحلي، ووثب منه علىٰ ظهر فرسٍ ضامرٍ، أخبرني أن أصحابَه استعاروه له. وأشار عليَّ فيما بعدُ أنه لربما كان لي في شرائه منافعُ، وما ثمنُه إلا ثمانيةُ جنيهات تركيةٍ لا يُعبأ بها لقلتها. ثم لما سرنا شَيَّعَنا مَن في الرباط بأسرهم إلىٰ ظاهرِ البلدِ، وأطالوا الوقوفَ عند أطراف المدينة يلوِّحون لنا مودِّعين. ثم تجاوزنا الواديَ بعد مسيرِ ساعتين، حتىٰ إذا صرنا علىٰ حرف الجبل استدرنا لننظرَ إلىٰ كرمينَ نظرةَ مودِّعٍ، وكان وهجُ الشمس يتلألأ من ورائها ساعةَ المغيب، حتىٰ بدت كأنها حصنٌ مشيدٌ فوقَ السحاب.

رجَعنا بعد ذلك إلىٰ المنزل «الفَرَنجي»، إلا أن رشيدًا أبىٰ أن يدعَني أَبِيتُ فيه بعد أن سمِعَ عن خبر أرَقي فيه. فدفعتُ لصاحب الدار ما له عليَّ من مال. ووجدَ رشيدٌ دارًا خاليةً أنزلَني بها. وأتىٰ بفراشٍ ولحافٍ ووسائدَ كثيرةٍ ومِجمَرةٍ، وأتىٰ بكل ما يلزمُنا لنعِدَّ القهوة. وجاء بعد ذلك بطبقٍ فيه عَشاءٌ. وكل ذلك استعارَه من الدُّور التي جاورَتْنا. لربما نَهَبني، وأفقرني، وانتهىٰ إلىٰ قتلي كما أنذرني أصحابي، ولا بأس؛ إذ يصبِّرُني أني أتوقع أنَّ ذلك يُفعَلُ بي وأنا في رغدٍ من العيش.



الباب الثالث

سوطُ جلدِ الكركدن

لمَّا وصلنا إلىٰ باب الخان، التفت إليَّ رشيدٌ وصاح فجأةً: «أين السوطُ؟».

فقلتُ له: «اللهمَّ رحمتَك! ما هو عندي، وما أحسبُني إلا نسيتُه في العربة».

فما قلتُ قولي هذا إلا وقد ألقىٰ رشيدٌ كلَّ ما كان يحملُه من رحلنا وثَقَلِنا، وطفق يعدو كأنما يفرُّ من الموت. وكانت العربةُ قد بلَغتْ حينئذٍ وسَطَ زقاقٍ عُرِّش شطرُه. وجعل رشيدٌ يصرخ: «اصبرْ يا عمُّ؛ فقد نسينا سوطَنا». فالتفتَ إليه سائقُ العربة ولَمَحَه، غير أنه لم يقفْ، بل مَشَقَ الخيلَ التي تجر عربتَهُ بالسوط ليركُضَها. فأسرع رشيدٌ في جريه أشدَّ مما كان عليه، وسعىٰ عليه يطلبه، ثم تناءَيَا عني معجِّلَين، فما لبثا أن انتهىٰ بصري عنهما.

لاح الشفقُ، وظهر الهلالُ في جهة المغرب من فوق سُقوف البيوت المنخفِضة المنبسطة، وكان كأنما عُلق بخُضرةِ مغيبِ الشمسِ من وراء مآذِنِ الجامع. فاحتملتُ حينئذٍ رحلَنا، وقصدتُ خانَنَا الذي شابَهَتْ هيئتُه الصوامعَ، ومشيت دبيبًا في فنائه، بين ما بَرَك فيه من جمالٍ، وعُقِلَ من خيلٍ وبغال. وبينما أنا أراجعُ صاحبَ الدار في تدبيره لمقامنا، رجَع رشيدٌ وفي وجهه الخيبة. وقلَّبَ كفيه قهرًا مُعلِمًا إياي بإخفاقه. ثم خرَّ علىٰ الأرض يئنُّ ويبكي. فسألني مضيفُنا: أي شيءٍ أغمَّه؟ وكان رجلًا ضخمَ العَضَل. فلما أخبرتُه تكلم بشيءٍ مما في خاطره عن سائقي عربات الأجرة، وعن زخرف الحياة الدنيا. وأما رشيدٌ فما

أحسبُ -مما رأيت من حاله- إلا أنه زعلان، والزعل: أن يُلِمَّ بالمرء خليطٌ عجيبٌ من حنقٍ شديد وأسًى وقنوط، وذلك داءٌ حقيقيٌّ يصيب بني العرب. وما كان خادمٌ إنجليزيٌّ ليكترثَ لضياع شيءٍ صغيرٍ من متاع سيده، وليس ضياعُه بجريرته، بل لغفلةِ سيدِه. لكن متاعي كان موضعَ فرحِ رشيدٍ، ومطيتَه إلىٰ الشرف. وكان يفاخرُ به عند كل مَن نلقىٰ. وكان يخصُّ بإجلاله مسدسي؛ وهو طبنجة حربية، وسوطي؛ وهو سيرٌ غليظٌ قُدَّ من جلد كركدن، وزُين بمَقبِضٍ من فضة. وهَبَنِيه شيخٌ عربيٌّ مُسِنٌّ، لأمرٍ صنعتُه له تصوَّرَه فضلًا مني. وقد ألفيت هذا السوط نافعًا في ردِّ الكلاب الضالة إذا انقضَّت زرافاتٍ من مكامِنِها علىٰ فرسي لتعَضَّ رجلَه. غير أني لم أعُدَّه وسامَ شرفٍ إلا بعد أن لحِقَني رشيد. وكان السوطُ عنده أنفسَ ما نملك، وما يرفعُنا درجةً فوق مراتبِ عامة الناس. وكان يدفعه إليَّ إذا خرجت ولو كنتُ راجلًا. ولـمَّا ارتحلنا من منزل الجبل ظُهْرَ ذلك اليوم، كان هو الذي وضعه مُوقرًا علىٰ الكرسي الذي يليني في العربة، ثم صعِد علىٰ مقعد بجانب السائق. وقد ضاعَ السوطُ الآن لغفلتي، وما أورثتني كآبةُ رشيدٍ إلا كمدًا.

جعل يصيح: «يا ألله! يا ألله! ما حيلتي؟ فما السائقُ إلا رجلٌ لقِيناه عَرَضًا، ولستُ أعلم دارَه، أخربها الله». فنظر إليه صاحبُ الخان، وقال - وفي صوته سكينةٌ -: إن كل شيءٍ إلىٰ زوال، وكلَّ كنزٍ فانٍ، وإن المرء لا ينبغي له إلا أن يسموَ إلىٰ معالي الأمور. فنهض رشيدٌ كأنما نفِد صبرُه، ومرَق لـمَّا خرج من بين الماشية بخفةٍ تكادُ تفوقُ طاقة البشر. قلَّبَ صاحبُ الخانِ كفيه ونصحني أن «أذرَه يتجرع غيظَه وحده».

لما سألتُهم أن يُعدُّوا لي عَشاءً ثالثَ ساعةٍ من الليل، خرجتُ مثل رشيدٍ لأمدِّد أطرافي التي تصلَّبت، وأوثأتها أربع ساعاتٍ رَجْرَجَتْنا فيها عربةٌ غليظةٌ أحسستُ طَوال طريقنا كأنما تهُمُّ أن تنقلبَ بنا. ولو جئنا علىٰ ظهور الخيل كما جرت العادة لكانَ خيرًا لنا، إلا أن رشيدًا لما أبصر العربة -وكانت رؤيتُها نادرةً جدًّا- قضىٰ أن السفر عليها أحدثُ وأملحُ. ونسي رشيدٌ أنها ما لها سِكَّةٌ تمشي عليها.

طلعت النجومُ في السماء، وعُلقت مصابيحُ فوق الدكاكين القليلة التي ما زالت مفتوحة. تُلقي تلك المصابيحُ بخيوط نورٍ صُفرٍ علىٰ أرض النَّجْد المعوجة[1]، وتُلألِئُ عيونَ أبناء السبيل والكلاب الطوافة. وحمل كثيرٌ مِمَّن في الطريق مصابيحَ ترىٰ ما حولها يَثِبُ ويهوي من تذبذبِ سناها. وانتهيتُ إلىٰ أرض بَراحٍ مربعةٍ كأنها سوقُ المدينة، وقد اجتمع فيها خلقٌ كثير.

راعني هذا الحشدُ لَمَّا رأيتُه؛ لثباته في مكانه وانصرافِ وجوه كلِّ مَن فيه إلىٰ ناحيةٍ واحدة. سمعتُ منها صوت رجلٍ يبكي ويخطب في الناس هائجًا متشدقًا.

فسألتُ القوم -وأنا في أقصاهم-: «ما لكم؟».

فأجابني رجلٌ منهم وقال: «نكبةٌ عظيمةٌ! ضيع خادمٌ مسكينٌ سوطًا ثمنُه خمسون جنيهًا، وهو من متاعِ سيده. سرقه منه سائقُ عربةٍ خسيسٌ خبيث. ولسوف يقتلُه مولاه إن لم يرُدُّه».

فنازعتني نفسي شوقًا إلىٰ معرفة الخبر. فتقدمتُ القومَ أزاحمُهم بمنكبيَّ، فلما صرتُ إلىٰ أولهم إذا بي أرىٰ رشيدًا مستنِدًا إلىٰ جدارِ جامعٍ، يضرب نفسَه به، وله صراخٌ تفزع النفسُ منه جدًّا. واجتمع حوله عسكرُ المدينةِ وجماعةٌ من الجند مِن طِوال الطرابيشِ مُشفِقين عليه يسألونه. وأحمدُ الله أني لبِستُ طربوشًا حينئذٍ، فكنتُ لا أُعرَف.

صاح رشيدٌ: «أتقولون: خمسون جنيهًا؟! لعَمري ما كانت مئةٌ لتشتريَ صِنوَه! ووالله، إن مولاي - أعظمَ أشرافِ الإنجليز قاطبةً وأميرَ أمرائهم - يحب هذا السوطَ كحبه نفسَه، ولينتزعنَّ قلبي وكَبِدِي ويلتهمهما! يا عزيز يا ستار!».

فقال له عَرِيفُ العسكر: «صِف لنا شكلَ هذا السائق».

فجلس رشيدٌ يصفه وهو يَنشِجُ، وأحكم وصفَه. وأكثرَ من إقحامِ كلماتٍ دينيةٍ وسَطَ كلامه. فقال: «هو أعورُ، مجتمِعُ اللحية، له جسدٌ كأن شِقَّه الأسفلَ منفوخٌ. وأما اسمُه فأخبرني أنه حبيب، والله أعلم». فاندفع العريفُ: «الرجل

(١) النجدُ: الطريق المرتفعة عن الأرض تكون في الجبل.

معروف، ودارُه قريبة، هلمَّ معنا أيها المسكينُ المضطهَد، فلنردنَّ لك السوطَ منه».

فما أتم كلامه إلا انكشفت عن رشيدٍ غُمَّتُه كأن في قولِ العريفِ سحرًا، وقبض بكفه علىٰ يد العريف تودُّدًا وهما في طريقهما. تبِعتُهم مع الحشد حتىٰ وصلوا إلىٰ بابِ سائق العربة، وكان مدخلًا قذرًا في سكةٍ ضيقة. ثم فارقتُهم حينئذ ورجعتُ علىٰ عجلةٍ إلىٰ الخان؛ خشية أن ينكشفَ أمري.

جلستُ في عريشٍ خاصٍّ بي، وما لبِثتُ فيه دقائقَ إلا أقبل رشيدٌ إقبالَ بطلٍ مظفَّر، رافعًا بيديه السوطَ المشهور. وجاوزَ العريفُ الفِناءَ إليَّ مع رشيدٍ، ومن ورائهم عند الباب عُصبةٌ من الجند أبصرتُهم من ضوء مصباحٍ كبيرٍ معلقٍ بباب الفناء المقنطر.

صاح رشيدٌ: «الحمد لله! وجدته!».

وتبِعه العريفُ بقوله: «الحمد لله الذي أقْدَرَنا علىٰ بذلِ معروفٍ يسيرٍ لفخامتك». وأكبَّ مسرعًا علىٰ يدي يقبِّلها. فأجلستُهما ودعوتُ لهما بقهوة. قصَّ عليَّ كلٌّ منهما طرَفًا من الخبر، وأثنىٰ العريفُ علىٰ رجاحة عقلِ رشيدٍ؛ إذ خرج بموضعٍ يجتمع فيه الناسُ، وصاح بهم حتىٰ شاركه أهلُ المدينةِ وكلُّ شُرَطِها في بلواه. وأما رشيدٌ فقال: إن سعيه هذا كان ليضلُّ لولا علمُ العريف بمكان دارِ السائق. فتبسم العريف ضاحكًا، وأقر أن علمَه هذا ما كان ليُجديَ لولا أن أظهر رشيدٌ ذكاءَه المتوقِّد تارةً أخرىٰ، فقد انكبوا علىٰ الدارِ ودخلوها وفتشوها تفتيشًا، وما هي إلا حجرة واحدةٌ، يضيئها سراجُ زيتٍ علىٰ الأرض. وما فتئ السائقُ يماريهم أنه أبعد ما يكون عن هذا الذنبِ، ويُقسم لهم أنه ما رأىٰ في عمره قطُّ سوطًا مثلَ الذي وصفوه. وكاد الجند يصدقونه لمَّا لم يجدوا سوطًا، لولا أن رشيدًا الذي وقف بمعزلٍ عنهم تنبَّه أن زوجة السائق لبِثت واقفة في جلبابها لا تبرحُ موضعَها، فانقضَّ عليها وبَهَزَها بَهْزةً[1] زحزحتْها مترنحةً إلىٰ آخر الحجرة. فظهر حينئذٍ السوطُ، وكان مخبأً تحت تَنُّورَتِها. فضربوا ذاك الآثمَ ضربًا مبرِّحًا من فورِهم. ثم سألني العريفُ إن كنتُ أرىٰ تلك عقوبةً مجزئة.

---

(١) البهز: الدفع العنيف الذي ينحي المدفوع من موضعه.

خلَصنا إلىٰ أن الضرب أجزأه. ثم لما انصرف العريف وهبتُ له هبةً يسيرة، ورافقه رشيدٌ بعد أن أحكم إخفاء السوط الذي قد اشتَهَر. وأحسبُهم قصدوا ناديًا يتذاكرون فيه هذه المغامرةَ العجيبة، ويفيضون في حديثهم، فقد حضر عشائي وتعشَّيت ولم يرجع رشيدٌ، ولبِثتُ مستلقيًا فوق الأرض علىٰ فراشي حينًا قبل أن يرجعَ، ويبسُطَ فراشَه إلىٰ جنبي.

همس إليَّ: «أمستيقظٌ أنت يا مولاي الحبيب؟ أخطأتَ -والله- حين أعطيتَ ذاك العريفَ مالًا؛ فقد أعظمتُ من ذكرك عندهم حتىٰ صارت نظرةٌ إلىٰ وجهك أجرًا يكفي كلبًا سافلًا ضاويًا مثلَه».

ثم أطال السكوتَ جدًّا حتىٰ ظننت أنه قد نام، بيد أنه رجع فجأةً يهمس: «يا مولاي الحبيب، اغفر لي إزعاجي إياك. لكنْ أحفِظتَ مسدسَنا في موضعٍ أمين؟».

فقلت له: «إي والله، عند يدي ها هنا».

فقال: «الحمد لله. لكنِّي أُوثر أن أتكفل أنا بسوطنا ومسدسنا بعد يومنا هذا؛ فقد أعظمتُ من ذكرك حتىٰ صار لا يليقُ بك حملُ شيء».

الباب الرابع

القاضي الفاضل

دعَونا رَهْطًا من العسكر الأتراك إلىٰ مأدُبةِ عشاءٍ الليلةَ. وفي صباح اليوم نفسِه، جاءني رشيدٌ بكُوبِ شايٍ، ثم أخبرني أن طباخَنا اعتُقل، وهذا في الساعة السابعة والنصف. وطباخُنا هذا مسلمٌ أنعِمْ به، إلا أنه حادُّ الطبع، وفي شؤونه الخاصة ومعاملاته شيءٌ من جَلافة. فلما كان واقفًا السادسةَ صباحًا يتشمسُ في فِنائنا، وقع بصرُه علىٰ فتَيَين نصرانيين في طريقهما إلىٰ مدرستهما، متزيِّيَين بزيٍّ أُوربِّيٍّ، وقفازات جديدةٍ من شَكْوة[1]، ومعهما عِصِيٌّ مقابضُها من فضة. فهاجت به الحميةُ مما رأىٰ من نُكر، وهجَم عليهما حَنِقًا بمِغرفةٍ من خشب، ففرَّا منه مُهطِعَين. وجرىٰ خلفهما في شارع طويل عبر حيَّيْنِ من ربَضِ المدينة حتىٰ وسطها. وجمعتْ هناك صيحاتُهما البئيسةُ واستنجادُهما الشرطةَ عليه. وقد تبع رشيدٌ هذا المجاهدَ ليُسكن غضبه ولم يفلحْ في إدراكه. ورآه اعتُقل ولم يزل رافعًا مغرفته يلوح بها. وما عرَف رشيدٌ ما وقع له بعد ذلك؛ فقد رأىٰ أن من الحكمة أن يرجعَ لمَّا رآهم يمسكونه مخافةَ أن يلتبسَ الأمر عليهم فيسجنوه معه.

أغمَّني سماع ذلك، وكتبت لحمدي بك أولَ ما لبِست ثيابي وقمت. وهو رئيسُ ضيوفنا الذين دعوناهم. فأخبرتُه عمَّا ألمَّ بنا من حادثٍ يمنعُنا من إطعامه ورفاقه عَشاءً هم أهلٌ له. وما لبِست لباسي إلا وقد وجدَ رشيدٌ رسولًا، أعطيناه الكتابَ، وأمرناه أن يعجِّل بإيصاله. وأحسبه جرىٰ في الطريق كله ذهابًا وإيابًا؛

(١) الشكوة: جِلد الرضيع من المَعْز أو الضأن.

فقد مَثَل بين يديَّ بعد نصف ساعةٍ وهُنيَّة، يَنهَج ويتصبَّب وجهه عرقًا، وساقاه المكشوفتان مُغْبرَّتان حتىٰ ركبتيه. وكان رشيدٌ حينئذٍ قد خرج يتسوق. سلَّمني هذا العَدَّاءُ الرسالةَ، وكُتِبَ فيها:

«علامَ تذكرُ شأنًا تافهًا كهذا؟ فإنَّا سوف تروقُنا أيُّ أكلةٍ تقدمُها لنا؛ فقد جئناك لصحبتك، لا لطعامك».

وكُتِبَ توقيعٌ آخِرَ الرسالة:

«لِم لا تجيء القاضيَ وتلقاه؟».

وكان سليمانُ عندي حينئذٍ، وهو صاحبٌ لي قديم، كريمُ الأصلِ، قليلُ ذات اليد، صنْعَتُه الدَّلالة. واشتَهر بين الناس بحكمته النادرة. وكان أبدًا يختلف إليَّ إذا نزلتُ بالبلد أو تخيمت، إلا أن يحبِسَه شُغلٌ. جلس في زاويةٍ متربعًا يدخن أرجيلتَه، وتذبذبتْ عليه أشعةُ نورٍ رقيقةٌ تخلل ضياؤها ستائرَ النافذة، وملأ شعاعَها هباءٌ. قبض سليمانُ بيده علىٰ الكتابِ، وقالَ:

«نِعمَ المشورة تلك. فقد صدقَ. فَلِمَ لا نأتيه؟ هلمَّ لنحدِّثَ القاضي!».

وطوىٰ حينئذٍ خرطومَ أرجيلته علىٰ وعائها هونًا. ثم نهض هونًا، ووضع علىٰ كتفه رداءً يتقي به الغبارَ، ثم نظر إليَّ وسألني: «أتهيأتَ؟».

فقلتُ: «كيفَ وأنا لا أعرفُ القاضي؟».

فقال: «ولستُ بأعلمَ منك به، إلا أن هذا يا صويحبي داءٌ نقدر علىٰ علاجه».

سِرنا ولم يشقَّ علينا الاهتداءُ إلىٰ بيت القاضي، وأنبأنا خادمٌ من الخدمِ في الدارِ أن فضيلتَه قد مضىٰ إلىٰ المحكمة. فركِبنا عربةً وسرنا في إثر فضيلته. بلغنا المحكمةَ وعندها حشدٌ من الشهود تزاحموا بالباب، وهم شهداءُ زورٍ يستأجرُهم المرء. فسألناهم عن القاضي، فأخبرونا أنه ما قعد بعدُ مَقعدَه. ولا شكَّ أنَّا سنجدُه في مقهًى قُدَّامَ المحكمة. ودلَّنا علىٰ هذا المقهىٰ شاهدٌ من شهداءِ الزور هؤلاء، وأشار إلىٰ صاحبنا. وقد استظلَّ بظلٍّ وارفٍ لعريشِ كَرْمٍ، ومعه كاتبُه وجماعةٌ من المحامين، جعلَ واحدٌ منهم يتلو عليه صحائفَ الأخبار، وهو متبسِّمٌ، وقد شبَّك بين أصابع يديه وضمَّها إلىٰ بطنه العظيمة المستديرة.

أقبل عليه سليمانُ علىٰ مهَلٍ، والريح تنازعه رداءَه. فعرَّفه بي علىٰ أني «وجيهٌ من وجهاء الفرنجة». فقام الملأ مرحِّبين بنا، وقربوا إلينا مقاعدَ لنستريح عليها.

قال سليمانُ في حُسنِ سَمْت: «ظُلِمَ سموه، وجاءك يطلب عدلك يا أصلحَ القضاة».

نظرتُ إلىٰ القاضي فرأيته اكترث لقول سليمان جدًّا، وسأَلَنا: «ما مسألتُكم؟».

فأجابه أنِ: «انتُزِع منا طباخُنا، وعندنا عشاءٌ الليلةَ دعَونا إليه أصحابًا لنا».

فسأله القاضي بحرص: «أطبَّاخُكم هذا ماهر؟».

فقال له سليمانُ: «أما لو رددتَه -سعادتك- إلينا، ثم أدركتَنا في عشائنا..».

فقطع كلامه وقالَ: «وكيف لي أن أخدُمَكم في مسألتكم هذه؟».

فأومأتُ إلىٰ سليمانَ أنْ قُصَّ الخبر، ففعل وأجاد، حتىٰ ما لبث القوم أن لجُّوا في الضحك وأفرطوا فيه.

تصفَّح القاضي سجلَّ قضاياه حتىٰ عثر علىٰ قضيتنا، ووسَم عندها وَسْمًا.

فتأوَّهْت حينئذٍ قَنَطًا، وقلتُ: «كيف لنا أن نتعشَّىٰ الليلةَ وليس لنا طباخ؟!».

فأجابني القاضي: «لا عليك؛ فسيكون عندك في ساعة. هلموا يا صَحْبُ إلىٰ شغلنا؛ فقد أبطأنا عنه».

واستأذنني في أن ينصرفَ بأدبٍ جمٍّ.

فلما أفَلوا، قال لي سليمانُ: «لندخلِ الآن المحكمة، ونطَّلِعْ علىٰ إجراءِ القضاء».

فعبَرنا الزُّقاقَ إلىٰ بابٍ عظيم، قائمٌ به حاجبٌ من الجند. وشوش سليمانُ إليه بشيءٍ، فتبسم وحفِيَ بنا وبادر إلىٰ إدخالنا.

غَصَّ المجلس بالناس، وما استطعنا أن نطَّلِعَ علىٰ المِنصَّة إلا بشِقِّ الأنفُس. فيها قعد القاضي، وفيها وقف طباخنا المأسيُّ عليه مكتئبًا. وإلىٰ جانبه جنديٌّ يَعرِضُ مِغرفة الخشب، ووقف معهم النصرانيان حسنَا الشارةِ، وجعلا

يقُصَّان طرَفَهما من الخبر بلسانٍ طَلْقٍ حتىٰ اكفهرَّ وجهُ سعادته وأسكتهما، فنكَصا حينئذٍ وجزِعا.

نهَرَهما القاضي وقال لهما: «أَحْكِما قولَكما، أما وجدتُما حرجًا في أنفُسِكم في أن تنسُبا غضبَ هذا الطباخ إلىٰ تعصُّبٍ ديني؟ وما أسرعَ اتهامَ النصارىٰ للمسلمين بهذه التهم! ويغفُلون عن غيرها من العلل التي يُستفَزُّ لها المرءُ. كلا، بل إن كثيرًا من هذه التهم إذا فُحِصت ومُحِّصت تبيَّن أنها ليست إلا مفتريات من أصلها. ثم إنكم -أيها النصارىٰ- تُكثرون من التكبر، وتُعَيِّرُون المسلمين وتُحْفِظونهم. بل لربما تجرأتم علىٰ سبِّهم؛ اعتدادًا بنصرةِ القنصليات والبعوث الدينية الفَرَنجية لكم. وأما أنتما فلو افترضنا صدقَ روايتكما - وإن كنتُ من ذلك لفي شكٍّ مريبٍ - فلستُ أرىٰ عنده إلا مِغرفةَ خشبٍ لا وزنَ لها، ولكما عُكَّازتان صَلْدتان، مقابضُها من فضة»، فألقىٰ حينئذٍ أحدُ فتية النصارىٰ عصاه مذعورًا. وأكمل القاضي: «وأنتما اثنان، وهذا الطباخ الضعيف واحدٌ، فلو افترضنا صدقَ مقالتِكما، أفتجزِمان أنْ لم يكن في هيئتكما أو كلامكما أو مِشيتكما شيءٌ أغاظه. وما أظنُّكما إلا استهزأتما به، أو لربما تلفَّظتما بشتمٍ لعقيدته».

فناح أحدُ اللذين جُنِي عليهما: «ضَرَبَنا من غير علةٍ، وأَبْرَح بنا». وارتعدت فرائصُ هذين النصرانيين، وكيف لا ترتعدُ؟! وقد تحدَّث قاضٍ مسلمٌ بحديثٍ مثلِ هذا في مجلسٍ غصَّ بالمسلمين.

ثم أكمل الفتىٰ قولَه: «وما شعرنا به إلا وهو يضربُنا. ورأسي الشقي ها هو ذا واللهِ يؤلمني، وظهري مهدودٌ من شدة ضربه لنا وكأنه مجنون». وبكىٰ هذا المتكلمُ وصاحبه في المَظلِمة حتىٰ أسمعا الناسَ بكاءَهما من شدته.

فصرف القاضي نظرَه إلىٰ الطباخ، وهو لا يزال علىٰ نفسِ جِدِّه، وسأله: «أوضربتَ هذين الفتَيَيْن كما وصفا؟».

فصاح صيحةَ ملهوف وقال: «لا يا صاحبَ السعادة، ما أنا إلا مضطهَدٌ مرميٌّ ببهتان. وما وقعتْ عيني قطُّ علىٰ هذين الرجلين قبل ساعتنا هذه». ثم بكىٰ مثلَهما في لوعة.

فغضب القاضي وقال: «كلكم يكذبُ عليَّ. فقد ضربتَ أيها الطباخُ الفتيةَ، وهذا معروف، وما اعتُقلت إلا وأنت متلبس بجرمك. وأما أنتم أيها النصارىٰ فما أصابكم أذىٰ؛ فكلُّ مَن في المجلس لا يرىٰ فيكم إلا تمامَ الصحة والعافية، وثيابُكم ما مسَّها شيء. والعار الذي يلحقُكم أشدُّ؛ فبَيِّنٌ أنكم اتهمتم هذا الرجلَ لبغضكم دينَه».

فقالا: «لا والله يا صاحب السعادة؛ فلسنا نرجو لهذا الرجل ضُرًّا. وما شهِدنا إلا بما وقع».

زمجر القاضي وقالَ: «أنتم جميعًا شِرذِمةٌ أفَّاكون. فليدفعْ كلُّ فريقٍ منكم ريالًا مجيديًّا كاملًا للمحكمة[1]، وليُقسم كلُّ واحد منكم عندي الآن من ساعتنا ألا يكون بينكم إلا سِلمٌ وصُحبة دائمةٌ في مستأنَفِ الأيام، وألا يبلغني شيءٌ عنكم أبدًا».

فجعل الفتية يعانقون الطباخَ والطباخُ يعانقهم مرارًا، وكلهم يبكي من فرط فرحه؛ لنجاتهم من العقوبة. ودفعتُ أنا المالَ عن صاحبنا الذي رافقنا إلىٰ الدار بعد ذلك. ووعظه سليمانُ في طريقنا موعظةً ذكَّره فيها بمكارم الأخلاق ببيانٍ ساحرٍ، حتىٰ رجع هذا الرجلُ الغِرُّ المسكينُ يبكي ويستغفر ربه.

فأَقَرَّ سليمانُ بكاءه واستغفارَه، وقال: «لا جَرَمَ أن التوبة واجبةٌ عليك، لكنِ اعلمْ أن عليك أن تكفِّرَ عن ذنبك في الدنيا أيضًا؛ وذلك بأن تستعملَ الليلة منتهىٰ حِذقك في الطبخ، فسيأتي القاضي إلىٰ عشائنا».

---

(١) والريال المجيدي: يُنسب إلىٰ السلطان عبد المجيد، وهو عملةٌ عثمانية كانت تسك من الفضة. وخمسة ريالات مجيدية تساوي في زماننا ليرة تركية واحدة، بيد أن قيمتها حينئذٍ كانت عظيمة، ولربما كان أجرُ عملِ شهرٍ ريالًا مجيديًّا واحدًا.

الباب الخامس
نــوادرُ

وصلنا يومًا إلىٰ قرية جبلية في ساعة متأخرة من العشي، وبينما نحن نطوف فيها، إذ بصِبْيَةٍ جُفاةٍ يصيحون بنا: «يا عم أهلين . . جيت في اثنين!».

وقولهم هذا كان دعابةً مشهورةً تُقال عند إبصار السراويل الأوربية، وهي نادرةٌ إذ ذاك. فغضب سليمان لي جدًّا، والتفت إلىٰ أولئك الصبيةِ، وخطب فيهم خُطبةً عظيمةً، قرَّعهم فيها تقريعًا عنيفًا بما اجترؤوا عليه من الهزو برجلٍ غريبٍ عنهم، ضيفٍ عليهم. وعلَّق استنكارَه بأصولٍ فاضلةٍ لا يكونُ لامرئٍ في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان أو سلامة طوية أن يردَّها. ومع أنَّ في بيانه تأمُّرًا، إلا أنه خلَّابٌ للأفئدة، فما ولَّىٰ بعد إبطاءٍ إلا لحقوه، ليس صغارُهم وحسبُ، بل وكثيرٌ من كبارهم.

كانت هذه القريةُ في موضع مرتفع دون شفيرِ الجبل. إلىٰ جوارها صخورٌ تبعد عنها رميةَ حجر، يُرىٰ من عندها البحرُ كأنه حائطٌ أزرقُ عظيمٌ امتدَّ شمالًا وجنوبًا. علَونا تلك الصخورَ، ووقفنا علىٰ حرفها لنشاهدَ مغيب الشمس. واستقرَّ أهلُ القرية بمَسمعٍ منا، بعضُهم أسفلَ منا، وبعضهم فوقَنا. ثم ما لبِث شيخٌ منهم أن قال:

«نِعمَ ما قلتَ يا حكيمُ! فقد أذنبوا لما اتَّبعوا ضيفًا كريمًا بكلامٍ مثل هذا. وسوءُ أدبهم موجبٌ لعقوبةٍ شديدة. إلا أني علىٰ يقينٍ أنه ما من صبي سمع مقالةَ حضرتِك، سيقع بعدها في مثل هذا السفه أبدًا».

فصاح واحدٌ من الصبيان الذين جنَوا جنايتَهم: «أمان! يعلمُ الله أنَّا ما قصدنا شرًّا».

فسارعتُ أنبئهم أن جريرتهم ليست بشيء، غير أن سليمانَ ما كان ليدعَني أهوِّن منها في الملأ.

فأغلظَ لي القولَ: «ما زلتَ -سعادتك- أصغرَ بكثيرٍ من أن تدركَ ما خفِيَ في علم الغيب من شأن أقوال الرجال وأفعالهم. فلربما قِيلت الكلمةُ ولم يُقصد بها إلا كلُّ خيرٍ، وتصيبُ مع ذلك مصيبةً عظيمة؛ لِما تتصفُ به في ذات نفسها من الأذىٰ. وكلُّكم يعلم أن الجنَّ تُقبل علىٰ اللغو. فلو ناديتُ عنزًا، أو كلبًا، أو هرًّا باسم جنسه، ولم أعينْ عينَ الحيوان المقصود: لربما تلبَّس بي جنيٌّ؛ لأن كثيرًا من الجن يُدْعون بأسماء حيوانات. وكلكم يعلمُ أيضًا أن مدح جمالِ طفلةٍ بغير جعلِها فداءً لله[1] فيه هلكةٌ لها. ففي الغيب مستمِعٌ حسودٌ يحقدُ علىٰ بنات حواء، وقد يشوهُهن. ومثل هذه المسائل حقٌّ يعرفُه كلُّ أخرقَ، وعلتُها واضحة. وفي استعمال الألفاظ بغير تنبُّهٍ خطرٌ آخرُ أدقُّ من ذلك، لا سيما ما تعلق بالكلام في الناس، مثل فعلِ هؤلاء الصبية الذين قرعتهم، لمَّا صاحوا بسيدنا الشريف: «جئت في اثنين» صارفينَ الأذهانَ إلىٰ شخص حي. وأحفظُ نادرةً عساها تُجلِّي الغرضَ من كلامي لكم».

«أغمَّت فلاحًا من الفلاحين زوجةٌ له حمقاءُ. واحتاجَ في يومٍ أن يخرجَ، فلقَّنها كل ما تصنعُ من شغلٍ في الدار، ووكد عليها في الطلبِ أن تتعهد البقرةَ بفكرها؛ خشيةَ أن تضلَّ كما ضلت من قبلُ وتوغرَ صدور الجيران عليهم. وما خطر بباله البتة أن مصيبةً تقعُ من تكليفٍ كهذا لامرأةٍ كتلك يسألُها فيه أن تُقبل بفكرها كله علىٰ أمرٍ واحدٍ دون غيره. وما قصد الرجلُ إلا خيرًا، وكذلك المرأةُ لم تقصد إلا خيرًا. وقد بذلتِ المرأةُ طوقها في طاعةٍ ما قال زوجُها قبل أن يفارقها. فلما فرَغتْ من كلِّ شغلٍ كان داخلَ الدارِ، جلست تحت شجرةِ زيتونٍ علىٰ الباب. وجعلت عقلَها كله بكل ذرةٍ فيه ملازمًا لتلك البقرةِ الرقطاءِ دون

---

(١) يقولون: «فدوة لله» في مواضع من الشام والعراق، ولعلها هي التي قصدها سليمان. ولا أعلم أصلها، والظاهر من السياق: أنها تقال للتحصين؛ مثل: «ما شاء الله».

غيرها، وما في مدِّ بصرها حيٌّ غيرُ البقرة. وكانت ترعىٰ في الموضع الذي يبلغُه وَثاقُها القصيرُ لا تجاوزُه. واستعظمت المرأةُ هذا التكليفَ جدًّا حتىٰ أقلقَها، وظنَّت -من شدة تحديقها في البقرةِ- أن بها بأسًا. وما كان بالبهيمة الضعيفةِ إلا أنها قد استَنْفَدت كلَّ ما تصلُ إليه من كلأ، ولم يخطُرْ ببال المرأة أن تحركَ لها وتدَها الذي رُبطت به».

«ومرَّ بتلك الطريقِ بعد مدةٍ جارٌ لهم، فتضرعتْ إليه -بِمَا اشتهرَ من برِّه- أن ينظرَ إلىٰ البقرة، ويخبرَها عن كُنهِ علتها. وهذا الجارُ تِلعابةٌ، يعرفُ حالَ هذه المرأة، ويعرفُ أذىٰ بقرتها التي كثيرًا ما اجتثَّتْ وتدَها الذي رُبطت به وسرَحت في حقول الناس. فنظر إلىٰ البقرة وأطال النظرَ وجَدَّ فيه، ثم قال لها: (يوجعُها ذنَبُها، ولا بدَّ من بتره. أما تَرَيْنَها تَخطِر به[1]؟ وإن لم يُقطعِ الآن، فستموتُ في يومٍ ما)».

«فصاحت المرأةُ: (يا ألله يا رحيم! بالله عليكَ ابتُرْه عني؛ فأنا وحدي ولا مُعينَ لي)».

«فرفع الرجلُ فأسًا كان يحملُها، وبتر ذنَبَ البقرة من عند عَجُزِها، ثم أعطاه المرأةَ وولَّىٰ. فأجزلت هي الشكرَ له، ورجعت تراقبُ بقرتها. وما زالت يُخيَّلُ لها أن البقرةَ ليست بعافيتها التي عهِدتها منها».

«أقبل بعد مدةٍ جارٌ ثانٍ، فأخبرته بما كانت قد خشِيَته، وبإسعاف الشيخ مُكَرَّمٍ لها، وهو المعروف ببرِّه؛ فقد بتر ذنَبَ البقرة التالف».

«فقالَ هذا الذي قَدِمَ آنفًا: (لا ريب! ذلك يبين العلةَ عندي. فالدابة الآن غيرُ متزنة، وإن من الخطأ علىٰ الإطلاقِ أن يُؤخذ من طرفٍ ولا يؤخذُ من الطرفِ الآخر. فإن شئتِ أن تَرَيْها ترجعُ إلىٰ عافيتها، فلا بدَّ من زوالِ قَرْنَيْها)».

«فكان جوابُها أن قالت: (أَوَّهْ! فأعنِّي؛ فأنا وحدي، وقم بالجراحةِ عنِّي)».

«فنشر صاحبُها القرنين وأعطاها إياهما. فجَهَدَت في شكره. ثم لما أفَلَ نظرت إلىٰ البقرةِ ورأتها علىٰ حالها لم تتماثلْ، فصارت كئيبةً من ذلك».

---

(١) خَطَرَانُ الدابة: أن ترفعَ ذنَبها وتضرب به يمينًا وشمالًا مرةً بعد مرة.

«ذاعَ حينئذٍ في أرجاء القرية خبرُ اغتمامها لشأن البقرة، فأقبل عليها كلُّ رجلٍ قادرٍ ليعينَها، أو ليشهدَ الحادثة. فجاؤوا علىٰ البقرة وقطعوا ضرعَها، وأذنَيْها، ثم أرجلَها، وأعطَوُا المرأةَ كلَّ ذلك، وهي تشكرُهم وتبكي عرفانًا لفضلهم. فلما فرغوا، لم يبقَ ثَمَّ بقرةٌ ليُغتم لها. فلما نظرتْ إليها وجثتُها ملقاةٌ قد ضؤلت ولا حراك بها، تبسَّمت المرأة وهمهمت: (الحمدُ لله، قد شُفيت بعد إبطاءٍ، وارتاحت، وما في يديَّ الآنَ شغلٌ، ولي أن أدخلَ الدار وأُعِدَّ لرجوع سيدي)».

«فلما راحَ سيدها قالت له:

(إني أطعتُك، ورعيتُ البقرةَ ساعاتٍ، أثخَنَها فيها المرضُ. إلا أن جيرانَنا علىٰ بكرةِ أبيهم أغاثوني وطبَّبوها، وقاموا بجراحات كثيرة حتىٰ تأتَّىٰ لنا أن نُذهِبَ عنها كلَّ وجعِها والحمدُ لله. وهذه أوصالُها التي استأصلوها، ولطفوا لي غايةَ اللطفِ فأعطَوني إياها؛ لأن البقرةَ لنا)».

«فلم ينبِسْ ببنتِ شَفَةٍ، وخرج من ساعته ليرىٰ الذي بقِي من البقرة. ثم رجَع إليها وأمسكها قابضًا علىٰ كتفيها، وأحدَّ النظر إلىٰ عينيها، وقال لها متجهِّمًا: (حفِظك الله! سأسعىٰ في هذه الأرض، لا أبرحُ حتىٰ أجد امرأةً أرذلَ منكِ، فإن لم أجدْ من هي أرذلُ منك فنذرٌ عليَّ أن أكملَ سعيي حتىٰ أهلِكَ)».

وسكت حينئذٍ سليمانُ فجأةً، وعجِب الناسُ قاطبةً من سكوته.

فلما تيقَّنتُ أنه فرَغ من حديثه، قلت: «لم أتبين وجه موافقة هذه النادرة لحالي».

فتفكر قليلًا، ثم قالَ: «ليست توافقُ حالَك، لكنها توافقُ أحوالًا غيرها، فمن الخطر أن تُدخل علىٰ قلب المرء الهواجسَ أو تنبِّهَهُ علىٰ ما لم ينتبهْ له في نفسه، وأنَّىٰ للناسِ أن تعرف ما كَمَنَ في عقولِ الخلقِ من عفاريت . . . لكنْ أَنظِرني، وسأتذكرُ لك نادرةً تصلحُ لحادثتنا هذه».

فصاح أحدُ القوم: «أنبِئْنا يا بحرَ الحكمة أوَجدَ مَن هي أرذلُ منها؟».

فأجابه سليمانُ: «لا ريبَ أنه قد فعل».

فقال له: «ناشدتُك أن تقُصَّ علينا تتمة الخبر».

وما أجابه سليمانُ؛ لشغله بتفتيش عقله عن حادثةٍ أشدَّ تبيينًا لعظم خطرِ فلَتاتِ الرأي. ثم ما لبِث أن زفَر زفرةَ فَرَجٍ وقال:

«كان ثمة باشا تركيٌّ من عظماء القوم، شيخٌ من أولي الفضل، وكنتُ أراه كثيرًا. له لحيةٌ بيضاءُ طويلةٌ، كان شديدَ البأوِ بها. وجاءه مرةً رجلٌ تِلْعابةٌ، وقال له:

«(إنَّا -يا صاحبَ المعالي- يسألُ بعضُنا بعضًا: إذا أويتَ إلىٰ فراشك أتجعلُ لحيتَك في ثيابك أم خارجَها؟)، ففكَّر الباشا هُنيَّةً وما عرَفَ؛ إذ لم يخطُرْ بباله قطُّ أن يتنبَّهَ علىٰ أمرٍ مثلِ هذا. فوعد السائلَ أن يرُدَّ عليه من الغد».

«بيد أنه لما أوَىٰ إلىٰ فراشه جرَّب وضعَها دون منامته وفوقها، ولم يفلحْ، ولا اطمئنَّ في أي حالٍ منها. وعانىٰ صَعَدًا يحاولُ أن يتذكرَ الحال التي تعوَّد أن تكون لحيتُه عليها، وما استطاع. فبات ليلتَه تلك والتي تليها لا يطعَم نومًا؛ لِما شُغِلَ به فكرُه من النظر في هذه المعضلة. ونادىٰ ثالثَ يومٍ في غضبةٍ حلَّاقًا، وأمَرَه أن يقصَّ له لحيته. وكان قد تعود أن تستر عنقَه كثافةُ شعرِ لحيته، فأصابته نَزْلَة لفقدها، وقضىٰ منها نحبَه».

تهلَّل سليمانُ وختم بقوله: «تناسبُ هذه القصةُ عينَ المسألة التي بين أيدينا».

فعَلا حينئذٍ صياحٌ من كلِّ ناحيةٍ في الشفق الذي اشتدت حمرتُه: «ما العبرة من القصة؟ تفضَّلْ بإخبارنا يا أستاذ؟».

فقلتُ رجمًا بالغيب: «أحسبُ فائدتها أنِّي لما صرَفتم نظري إلىٰ لباس رِجْليَّ الغريب، سينتهي أمري إما إلىٰ بترهما بعد حين، وإما إلىٰ لبس السراويلِ التركية».

فقال سليمان: «لا أُفتيك في عاقبة أمرك؛ فليسَ يعلمها أحدٌ إلا الله. لكنَّ معرفةَ أنَّ فواجعَ مثلَ هذه لربما وقعت كما بينتُ لكم: تكفي العاقلَ ليجتنبَ ما شاكلَ هذا الكلام».

وما أقدِرُ أن أميِّزَ حتىٰ يومنا هذا بين ما كان جِدًّا في ثرثرته الطويلةِ تلك، وما كان هزلًا. لكنَّ الفلاحين تلقَّفوها منه علىٰ أنها حكمةٌ لا تشوبها شائبةٌ.

الباب السادس

تكملة النوادر

بتنا ليلتَئذٍ في حجرةٍ ينزل بها أضياف القرية، ولما استلقينا علىٰ فُرُشنا نريد أن ننامَ، سأل رشيدٌ سليمانَ عن القصة التي لم يتمها من خبرِ المرأة الحمقاءِ وبعلِها والبقرةِ الشقية، فقال: «ما صنع الرجلُ الذي خرج يطلب امرأةً أرذلَ من زوجته؟ وأنَّىٰ له أن يجد أرذلَ منها أبدًا؟»، ثم سألتُه أنا أيضًا أن يقصَّ علينا تتمةَ هذا الخبر المليء بالفوائد. فلما تضرعنا إليه تضرعًا كفاه، تجشَّم النهوضَ علىٰ جنبٍ متكِئًا علىٰ مرفقه، وطفِق يقص علينا تتمةَ الخبر، وأنا ورشيدٌ سكوتٌ متدثِّرون بلُحُفنا.

«بلغنا من الخبر يا سادةُ: أن الزوجَ المصابَ قال لزوجته لَمَّا رأىٰ ما بقي من البقرة: (سأسعىٰ في الأرض حتىٰ أجدَ امرأةً أرذلَ منك أو أمضِيَ حتىٰ أموتَ). ثم ما فتئ يمشي شهورًا في روايةٍ، وسنينًا في أخرىٰ، حتىٰ نزل بقرية في جبلِ لبنانَ لِمارونيِّين اشتَهروا بحُمقهم، وما أجاءَه إليهم إلا ما اشتَهَر من غبائهم».

فسأله رشيدٌ الذي يحبُّ أن يكون علىٰ بيِّنة في كل شيء: «ما اسمُه؟».

فتدبر سليمانُ وقال: «ما اسمه؟ اسمه: صالح».

فزاد في السؤال: «أهو مسلم؟».

فأجابه سليمان: «نعم، أظنه مسلمًا، والله أعلم، فلربما كان إسماعيليًّا أو درزيًّا. أعندك سؤالٌ غيره حتىٰ أُكمِلَ بعده؟».

ثم استأنفَ وقالَ: «دخلَ الرجلُ قريةَ المارونيِّين، ولما كان الظمأ قد نالَ منه، عرَّجَ علىٰ فناءِ أهل بيت ليستسقيَهم. ووجدَ فيه قسيسَ القريةِ وكلَّ أهله يُلقِمون شاةً سمينةً ورقَ توت. وأُوثِقت هذه الشاةُ وسط درجٍ ينتهي إلىٰ سطح الدار. وجلس القسيسُ وزوجتُه وأكبرُ بناته أسفلَ الدرج وسْطَ ركامٍ من أغصان توتٍ. وأما سائرُ بناته فقد جلست كلُّ واحدةٍ منهن علىٰ عتبةٍ يناولنَ ثانيَ البناتِ الورق إذا فرغت يداها، وشغلُها أن ترغمَ الشاةَ علىٰ أن تواصلَ أكلَها. وهذا دأبهم إذا أرادوا ذبحَ الشاة والتزودَ بدسمها لعامهم المقبلِ، فينكبُّون علىٰ عملهم هذا ويُضلِعونها بالأكل ويثقلونها حتىٰ ما تطيقُ أن تقفَ، فتَخِرُّ علىٰ جنبها».

«دُهشوا بشغلهم الذي كانوا فيه، حتىٰ إنهم ما أحسُّوا بالغريب الذي وقف بفنائهم إلىٰ أن صاح: (سلامٌ يا أهل البيت)، ثم تلطف لهم واستسقاهم ماءً. فلم يحفل به القسيسُ مع ذلك، وما صنع إلا أن أشار بيده إلىٰ جرَّةٍ عند الجدار، وقال: (تفضَّل!)، فلما عمَدَ الرجل إلىٰ الجرة وجدها فارغة».

«فقال لهم: (ليس فيها ماءٌ)».

«فتأوَّه القسيسُ: (أوَّه! ألا إن هذا الشغلَ عطَّشَنا اليومَ أشدَّ العطشِ، فشربنا من الجرة حتىٰ استنفَدْنا ماءَها، وشُغِلنا جدًّا حتىٰ لَهِيَ الصبية عن أن يرجعوا فيملؤوها. قُومي يا نَسِيبةُ فاحمليها علىٰ رأسك، وسارعي إلىٰ العين، فارجعي إلىٰ ضيفنا بالماء)».

«فنهضت نسيبةُ ملبيةً، وهي بنتُ أربعَ عشرةَ سنة، ونفَضت ما كان علىٰ ثوبها من يَرَقان وورقِ توت، ثم احتملتِ الجرةَ. وانطلقتْ بها عبرَ القرية إلىٰ العينِ التي تفجَّرتْ من حجارةٍ تحتَ دَوحةِ كُمَّثرىٰ[1]».

«فلما وردت الماءَ وجدت عليه جمًّا غفيرًا من الناس يسقون، ولا طاقةَ لها بمدافعتهم إلىٰ العينِ من كثرتهم. فتخيرتْ لها موضعًا ظليلًا جلست فيه ترقبُ أن يحين ورِدُها. وكانت نَسيبةُ دائمة الفكرة، فصارت تحدثُ نفسها بينما هي تنتظرُ، وتقول:

---

(١) الدوحة: الشجرة العظيمة الواسعة.

(يا نفس، قد كَبِرتُ، وما هي إلا سنةٌ أو سنتان وتجمعُني أمي بزوجٍ ترضاه لي. ثم يكونُ لي وُلَيِّدٌ في العام الذي يليه، ثمَّ بعد عامٍ أو اثنين يكبَرُ حتىٰ يجري ويطوف. ويصنع له أبوه نُعَيلين أحمرين، ويَرِد هذه العينَ البهيجة لينضحَ ماءها، علىٰ ما جرت به عادةُ الصبيان. ولأنَّ ولدي فتًى جسورٌ، فسيصعد هذه الشجرةَ)».

«ثم وقع بصرُها علىٰ غصنٍ عظيمٍ تشعب من الشجرة كأنه يدٌ مبسوطة. فأحسَّت بشدة الخطر الذي يشرفُ عليه مَن قد يتسلقُ هذا الغصنَ من الصبية، وقالت لنفسها:

(سيهوي ويكسر عنقَه)».

«ثم لَجَّت من ساعتها في بكاءٍ ونحيبٍ أذهبَ عقلَها، وأضجَّت إضجاجًا جمع عليها كلَّ مَن جاء للسُّقيا. فجعلوا يسألونها: (ما يؤذيك يا نسيبةُ؟)، فقصَّت عليهم خبرَها، وهي تَمْأَقُ[1] بين كل جملةٍ وأختها».

قالت: (قد كَبِرتُ).

قالوا: (صدقتِ يا بُنيَّتي).

قالت: (وستزوِّجني أمي بعد عامٍ أو عامين).

قالوا: (هذا متوقع).

قالت: (ثم بعد عامٍ أو عامين أُرزَق وُلَيِّدًا).

«فاشتدَّ ذكرهم لله مُهمهِمين بقولهم: (إن شاء الله!)».

ثم قالت: (ثم عامٌ أو عامان بعدها ويكبَر حتىٰ يجري ويطوف، ويصنع له أبوه نُعَيلين أحمرين. ثم يجيءُ هذه العينَ مع غيره من الصبية، ويصعد هذه الشجرةَ، وآهٍ آه .. أتُبصرون ذاك الغصنَ الضخم المتشعب منها؟ ستزلُّ قدمُه عنه فيهوي ويكسر عنقه! آهٍ وأوَّه!).

فصاح الناس لما سمعوا قولها: (ما أفظعَ مصيرَه!)، ومزَّقَ جمعٌ منهم ثيابَهم، وجَثَوْا كلُّهم حول نَسيبة يَتهَزهَزون ويُوَلوِلون:

---

(١) المأقة: هي شبه الفواق الذي يعتري المرء عند شدة البكاء.

(يا تقبر جارك يا جاري![1]).

«نضَب حينئذٍ مَعِينُ صبرِ الغريب الذي جلس ينتظر الماء، فتجرأ وقطع عليهم مرةً ثانية تلقيمَهم الشاةَ ونبَّههم أن الفتاة قد أبطأت بجرَّتها. فقال القسيسُ: (صدقتَ). ثم أرسل ثانيَ بناته لتستعجلَ أختها. فانطلقت تعدو إلىٰ العين، فلما وصلت إليها وجدت أهلَ القرية جلوسًا حول أختها يبكونها. فسألتهم عن الخبر، فقالوا: (مصيبةٌ تُنبئكِ بكُنهها أختُكِ، الأمُّ الوَلْهىٰ المسكينة!)، فهُرعت إلىٰ نَسيبة التي طفِقت تَحدَّثُ وتنحِب: (قد كبِرت الآن، وستزوِّجني أمُّنا بعد عامٍ أو عامين، وسيكون لي وُلَيِّدٌ بعد ذلك بعام، ثم يكبَر حتىٰ يجري ويطوف بعد عامٍ أو اثنين، ويصنع له أبوه نُعَيْلين أحمرين، ويجيء هذه العينَ كي يلعب لَعِبَ الصبيان. ويصعد هذه الشجرةَ ويهوي من ذاك الغصن المتشعب ويكسر عنقه)».

«فلما سمعت أختُها النَّعيَ نسِيت حاجتَها التي أُرسلت لها، وألقت بإزارها علىٰ رأسها، وجعلت تصخَب: (ويلاه يا بُنَيَّ أختي! يا وُلَيِّد أختي، يا حبيبي يا مسكين! أمدَّ الله في عمرك لتقبُرَني يا بُنَيَّ أختي). ثم قعدت علىٰ الأرض مع سائر القوم تتجرَّع أساها».

«قال القسيسُ: (قد أبطأت هذه البنتُ أيضًا. وسأبعث في طلبهما بنتًا أخرىٰ، غيرَ أنه يلزمُك يا غريبُ أن تنوب عنها في مقامها في الدرج، وإلا تخلَّفْنا جدًّا في تلقيمِ الشاة)».

«فصنع الغريب ما طُلب منه، وبُعثت بنتٌ بعد بنت، حتىٰ لم يبقَ أحدٌ يشتغل إلا هو، يَلقُطُ من جديدِ الورق، ويَرقَىٰ به ليُلقِمَه الشاة. ولم يرجعْ بعدُ من البناتِ أحدٌ».

«فلما أبطأن ذهبت زوجةُ القسيس بنفسها، وأخبرت الغريبَ وزوجَها أنهما يقدران علىٰ إتمام العمل دونها. ولبثوا في شغلهم طويلًا، وما رجع مع ذلك أحدٌ».

---

(١) هذه مقولة مشهورة تقال في الشام للإشفاق علىٰ المرء، والدعاء له بطول العمر. ومثلها قول بعضهم: «الله يجعل يومي قبلَ يومِك».

«فقام القسيس لما طالت عليهم المدةُ، وقال: (سأذهب إليهن بنفسي، ولأضربنهن لشدة تلكُّئِهن علينا. وأطعِمَنَّ يا غريبُ الشاةَ حتىٰ أرجعَ، ولا تكفَّ عن جلب الورق إليها وتلقيمِها إياه؛ حتىٰ لا يضلَّ سعيُنا الطيبُ كله لشيءٍ من تفريط)».

«أفاضَ القسيسُ مُغضَبًا، وخرج إلىٰ العين مجاوزًا القريةَ، فلما وصل إليها انقلب غيظُه عجبًا؛ إذ رأىٰ حشدًا من الناس كَمِدت وجوهُهم جلسوا حولَ أهل بيته. فأقبل علىٰ زوجته يسألها عن الخبر».

«فبكت امرأتُه وقالت: (لا طاقة لي بالحديث عنه، فسل نَسيبةَ المسكينة!)».

«فالتفت إلىٰ أكبرِ بناته التي طفِقت تقص الخبر وهي تكادُ تغَصُّ بشهقاتها: (كبِرتُ الآن).

قالَ: (نعم يا ابنتي).

قالت: (وستزوجُني أنت وأمي بعد عامٍ أو عامين).

قالَ: (لربما).

قالت: (ثم عامٌ بعد ذلك ويكونُ لي وُلَيِّدٌ).

«فقال أبوها بوقار: (إن شاء الله!»).

«قالت: (ثم يجري ويطوف بالحيِّ بعد عامٍ أو عامين، ويصنع له أبوه نُعَيْلين أحمرين، وها هو ذا قد جاء ليلعب مع الصبية عند هذه العين. ثم من هذا الغصن المتشعب -وما أدري كيفَ أصوغ لك الخبر- وقَع وكسرَ عُنَيْقَه المليح). ثم رجعت تسترُ وجهَها وتُعْوِل».

«فانفطر فؤادُ القسيس من هذا الخبر المفجع، وكانت عليه مُلاءة القساوسة فمزَّقها من لدن قدمه حتىٰ خصره، ثم ألقىٰ بطَرَفها علىٰ وجهه، وأَعْوَلَ صاخبًا:

(وا حرَّ قلباه علىٰ حُفَيِّدي، وا حرَّ قلباه علىٰ حُفَيِّدي الحبيب. أوَّه، ليتك تُعمَّر يا حُفَيِّدي الحبيب وتقبرني). وخرَّ معهم إلىٰ الأرض ونفسُه تتقطعُ حسَراتٍ»).

«فلما طال غيابهم، أعيا الغريبَ نتفُ ورقِ العنب من أغصانه ثم رُقِيُّ الدرج به إلىٰ الشاة المربوطة. وأحسَّ أن عطشَه اشتدَّ لِما لقِيَ من كَبَد».

قال رشيدٌ حينئذٍ: «أبالله لبِث يصنعُ ذلك وليس ينظر إليه أحدٌ؟ ما أحسبه إلا شديدَ الحمق مثلهم».

فأجابه سليمانُ: «نعم، هو أحمق. بيد أن حماقته غير حماقتهم».

ثم قالَ: «نزل الغريبُ إلىٰ العين، فرأىٰ الفوجَ جلوسًا تحت شجرة الكمثرىٰ، يصيحون كأنما هم مجرمون يُساقون إلىٰ حسابهم يوم القيامة. وكان فيهم القسيسُ وقد دسَّ وجهه في مُلاءته الممزقة. فتخطىٰ الغريبُ الرقابَ إليه واستقصىٰ منه الخبرَ، فرفع القسيسُ رأسه، وسفَر عن وجهه، وهمَّ أن ينطق، إلا أن تذكُّرَ غمِّه غلبَه، فرجع يسترُ وجهَه ويُعوِل:

(يا أسفًا عليك حُفَيِّدي. يا أسفا عليك يا حُفَيِّدي الصغير. يا ويلتاه .. تُعمَّر وتقبرني يا حُفَيِّدي»).

«فجذبتْ كُمَّ الغريبِ امرأةٌ قريبةٌ منه، وقالت:

(أترىٰ تلك الفتاةَ؟ أما إنها توشكُ أن تُعصِرَ(١)، ولا جرم أنها ستتزوج بعد عامٍ أو عامين. ثم عامٌ بعد ذلك ولها بُنَيٌّ. وسيكبر بُنَيُّها حتىٰ يجري ويطوف. وقد صنع له أبوه نُعَيلين أحمرين. ثم يجيء هذا الصبيُّ إلىٰ العين كي يلاعبَ غيره من الصبية. أفترىٰ شجرةَ الكُمَّثرىٰ هذه؟ يتجشَّم صعودَها في عصرِ يومٍ بهيجٍ مثل يومنا هذا، ثم يعلو ذاك الغصنَ المتشعب فوق الحوض، فيسقط منه علىٰ تلك الصخور ويكسر عنقَه. وا حرَّ قلباه يا جارنا الصغير! يا ويلتاه .. تُعمَّر وتقبرنا يا جُويْرنا»).

«ثم رجع القومُ كلهم إلىٰ هزهزتهم وعويلِهم».

«قام الغريبُ وحدَقَهم ببصره ساعةً، ثم صاح: (تفو عليكم!)، وتفَل في الأرض، وما زادهم علىٰ تلك التفلةِ بنتَ شَفَةٍ، بل ولَّىٰ عنهم، وأكمل سعيه حتىٰ بلغ بيتَه. فلما صار ثمَّة جالسًا في مقعده العتيق، قال لزوجته: (اطمئني يا حبيبتي؛ فإني قد وجدتُ مَن هي أرذلُ منك)».

ثم أعلَمَنا سليمانُ أن هذه تتمةُ الخبر.

---

(١) المُعصِر: هي التي بلغت عصر شبابها وأدركت.

فسأله رشيد: «أفيها عبرة؟».

فأجابه قصَّاصُنا: «العبرة بيِّنة؛ وهي أن امرأةَ الرجل مهما بلغت من السوء، فليتيقَّنْ أنه يقدر أن يجدَ في كلِّ حينٍ مَن هي أسوأ منها».

فقلتُ: «ولربما وجدتَ مَن هي خيرٌ منها».

فقال سليمانُ: «لا تقطعْ بذلك؛ فالنساءُ في هذه الدنيا علىٰ ثلاثة صنوفٍ مختلفة، وكلهن تزعم أنها من ذرية أبينا نوح. والحقُّ أن أبانا نوحًا ما كان له إلا بنتٌ واحدةٌ، خطبها ثلاثةُ رجال. وما أراد نوحٌ أن يردَّ الثانيَ والثالثَ خائبين، فقلب حمارَه وكلبَه نسوةً قدَّمهن إليهما. وهذا يبينُ لك صنوف النساء الثلاثة التي تراهن، وأما ذريةُ أبينا نوحٍ الصحيحةُ فنادرةٌ جدًّا».

فسألتُه: «وكيف للمرء أن يميزَهن عن غيرهن؟».

قال: «بأمرٍ واحدٍ فقط: حفظهنَّ لسرِّك. أما الصنف الثاني فتُفشيه لصاحبةٍ لها، وأما الثالث فتصنع منه قصةً تسُوءُك بها. وهنَّ يفعلن هذا جِبِلَّةً بغير خبث طويةٍ أو تدبير، حالهن كحال الكلاب إذا نبحت جِبِلَّةً، والحميرِ إذا نهَقت».

«وعينُ قسيس المارونيين هذا الذي أخبرتُكم عنه، أنصَبَتْهُ صاحبتُه في باكورة زواجهما تريده أن يبوح لها بما كشَفَ له الناس من أسرارهم ساعةَ الاعتراف. فأبىٰ واتهمها أنها ستبثُّ قولَه بين الناس.

فردت: (كلا والله؛ فإني أقدر أن أصونه إن أقسمت علىٰ صَوْنِه. وما عليك إلا أن تجربني).

فأجاب القسيس ساخرًا: (ستبدي لنا الأيام ذلك).

«ثم مرةً بينما هو متكئٌ علىٰ أريكته، طفق ينوح ويتلوىٰ كأنما يُعذَّب. ففزعت زوجته فزعةً شديدة، وأقبلت عليه تسأله مما يشتكي».

فقال: «ذاك سرٌّ لا يكون لي أن أفضيه إليك؛ ففيه عُقِدَ صلاحُ دنياي، وخلاصُ نفسي في الآخرة».

فتضرعت إليه وقالت: (قسمًا بالله لأكتمنَّه فخبرني).

فأجابها وكأنه يُعذَّب: «لكِ ذلك. وإني سأثق بك، وألقي بنفسي إلىٰ التهلكةِ. اعلمي أنك بين يدي أعظم المعجزات. فمع أني لستُ امرأةً إلا أني

حاملٌ، وقد بلغت آخرَ حملي، وهذا أمرٌ لم يحدث قطُّ علىٰ وجه الأرضِ حتىٰ الساعة. وقُدِّرَ لي أن أضع بِكري في هذه الساعة».

وصرخ حينئذٍ صرخةً مفزعةً، وأدخل يده تحت ملاءته، ثم أخرج لزوجته عصفورًا كان خبأه هناك، وأطلقه ليحلق من النافذة. ثم أَتْبَعَهُ بصرَه حتىٰ توارىٰ، وقال قانتًا:

(الحمد لله! قضينا! وقد رأيتِ ولدي. وإن هذه لَأعجوبةٌ من خلق الله لها حرمتها ومهابتها، فاحفظي سرها وإلا هلكنا جميعًا).

فاندفعت تجيبه: (يمينًا لأحفظنه).

«لكنَّ هذه المعجزة التي شهدتها استوقدت في صدرها، حتىٰ علمت أنها إما أن تحدث بها أحدًا أو تُزهِقَ روحَها. فدعت إليها صاحبةً لها تطمئن إلىٰ حصافتها، وأخذت منها غِلاظ المواثيق ألا تفشي السر، ثم أنبأتها به».

«وكان لهذه المرأة الثانية كذلك أمينةٌ لسرها، فأنبأتها بالخبر، وحلَّفَتها أن تكتمه، وهلمَّ جرًّا».

«فما أمسوا في نفس يومهم، إلا جاء للقسيس وفدٌ من شيوخِ القرية نيابةً عن القوم يستأذنونه في تقبيل قدمي ولده الأعجوبة. ذاك العصفور اللعوب المغرد، الذي تلون كقوس قزح، وعلا رأسَه قرنٌ من زغب».

«ما نطق القسيس لزوجته بكلمةٍ، وما ضربها، وما صنع إلا أن لمحها ببصره لمحةً. فما عادت بعد يومهم ذلك تُنْصِبُه بإلحاحها أبدًا، بل أذعنت له».

استنكرتُ عليه وقلتُ: «كان القسيس حكيمًا في هذه القصة، شديدَ الحمق في القصةِ الأخرىٰ».

فقال: «وهذه حال معظم الرجال. أمَّا النساء فأكثر اطرادًا علىٰ حكمة أو علىٰ حمق. أسعد الله ليلتكم». وختم بقوله هذا، ثم أخذ مرقده.

اتقد علىٰ الأرض بيننا فتيلٌ غُمِرَ في سراجِ زيتٍ وماءٍ. وهو ما اعتاد فلَّاحو الشام إنارةَ ظُلْمَةِ لياليهم به. وصوَّرَ نوره في الجدران والسقف ظلالًا رائعة تتمايل. وكان آخر شيءٍ سمعته قبيل أن أنام صوتُ رشيدٍ وهو يقول:

«حكيمنا هذا أفاك كبير، لكنه قال الحق».

الباب السابع

صلصلةُ الجِراب

انقلبت الرمالُ بيضاءَ بعدَ طولِ أُدمة، وتبدلت زُرقةُ البحر خضرةً، واسودَّ ما علا الكثبان من عشبٍ، وركع لريحٍ هبت بغتةً. وكأني بالجَوِّ تغير فجأةً. فمع أني آنستُ في جهة البر سحبًا تتراكم فوق شِعافِ الجبال، إلا أنَّا لم يُصِبْنا ظلُّها، وكنا نسير والشمس تلفحنا، ولها أُوارٌ أخفُّ من أوار الظهر بشيءٍ يسير. وما أحسست ببردٍ، ولا أظلني غيمٌ إلا علىٰ حين غرة. فلما نظرت إلىٰ السماء حينئذٍ رأيتها حُجبت بعارضٍ أغمَّ أحمر، غَشِيَ البرَّ والبحر. وسمعت للموج دويًّا لا يبشر بخيرٍ، بعد سكونه اليومَ كلَّه. وشبَّت خيولُنا الشُّهُبُ ورَدَت. وأسمعتِ الريحُ حفيفًا رقيقًا في العشبِ وشوكِ الجملِ، وأقبلت عليَّ تسف التراب في وجهي.

وتخلَّفَ رشيدٌ عني وبَعُدَ وهو يحاور بَغَّالَنا، فلما انقلب الجو وافاني يُهمِجُ فرسَه، وسمعت صياح مُكارِينا هذا يستعجل بَغْلَيْه.

صاح غلامي وهو ينهج: «في ذاك الضلع الآخذ في البحر قريةٌ لشراكسة، لكنها لا تُذكر بخير. وما كان في تقديري أن نبيت الليلةَ فيها، بيد أن أي مأوىٰ في ريحٍ عاصفٍ كهذه لمجزئٌ. فغُذُّوا السيرَ علَّنا نصل قبل أن نُمطَر».

كان فرسي حينئذ قد خبَّ من تِلقاء نفسه، فركضته. فطار بنا عابرًا الخليج. وما لَبِثَتِ القرية التي في الضلع أن تجلَّتْ. بيوتُها بيضٌ مربعةٌ توسطت ما حسبناه بادِيَ الأمرِ صخورًا، ثم لما قَرُبنا تبين أنها أطلالُ بنيانٍ لبلدٍ عتيقٍ. وتردد علىٰ هذه الدور رَذاذٌ صَوَّرَها في القُتمة كأنما هي ياسمين. وجعلَ البحر يطمو. ثم

أبصرتُ كُوَّة عتيقة لبابٍ، فوليت وجه فرسي شطرها. وهَبَطَتْ حينئذٍ علينا شآبيب مطرٍ، فغُمَّ عليَّ حتىٰ قَرُبْتُ، ولاح قُدامي حائطٌ ممسوح.

صاح بي رشيدٌ: «عن يمينك»، فلزمتُ يميني وسرت حتىٰ وجدت الباب. ولبثنا بسُدَّته إلىٰ أن جاء البغال وبغلاه، يَرِفُّ من المطر، متغطٍّ بخَيْشة. فلما حضر رجعنا نخوض هذا الوابلَ، ومشينا علىٰ طريقٍ وعرة تعرجت بنا خلالَ الأطلال صعودًا وسفولًا. تشتتت حولنا دورٌ كثيرةٌ، ليس لأيٍّ منها حديقةٌ وليس حولها أثرٌ لتَعَهُّدٍ بِحرثٍ. وكان لواحدٍ من هذه الدور طبقةٌ علوية، فولينا قِبَلَه لظنِّنا أن هذه الطبقةَ العلوية غرفةُ ضيوف. علا هذا البيتُ ضلعَ الجبلِ منتبِذًا بارزًا، ومن فوقه من الموجِ رَشٌّ وطَشٌّ.

احتمينا بسترٍ في فناءِ الدار الضيق يستر شيئًا منا ويكشف شيئًا، ورَقِيَ رشيدٌ درجًا من صخورٍ غِلاظٍ إلىٰ باب الدار وقَرَعَه. وجلس يصيح:

«سلامٌ علىٰ أهل البيت! إن مولاي يستجيركم ويستطعمكم، ونحن خدمه مثلُه نسألكم كريمَ فضلِكُم. وإن الله سيثيبك علىٰ قِراكَ يا ربَّ البيت!».

ففُتِحَ البابُ، وبَرَزَ لنا رجلٌ أدخلنا كلَّنا باسم الله. كان مربوعًا بادنًا أشيبَ الشارب كثَّهُ. علىٰ رأسه طربوشٌ قصير من طرابيش الأولين تدلت منه قُنزعة زرقاءُ عظيمةٌ، شده علىٰ جبهته بكُورِ عمامةٍ مطرزة. وعليه جُبَّة جزائرية زرقاء[1]، وصدرية قِرمزية، وسروالٌ أزرقُ داكنٌ فضفاض، وهو تمامُ لِباسِه؛ فقدماه حافيتان. وتحزَّمَ بمسدسين وسيف.

رحَّبَ بنا بعربيةٍ ركيكة، وأرشدنا إلىٰ غرفةٍ فيها فساحةٌ، وهي الحجرة العلوية التي رأيناها من بعيد. نوافذها خشبٌ ليس فيها زجاج، محكمٌ إغلاقها. إذا هبت ريحٌ سمعنا لها صريرًا وخشخشة.

وقام لنا شيخٌ بارع الجمال من مقعده ليحيينا.

سألني وأنا أحسر طيلساني عن رأسي: «من أي البلادِ أنتَ؟ أتركيٌّ أنتَ، أم منَّا؟»، فلما أجبته، قال: «أَإنجليزي؟!»، ثم أخذ بيدي وشدَّ عليها، وقال:

---

(١) وأهل الجزائر يسمونها: المجبود والكراكو؛ وهي: سترة مزخرفةٌ مطرزةٌ بخيوطٍ ذهبية، تكون للرجال وللنساء.

«الإنجليزي -كلُّ إنجليزي- صالحٌ، صادقُ العهد. إلا أن حكومتَهم أسرفت في الشر. وكان في مدينة قارِصٍ ثلاثةٌ من الإنجليز تخلقوا بأخلاق الملائكة في السلم، فإذا حَمِيَتِ الحربُ قاتلوا قتالَ الشياطين. وبينما هم يقاتلون في صفِّنا، غدرت حكومتُهم ببلادنا». فأومأت تصديقًا لقوله، فقال: «هاه! أسمعتَ عن الخبر؟ ما كدتُ ألقىٰ رجلًا يصدِّقُ الخبر. وهذا ولدي يظنني وضعته من كيسي».

وقد وافق أني قرأت عن هذه الحادثة التي ذُبَّ فيها عن مدينة قارص، وتقدم الناسَ ثلاثةُ أبطالٍ إنجليزٍ؛ هم: القائد وليامز، والقبطان تيسدِل، والطبيب ساندويش. وقرأت عما وقع من غدرٍ بالشراكسة الذين هبُّوا علىٰ الروسِ في حرب القرم تحت راية شامل[1].

سُرَّ الشيخُ وقال للرجل الذي أدخلنا: «أسمعتَ يا بُنَيَّ! أرأيت أن ما حدثتك به أكثر من مرةٍ صِدقٌ يعرفه هذا الإنجليزي حقَّ المعرفة، وتعرفه الناس كلها! اللهم إلا النَّوْكَىٰ ممن هم مثلُك ومثلُ أصحابك».

فاستأذنَنَا ولدُه حينئذٍ في أن يغيب عنا ساعةً خفيفةً ليستودع الحصادَ في مستودعه، ثم قام يجُرُّ جِرابًا خرج به من الحجرة. وما أدري ما حصادهم هذا الذي حصدوه، إلا أني أذكر أن ما في الجِراب كانت له صلصلةٌ حينما جرَّه.

ولما رجع جاءنا ببيضٍ مطبوخٍ بسَمْنٍ، وبقُرصَيْ خبزٍ، وجرةِ ماءٍ كبيرة، واعتذر إلينا من غلاظةِ الطعام. لما جلسنا معًا نتعشىٰ، جعل الشيخُ يثرثر عن الأيام الخوالي هشًّا مسرورًا، أما ولده فرمقني بعينٍ لا تَطرِفُ، حتىٰ قال:

«انشرح صدري لك يا خواجة! فقد كان لي ولدٌ في مثل سنِّك. أما ترىٰ يا أبتاه كأنما قُدَّا من أديمٍ واحدٍ؟».

ثم أكثرَ من الكلام مثل أبيه، وذكر لي تاريخ هجرتهم من القوقاز فرارًا من بغي الموسقَوِيِّينَ لعنهم الله، وطفق يعدد لي الشدائد التي نزلت بهم في أول مرةٍ يضعون فيها قدمًا بالشام.

---

(١) محمد شامل الداغستاني: هو الإمام المجاهد المشهور بأسد القوقاز وصقر الجبال، قاتَلَ الروسَ الغزاةَ نحوًا من خمسٍ وثلاثين سنة. ولِد سنةَ اثنتي عشرة ومئتين وألف من الهجرة (١٢١٢هـ)، وتوفي رَحِمَهُ اللهُ بالمدينة، ودفن في بقيعها سنةَ ثمانٍ وسبعين ومئتين وألف (١٢٧٨هـ).

ثم قال لي: «ما نحن برعايا لحكومة هذه البلادِ، بل نحن حلفاء لها، ولنا مزية فوق الناس؛ بيد أن الكلاب ها هنا ممن لا شرف لهم نَسُوا تلك العهود والمواثيق القديمة، وأرادوا إلزامنا بدفع الخراج كأننا من جملةِ الفلاحين».

جلسنا نتسامر حتىٰ تصرَّمَ الليلُ، وخارج البيت ريحٌ تهيج، ويضرب علىٰ النوافذِ القَطْرُ ورذاذَ من الموج. وما رأيت لينَ جانبٍ ولا إحسانًا قطُّ مثل ما لقيت منهم. وجرت العادة أن قِرىٰ عابري السبيل عشاءٌ فقط، فإذا أصبح الصبح ولَّوْا من بكورهم؛ بيد أني لما صحوت وضياءُ الشمسِ باهرٌ، وجدتُ مُضَيِّفَنا أعد شيئًا نفطر به من لبنٍ وخبزٍ عربيٍّ وقهوةٍ ريحها ذكية. ولما خرجت أقصد فرسي لحقني ودحس في رحلي طَيرين مشويين، وقالَ: «زاد!»، والزاد طعام السفر. ثم زادني حياءً هو والشيخُ فأكبَّا عليَّ يعانقانني ويقبلان خديَّ.

سرنا ناحية البر مجاوزين الأطلال، وقد أقلع المطر وسكنت الريح، وما بقي في أديم السماءِ غيمةٌ واحدة. وبينما نحن نسلك بستانًا من وردٍ بري، تكلم رشيد منغمًا صوتَه: «هؤلاء أهلُ خيرٍ! هؤلاء خير البرية! أَبَوْا أن يأخذوا منَّا فَلسًا؛ فجزاهم الله عنَّا خيرَ الجزاء».

وبعد ساعةٍ من المسير، آنسنا خانًا كبيرًا في أطراف قريةٍ علىٰ الساحلِ بيوتها من طين. واحتشد قومٌ أمام هذا الخان، وفيهم جماعةٌ من العسكر. فلما دَنَوْنَا منهم سألهم رشيدٌ عن علة اجتماعهم.

فأُخبِرَ أن السبب: «مصيبة عظيمة! فها هنا فرنجيٌّ يُحتضَرُ، قتله قُطَّاع طريقٍ. وقد هلك واحدٌ من رفقائه، وهو خادمٌ مسكين».

فترجل كلانا عن فرسه، وتخطىٰ رشيدٌ رقاب الناس حتىٰ يَطَّلِعَ علىٰ الأمر. ثم ما لبث أن أقبل عليَّ جنديٌّ، يسألني: «أسعادتك إنجليزي؟».

فلما أجبته قال: «الحمد لله! نفَّستَ كربتي. فهذا الرجل مثلُك إنجليزي كما خبَّروني. وقد أثخنته جراحه، وهو الآن في سكرات الموت».

فسرت معه إلىٰ المكلوم من حيني، ورأيته سُرِّيَ عنه لما سمعني أتكلم، مع أنه ما استطاع أن يرد. ولم أدخر أنا ورشيدٌ وسعًا في سبيل إراحة الرجل، فأمرنا العسكر أن يردوا الحشد. ثم عزمنا بعد ذلك أن نكمل سيرنا، ونبعث له طبيبًا، ثم نبلغ القنصلية البريطانية بالحادثة.

أومأ رئيس العسكر ناحيةَ الجنوب وقال لي: «أتىٰ ليشتغل بتجارةٍ في مدينةٍ في تلك الناحية. وجاء في جماعةٍ كبيرةٍ، كثيرةٌ جمالُهم. لكن خيل الشراكسة أغارت عليهم لما قاربوا قريةَ كذا. وأراد لشدة حمقه أن يدفعهم. فجرحوه، ونهبوا -فوق ذلك- منه كلَّ ذي ثمنٍ؛ من سلاحٍ ومالٍ، وقتلوا جَمَّالًا كان معه. ووقعت هذه الحادثة كلها أمسِ قبل انهلال المطر. والناس تلزمني أن آخذ له حقه، وما أنا إلا رجلٌ رهطي ستةٌ لا قِبَل لنا بحسين آغا وعُصبته من الفرسان. وما يقدر علىٰ هؤلاء إلا كتيبة!».

طفق يكثر من الشَّكَاةِ وأنا ورشيدٌ نُسِفُّ النظر إلىٰ بعضنا، فما القرية التي ذكرها إلا التي بتنا فيها، وما الطيران المشويان اللذان في رحلنا إلا طيرَا حسين آغا.

وبدا رشيدٌ منقبضَ الصدر من أجلي. ولبث واجمًا مليًّا، حتىٰ قال:

«هذه حال الحياة يا سيدي! ولا بد لكل امرئٍ أن ينظر إليها بعينه لا بأعين الناس. فالمرء يحكم علىٰ الناس بخيرٍ أو بشرٍّ بما وجد منهم. واختلاف الرأي في الناس تبعٌ لاختلاف تصور المرء عنهم، مع أنهم هم أنفسهم ما تغيروا. وقطاع الطريق هؤلاء أهل خيرٍ عندنا، ينبغي لنا أن ندعو لهم؛ لوجود الموجب لذلك. وأما ذاك الرجل فله أن يلعنهم إن شاء. خيرهم لأصحابهم، وشرُّهم لعدوهم. فمَن مِن بني آدم له حقٌّ أن يُشَنِّعَ عليهم؟».



الباب الثامن

شُغلُ شُرَط

لزمني في عشية من العشواتِ أن أبدل لباسي بثيابٍ حسنةٍ حتىٰ أحضر مأدبةً، فخلعتُ عني حزامي الذي أصرُّ فيه المال، وما تذكرت البتة أن أرجع فأتحزم به. ووافق أنه حوىٰ اثني عشر جنيهًا إنجليزيًّا. فخرجت ونسيته ملقًى علىٰ منضدةٍ بحجرة نومي في الفندق. ولما رجعت في السَّحَرِ لم أجده. وجاء رشيدٌ ليوقظني عند الساعة الثامنة، وكان قد باتَ البارحة في الخان الذي وُكِّلَ بحِصانَيْنَا، فلما أخبرته بضياع الحزام وبَّخني بأغلظِ توبيخٍ لقيتُه في حياتي. ثم انطلق بعد ذلك إلىٰ صاحب الفندق ليسلقه بلسانه.

وهذه الدار ليست كغيرها؛ فهي فندقٌ فندق، به مائدة دُوتيَّة[١]، ورجلٌ يحمل عنا المتاع، وبهوٌ زُيِّن بالنخل، وفيه لعمري كلُّ شيءٍ ما عدا البلاليع. وصاحب الفندق رجلٌ أسمرُ سمين، أكثرُ ما أراه متكئًا علىٰ أريكةٍ بمكتبه، ويكفيه مؤنة الشغلِ كلِّه واحدٌ من عياله الكُثُر. وقد عرفت الآن أنه لربما نشط غِبًّا لأمرٍ. فلما نبَّأه رشيدٌ بمصاب السرقة الذي نزل بي أنا، وأنا ضيفٌ في فندقه، وثب وانتصب، وجعل يتمايل من الغضب.

فلما أدركْتُهُم في موضع حديثهم، وهو بهو مزدان بالنخل في عرصةٍ مظللة، وجدت صاحب الدارِ رفع سوطًا عظيمًا يهزه، ويلعن أشنع اللعن، والزبد يطير من

---

(١) والدوت d'hôte: لفظةٌ فرنسيةٌ تُطلق علىٰ خوانٍ يجلس حوله صاحب الدارِ وضيوفه، ويؤتَون بقائمة فيها أسماء أطعمةٍ يختارون منها ما يشتهون أكلَه.

شِدقيه حقيقةً لا مجازًا. فأقبلت عليه أدعوه ألا يطيش به حِلمه، فما وجدت فيه أذنًا تسمع. وخرج إلىٰ مسكن الخدم معجلًا كأنما يصارع فحلًا جموحًا، فما لبثنا أن سمعناهم يسترحمونه بصراخٍ وصياحٍ يفطر الأفئدة. لحق الرجلَ بنوه؛ خشية أن يقتل من الخدمِ أحدًا، فزادوا الصَّخَبَ والتجاج الأصواتِ بحيلولتهم دونَ أبيهم. وبرز نسوة الدار بأبوابهنَّ يَصِحْنَ ويقبضنَ علىٰ أكفهنَّ فزعًا.

فلما رأىٰ رشيد هذا الهرج والمرج كأنه سُرَّ منه؛ فهو إقرارٌ بعظيمِ قدرنا؛ قدرِه هو وقدري.

وقال لي: «بالله هَلَّا انصرفت عنهم؟ فهذا الموقف لا يليق بمنزلتك الرفيعةِ البتة. ولك عليَّ ألَّا يكونَ إلا ما يرفع ذِكرك».

فلم أحفل بكلامه، ومكثت. ثم ما لبث صاحب الفندق أن رجع إلينا ينضح بالعرق، ويمسحه عن وجهه الأسمر بمنديل قِرمزي. وتبسم كأنما فرغ من تدريبٍ يتقوىٰ به.

ثم قلبَّ كفيه، وقال لي: «لن أظفر منهم بطائل؛ فقد ضربتهم ضربًا مبرحًا، وكلهم يقرُّ أنه هو اللص دون غيره. فما جاءت نوبة أحدهم من الضرب إلا ودَّ أن يكفَّ يديَّ عنه بأي شيء».

ثم خرَّ علىٰ أريكةٍ كانت في البهو، وسألني: «ما تشاء -سعادتك- فوق هذا؟ فوالله لأضربنَّ من شئتَ أن أضرب؛ فانتشار هذا الخبر يضر بالفندق. ولأهلِكَنَّ إذا بلغ مسامعَ بايديكر أو كُك[1]».

وقد استحييت من صيحات هؤلاء الخدم البؤساء، فأخبرته أني لا بأس عندي بعدِّ المال مفقودًا، ولَضياعُهُ أهون عندي من أن يُعَذَّبَ بسبب إهمالي رهطٌ ليس منهم أذًى. فاستنكر رشيدٌ وقال: إن اثني عشر جنيهًا ما هي بنَزْرٍ قليلٍ، مع

(١) بايديكير، وكُك: أسرتان اشتغلتا بالسياحة. فأما آل بايديكر Baedeker: فهم أهل بيتٍ ألمانٌ عُرِفوا بتدوين دلائلَ للسائحين، ولهم دليلٌ دونوه عن بلاد الشام، ذكروا فيه طريق البلاد، وطرفًا من تاريخها، ولغتها، وأخبار أهلها، وفنادقها ومطاعمها، وقُراها ومدنها، وغير ذلك كثير، واسمه (Palestine and Syria: A Handbook for Travellers, edited by K. Baedeker). وأما كُك: فرجلٌ اسمه توماس كُك، له ولولده مكتبٌ للسياحة، فيه دلائل للسائحين، ويعدون رحلات إلىٰ بلادٍ كثيرة.

أني لربما -لغَرارة الشباب- عددتها كذلك. وباعتباره خادمي، فينبغي له أن يحرس مالي.

قلت له متغيظًا: «ضاع الذهب، وهذه مشيئة الله. فاترك الأمر».

فاندفع مُضَيِّفنا وقال لي: «إذًا لن تعلم القنصلية الإنجليزية؟ ولن تخبر بايديكر أو كُك أيَّ أمرٍ قد يجلب العار علىٰ هذا الفندق ويخربه؟ زاد الله غِناك وحفظك أبدًا! وزاد الله في سؤدد ذريتك حتىٰ يملكوا الدنيا».

فاعترض رشيدٌ وقال: «لا بد أن يُفعل شيء؛ فهذه جِنايةٌ وقعت، ولا بد أن يُعرف جانيها».

فقال المضيف: «صدقت، ولن أدخر عن عونكم وسعًا. أما القنصل فلن ينفعنا بنافعة. وحسبه أن يروع الشرطة، فيعذبوا لذلك رجلًا أو رجلين أو لربما شنقوهما. وليس أيٌّ منهما الرجلَ الذي سرق حزام مالك. وشرطتنا حاذقة إذا لم تُذعر. فَسِرْ إليهم وهَب لهم مالًا قليلًا، وسيجدون لك من سرقك».

فقال رشيد: «الآن أذهب».

فاستمهلته؛ لعلمي بمذهبه في الغلو فيَّ وفي متاعي. وآثرت أن أحضر حديثهم؛ مخافة أن يروعهم رشيد ترويعًا ليس دون الذي خشيناه من القنصل.

ثم سرنا معًا خلالَ أسواقٍ مظللة، وفيها مواضع مكشوفةٌ مررنا بها تسطع فيها شمسٌ تخطَف الأبصار. وطفقنا كلَّ هُنيةٍ نستعلم عن طريقنا، حتىٰ دخلنا آخر مسيرنا حجرةً بيضاء يدور فيها العسكر سبهللًا. وجلس علىٰ مكتبٍ فيها عسكريٌّ جعل يدون أمرًا، وفي رأسه طربوشٌ، وعليه معطف طويل. وكان هذا الرجل شديد الإشفاقِ علينا.

فصاح: «اثنا عشر جنيهًا! إن هذا لمبلغٌ عظيم. وأول ما نبدأُ به تفحص مكان الجريمة. فأَنْظِروني، أبعث معكم رجلًا خبيرًا».

ثم نادىٰ واحدًا من العسكر، فأقبل وحيانا، ثم أمره أن يسير معنا.

فلما استأذناه لننصرف، انحنىٰ لنا متأدبًا، وقال مطَمْئنًا: «ثقوا به؛ فهو يحسن شغله».

ورجعنا الهوينىٰ إلىٰ الفندق ومعنا هذا الشرطي الذي وُكِّل بنا. وفاض هذا الرجل برأفته عليَّ، فقال: «إني ما سمعت قطُّ عن حادثةٍ أقبح من هذه، وكيف وقد سُرق فيها مالٌ كثيرٌ جدًّا من رجلٍ صلاحه ودماثته أبين من فلق الصبح! وأوَّه من رذالة بعض الخلق، لَعَمري إنَّ الشمسَ لتخبو منها!».

لما وصلنا الفندق جلس في حجرتي مليًّا يفتش عن (أدلةٍ) كما قال. واجتمع علىٰ الباب رشيدٌ، وصاحب الدار وكلُّ أهله، وغالب الخدم. ونظر الرجل في كل درج، وبعثر السرير ظهرًا لبطنٍ، ثم حَبَا يفتش تحته. ثم جعل يناقشنا مدةً أَدَخَلَ اللصُّ من الباب أم من النافذة. فلما استقر رأيه علىٰ أنه دخل من الباب، نظر إليَّ وسألني إن كنت أتهم أحدًا، فقلت: «لا»، فرأيته لَحَظَ رشيدًا حينئذٍ كأنما غبطه علىٰ شدة بلادة سيده. فلما همَّ أن ينصرف أمرتُ رشيدًا فأعطاه سِكَّةً من فضة. فقبل يدي لأجلها، ثم قال: «أعرف رجلًا فَطِنًا لا يضاهيه أحدٌ في هذا الشأن، وسأرسله إليك يجيئك في ساعة».

فانقضت ثلاث ساعات ولم يجئ. ثم بينما أنا جالسٌ بالبهو أتمزز قهوةً، أُتِيَ إليَّ برجلٍ أنيقٍ في ثيابٍ فاخرة. وكان كلما فتل شواربه نظر إليها من تحت خشمه، وتكلف ابتسامةً رقيقةً.

همهم بصوتٍ خفيٍّ: «سُرقتَ -سعادتك- وتود معرفة السارق؟ وليس شيءٌ أيسرَ من ذلك؛ فقد كشفت سُرَّاقًا كُثُرًا. وأظنني لربما كنت أعرف عين الرجل الذي سرقك. وقد أتنكر كامرأةٍ عجوزٍ أو شحَّاذٍ من الدراويش، والسبل في ذلك كثيرة. لكن لا بد أن تهب لي -سموك- قبل ذلك جنيهًا إنجليزيًّا. وهو أجرتي. وهو شيءٌ زهيدٌ مقابل ما سأفعله من عمل».

فأجبته بفتورٍ أن نفسي قد طابت عن الأمر، وما أود أن يحدثني أحدٌ بأي حديثٍ عن المال أو اللص. لكنه بقي مدةً طويلةً يتملقني ويحاجُّني. وجعل يصف مهارته بأجزل الألفاظ، ثم لما لم يفلح ولَّىٰ يقلب كفيه ويلحظني من ورائه عَلَّني أعدِلُ عن قولي.

ثم ما لبث رشيد أن رجع بعد أن خرج يتعهد خيلنا، وسألني: ألقيت المحقق العظيم؟ وكادَ يبكي لما قصصت عليه ما جرىٰ بيننا من حديثٍ.

وقال لي: «يشك مَن ها هنا أنِّي أنا اللص. وأحس ذلك في معاملتهم لي، مع أنهم لم يصرحوا بشيء. وأنتَ الآن تعرض صفحًا عن التفتيش عن المجرم! أفيلزمني هذا العارُ أبدًا؟».

وهذه معضلة ثانيةٌ ألمَّت بي، لم يظهر لي مخرجٌ منها؛ فليس لنا في العثور علىٰ المجرم رجاءٌ يُتعلق به، وإن استعملنا ذاك المحقق العظيم. وبينما أنا أتفكر فيما أملك أن أصنع لأبرئ رشيدًا، دخل البهوَ رجلٌ كأني أعرفه، وأقبل علينا علىٰ مهل. وما كان هذا الرجل إلا سليمانَ! وكنت أحسبه في غزَّةَ جنوبَ فلسطين، وبيننا وبينه ثلاثمئة ميلٍ. التجَّتْ أصواتنا ونحن نحدثه بالخبر، فأخمدتنا رزانتُه. وما رأيته قطُّ هشَّ أو أظهر تعجبًا.

فأعمل فكره وهو يستمع إلينا، وأنغض إلينا رأسه لما ذكرنا الشرطة والمحقق[1].

ثم قال مزدريًا: «ما يغني هؤلاء عنك فتيلًا. ولن يسعفك في حاجتك إلا عريف اللصوص. وأنا من أصفيائه».

فقلتُ: «ما شاء الله! فثمة للصوص نِقابة؟».

فقال: «نعم لهم».

قلتُ: «فلا بدَّ أن شيخهم هذا أشدُّهم فِسقًا، وليس لي حاجةٌ بمعرفته».

فأخذته عِزةٌ وقال: «أخطأتَ. وأصلُ خطئك اعتقادُك أنَّ اللص فاسق. ولربما كان فاسقًا في ذات نفسه، وكلُّ كادحٍ لربما وقع في الفسق. أما حاله في الجماعة التي يكون منها فذو شرفٍ وعِزَّة. وذلك نقيض حالِ الأوربيين؛ فالفرد عندهم أشرف من دولهم وجماعاتهم. وأقسم لك أن شيخَ اللصوص هذا مضرب المثل في الشرف، وسآتيه من حيني. وله أن يبرئ رشيدًا».

فقال خادمي: «إن فعلَ، فهو خير البرية».

---

(١) ينغض رأسه: يحركه تعجبًا أو استهزاءً، كفعل المشركين الذي ذكره الله تعالىٰ في سورة الإسراء: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

ثم أقبل علينا بعد ساعةٍ واحدٌ من أهل الفندق متهللةً أساريرُه يخبرني بمقدم نفرٍ من الشرطة أمسكوا اللص. فنَسَل إلىٰ الساحة صاحبُ الفندق وكلُّ أهله، وجاء رشيد ومعه كل الخدم من حوالي المطبخ. ودخل علينا أربعة من العسكر يصيحون ظفرًا، والرجل بينهم يُساقُ ويُدفع . . . وما هو إلا سليمان.

وكان صاحبنا الأسير علىٰ رزانته التي عهدناها منه.

ناداني قائلًا: «ألا إني رددتُ الحزامَ، ولقيت هؤلاء النفر رَصَدًا عند الدار فرأوه معي، وركبوا رؤوسهم ما يسمعون مني. والذي سرق حزام المالِ رَحَلَ عن المدينة، وهو رجلٌ يوناني. وقد أعطىٰ الشيخَ الحزام، وأخذ المال».

فخلىٰ العسكر سبيله خائبين.

وسأله قائدهم: «ما أدراك عن كل هذا؟».

قال: «خبرني به رئيس اللصوص».

فأومأ برأسه وقال: «أها! فإذًا قولُكَ الحقُّ؛ فهو رجلٌ عَدْلٌ ولن يغشك».

وما أزعم أني أعقل هذه الغرائب، وما أفعل إلا أني أقصها عليكم.

الباب التاسع

ابـن بـلـدي

كنا في جنوب الشام في ليلةٍ من الصيف، نسير في قَفرٍ جَلَدٍ أشرفَ علىٰ البحر الميت وأحاط به، كثيرةٍ أخاديده وأجرافه، وقَلَعُه وسجِّيله[1]. ونحن في مسيرنا هذا مذ طلعَ الفجرُ وما لقينا فيه إنسيًّا، حتىٰ فُرِجَتْ بعد ذلك، ولاحت لنا قريةٌ من بعيدٍ، استبشرنا برؤية آثار حرثٍ حولها، وشجرةٍ واحدة.

سبقنا رشيدٌ، وكان سليمانُ إلىٰ جنبي، ثم تخلف عني ليصنع أمرًا في حوافر فرسه. فلمَّا هبطت إلىٰ سفحٍ محاذٍ للقرية قَرَعَ سمعي صراخُ قومٍ غَضْبىٰ، ورأيت حشدَ فلاحين رَجَّالة تألبوا علىٰ رشيدٍ. فرَكَضْتُ فرسي وصحت به أستخبره عن الخطب. فتركه حينئذٍ بعض أهل القرية وأحاطوا بي، يلوحون بأسلحتهم، ويبربرون.

وقبل أن يقدر رشيدٌ أن يجيبني، تبيَّنْتُ أن الماءَ محلُّ النزاع من تَكرارهم لكلمة (مويه) دون غيرها.

قال لي رشيد: «تجري تحت تلك القنطرةِ عينٌ وَرَدْتُهَا، وجعلت فرسي يشرب من حوضٍ من حجارةٍ فيه ماءٌ. وما فعلت ذلك إلا هجم عليَّ هؤلاء المجانين، واقتادوا فرسي، وصَخِبوا صخبهم الذي سمعت. وكانوا يحاجوني أن العينَ عينُهم، وليس لأحدٍ غيرهم حقٌّ في وِردها. فعرضت عليهم أن أجزيهم أجر

---

(١) القَلَعُ: جمعُ قَلَعَةٍ؛ وهي: الصخرةُ العظيمةُ المنفردة، صعبة المرتقىٰ لضخامتها، وسميت بذلك؛ لأنها تنقلع عن الجبل غالبًا. والسجيل: حجرٌ رقيقٌ كأنه طينٌ صُلب.

شِربنا، إلا أنهم ركبوا رؤوسهم. فخوفتهم بطلب الثأر، ولم يخافوا. أفَتَشَاءُ -سعادتك- أن أضرب نفرًا منهم؟».

لما رأيت عديدهم عرفت أن الحكمةَ في تركهم علىٰ حالهم حتىٰ تسكن فورتهم، وحتىٰ يوافينا سليمان فنستعين برأيه. فتبسمت لهم وأومأت برأسي، ثم ارتددت علىٰ عقبي أصَّعَّدُ في الجبل قليلًا، وتأسَّىٰ بي رشيدٌ علىٰ مضض، وهو يغمغم بلعنِ دينهم، وأصلهم. ترجلنا عن خيلنا، واستلقينا تحت ظل صخر. وما زال في النهارِ ساعتان حتىٰ تغرب الشمس.

جاء سليمان، وناديته أنِ انزل عن فرسك، ففعل.

ثم نظر إلىٰ القرية فاترَ الوجه كأن لم يكن شيءٌ، وهذا ديدنه إذا عرضت لنا معضلات عظيمةُ الشأن. ثم سألني: «ما هذه الضوضاء عندهم؟».

فدمدم رشيد: «لعن الله آباءهم! أبَوْا أن نقربَ ماءهم. أسمِعَ أحدٌ قطُّ بشحٍّ علىٰ الأضياف مثل هذا؟ ووالله ما ظلمناهم لو خربنا بيوتهم عليهم».

فخاوص سليمانُ كي يستوضح حشدَ القرويين أسفل الجبل[1]، وهم قعودٌ حول عينهم يحرسونها. ثم همهم من غير مبالاةٍ بقوله:

«من البيِّنِ أنك أغضبتهم يا أخا التسرع. وأرىٰ أن نصبر قبل أن نرجع إليهم ونتلطف في سؤالهم».

ثم انسدح من حينه علىٰ الأرض، وزفر زفرةً عظيمة. وأحسبه همَّ أن ينام لولا أنَّ رشيدًا قام يقص الحادثةَ كلَّها، ورأىٰ ذلك لازمًا لمَّا رأىٰ أن الملامة أُلقيت عليه.

ثم سأله ذابًّا عن نفسه: «هل بيد المرء حيلةٌ غيرُ ما صنعت؟ وفي أيِّ شيءٍ نزِقتُ ولو كان شيئًا تافهًا؟».

فألان حكيمنا له القول: «ما أخطأتَ -والله- في شيءٍ، وكنت تقدر مع ذلك علىٰ أن تفعل ما هو خيرٌ من طريقتك حين رأيتَها لم تفلح. إلا أنك ما زلت جنديًّا في فكرك، ولست تحسن طريقةً إلا التهديد، فإن لم تغنِ عنك شيئًا جلست عاجزًا، علىٰ كثرة السُّبُلِ الأخرىٰ».

---

(١) خاوص الرجل: أي كاد يغمض عينيه وهو يحدق إلىٰ أمرٍ بعيدٍ، كالناظرِ إلىٰ الشمس، أو كالذي كلَّ بصرُه.

فامتعض رشيد من ذلك وقال: «عرضتُ عليهم مالًا، فما عسىٰ المرء أن يفعلَ بعد ذلك؟».

فاعترضت بينهما حتىٰ لا يحس رشيدٌ أنه انفردَ بالملامةِ علىٰ الجهل، وقلتُ: «وما تلك السبل التي تقصدها؟ دلَّنا يا حبيبي».

فقال سليمان: «لا ينبغي البتة لعظيم أن يخاطب فوجًا من الناس، وإنما يتخير رجلًا منهم يختصه بالكلام». وكاد يزيدنا لولا أنْ صرف نظرَه عنَّا أمرٌ رآه في الوادي أسفل القرية، فجلس، وذُهِل عن مصيبتنا.

شخَصَ ببصره ساعةً ثم صاح: «هذه أعجوبة! فما أحسب هذه القرية مذ برأها الله شرُفَتْ بمَقْدَمِ اثنين من الفرنجة في نفس اليوم»، ثم قال لي: «أنتَ في ظاهرك عربيٌّ منا، أما ذاك الذي طلع علينا ففرنجيٌّ صِرفٌ، يرافقه خادمان».

فنظرنا إلىٰ حيث أشار بسبابته، فإذ برجلٍ علىٰ ظهر فرس، ثيابُه بيضٌ من لدن رأسه إلىٰ قدميه، وعلىٰ رأسه قبعة رحالةٍ تقيه الشمسَ، وكوَّرَ طرحةً عليها. ومن ورائه خادمان من أهل البلد يسوقان بغلين محَمَّلَيْن برحالهم.

لم يبالِ رشيد بما رأىٰ، ودمدم: «أَعْوَز الماءُ خيولَنا، ولا يحلُّ لهؤلاء الأراذل أن يمنعونا عنه».

فرد عليه سليمان وهو راجعٌ ليتكئ مطمئنًا: «لنصبر، فننظر ما يصنع هذا الذي قَدِمَ، ونرىٰ أيَّ طريقةٍ يتخذ».

وصل الفرنجي وخادماه إلىٰ رَبَضَ القرية، وتوجهوا إلىٰ العين علىٰ ما جرت به العادة. فاعترضَهم الفلاحون بفوجٍ لا فجوةَ فيه، وكانوا حول العين يحرسونها بعد أن اجترأ عليها رشيد. فجادلهم الفرنجي، وكان بمسمعٍ منا فآنسنا سطوةَ لهجته.

اشتد حرص سليمان حينئذٍ فجلس وقال: «إيه، يحسن شيئًا من العربية؛ فهو إذًا مبشر لا رحَّالة. وكان حريًّا بي أن أفطن لذلك؛ فموسم السياحة قد انقضىٰ قبل زمنٍ طويل».

ثم قام إلىٰ فرسه علىٰ تؤدة ووقارٍ وركبه. وهبط علىٰ مهلٍ يؤمُّ ساحةَ النزاع، ونحن في إثره. فلما بلغناها، شَهَرَ الفرنجي مسدسًا بعد أن مَشَقَ بسوطه عن يمينٍ وشمالٍ من غير جدوىٰ.

كانت الناس حينئذٍ ترجمه، وفرَّ بغَّالاه بعيدًا حتىٰ لا تصيبهم الحجارة. وبدا كأنما يوشك أن يطلق النار علىٰ واحدٍ من الحشدِ في طرفة عينٍ، فلا يكون لأحدٍ غيرِ الله أن ينجيه.

صرخ سليمان بالإنجليزية: «لا تسفهنَّ نفسك يا سيدي، ولا تطلقنَّ نارَك!».

فنظر الفرنجي قِبَلنا والغضب بادٍ في وجهه، فلم يبذل له سليمان نصحًا بعد ذلك، بل رَكِبَ إلىٰ من قاربه من الفلاحين وصيَّح بهم:

«أيها المؤمنون! أيها الموحدون! صلوا علىٰ النبيِّ، وخبروني الآن ما الخطب؟».

فلما صرف أنظارهم إليه بهذه المناشدة الغليظة، سألهم:

«أيكم كبيرُ القوم؟ ليتكلم، ولا يكلمنَّني غيره».

ومع أنَّا ما رأينا حتىٰ ساعتنا تلك لهم قائدًا، إلا أنهم دفعوا لسليمانَ شيخًا أبيضَ اللحية، وقالوا:

«هذا شيخنا، فسَلْهُ يا صاحب القضاء».

وما سمعتُ أنا ولا رشيدٌ شيئًا مما تلا ذلك من حديثهما، اللهم إلا تخافتهما، وفيه وُدٌّ ظاهر، وسمعنا قهقهةً مِن فوج الفلاحين. ثم لم تُرمَ حجارةٌ بعد ذلك، مع أن نفرًا منهم لم يبرحوا العينَ يحرسونها.

ثم ما لَبِثَ سليمانُ أن رجع لنا، وقال فرحًا:

«صلَحَتِ الحالُ، وأذنوا لنا في إصابةِ ما نشاء من الماء. وما منعونا عنها إلا لِمَا جلبت لهم من الهمِّ من قديم الدهر؛ فالبدو ينزلون بها وقت القحط ومعهم مواشيهم كلها فينزفونها[1]. لكنهم الآن أصحابنا، وصدورهم رحبةٌ لنا».

ثم نادىٰ الفرنجي، وكان هذه المدة كلَّها ممسكًا بعِنان فرسه حنقًا، وأحسب أن غيظه من إهمالهم له أشدُّ من غيظه من اعتدائهم عليه. قال له سليمان:

«لا تثريب عليك. خذ الماءَ وادفع لهم خمسةَ قروش».

---

(١) نَزَفَ البئرَ أو العينَ ونزحها: أي استقىٰ ما فيها حتىٰ نفدت.

فصرخ الفرنجي: «أعوذ بالله من السطو! بأي حقٍّ يطلبونني ثمنًا لماءِ هذه العينِ التي حبانا الله بها. قل لهم: لن أدفع لهم شيئًا».

فقلَّبَ سليمان كفيه وقال: «لا بأس، سأدفع عنك».

فأردتُ أن أُفهِمَ هذا المبشر أنَّا في البادية، وحالُ الباديةِ جعلت هذه العينَ مالًا نفيسًا، وجعلت ملءَ كلِّ جرةٍ مستحقًّا لثمنه. وسميته مبشرًا؛ لأني تبينت بعد معرفته أنه مبشر. فلما حدثتُه قلَّبَ النظر في لباسي الذي يكاد يكون كلباسِ أهل البلد، وبدا علىٰ وجهه إشفاقٌ واشمئزازٌ، ثم ما كان جوابه إلا أن قال: «عجبًا! أأنتَ إنجليزي؟ وأناشدك اللهَ مَن رفيقك هذا الذي أغلظَ الحديثَ لي؟».

فقلت له: «اسمه سليمان، وهو صاحبٌ لي».

فأَنِفَ الفرنجي من جوابي وقال: «صاحبك؟ هيهات!»، وكان ضخمَ الجثةِ، أسمرَ الوجهِ، أزهرَ العينين. ثم أتمَّ كلامَه وقال: «سأبيت الليلة ها هنا، وسأضرب لي خيمةً، عسىٰ أن تكرمني بمجيئك إليها، وتتعشىٰ عندي. وإذا فعلتَ تكلمنا في هذا الأمر».

بَغَتَني بدعوته هذه، فقلتُ: «لبَّيك».

ثم سألني: «أين خيامكم؟».

فأجبته أنْ: «ليسَ لنا خيامٌ، وإنما ننزل بدارِ الضيافة في القريةِ إن كان فيها دارٌ، وإلا افترشنا الأرض والتحفنا بالسماء».

فلوىٰ شدقه وهمهم بقوله: «لا بأس، للناس فيما يعشقون مذاهب».

ولما كنت أكلم الرجلَ كان رشيدٌ قائمًا ينتظرني كي يقول لي: إنَّ سليمان سبقنا إلىٰ بيت عريف القريةِ، حيثُ أُعِدَّ لمبيتنا. فلما فرغت من محادثة المبشر جئنا الدارَ، ورأيتُ فيها سليمانَ متوسِّطًا مجلسًا طويلًا في الطابق السفلي، واجتمع حولَه كبراء القرية. فلما دخلتُ قام وقام معه كل من في المجلس، وقال:

«عندنا حجرةٌ قريبةٌ نلقي فيها رِحالنا، لكنها قذرةٌ لا تصلح أن نبيت فيها؛ ولذلك سنبيت علىٰ عريشها. أما العَشاء فقد دعانا إليه الشيخُ الكريمُ، وأجزم لك أنه يعد لنا مأدبةً عظيمة».

فأخبرته أني وعدت المبشر أن أتعشىٰ عنده، متحسِّرًا غايةَ الحسرةِ علىٰ نفسي، وفيَّ شيءٌ من الاستحياء. فنظر إليَّ مثرِّبًا، وأخبر أهل القرية بما قلت. فأَسِيَ القومُ كلهم وصَخِبوا. ثم أشار عليَّ سليمانُ أن أرجع عن وعدي من حيني. فما ائتمرت بمشورته، وأَحفَظَه ذلك جدًّا. فاكفهرَّ هو ورشيدٌ، وأشاحوا بوجوههم عنِّي حتىٰ حين خروجي. وعلمت أنهم غاروا من الفرنجي الذي عدُّوه خصيمًا لهم، وخافوا أن يخببني عليهم.

الباب العاشر

مفرق الطرق

ما أعجل مغيبَ الشفقِ في صيف تلك البلاد! فقد خرجتُ ساعةَ الشفقِ أريد خيمةَ المبشر، وما دنوت منها إلا وقد أُعتِمْنَا، وأنارتِ النجومُ السماءَ.

رافقني رشيدٌ كأنما أوجب البرُّ عليه ذلك، وأصر أن يلزمَ خَدَمَ المبشر عند نار الطبخ، مع أني كررت عليه الأمر بالرجوع؛ لعلمي أن لعابه لَيَسِيلُ علىٰ مأدبة العريف. لكنَّ تغيظه من تركي لهم حمَلَه علىٰ أن يقطع عزيمته علىٰ ألا أغيب عن ناظريه، وأوجبَتْ هذه الموجدةُ أن يُفتدىٰ بأحدٍ، ولا بأس إن كان هو المفتدىٰ به.

صاحَ المبشر مناديًا: «ادخل!» وأنا لمَّا أقاربِ الخيمة. فلما دخلتُ ألفيته مستلقيًا علىٰ كرسيٍّ شاطئٍ، مشبِّكًا بين يديه من وراء رأسِهِ. ولم يَقُم لي عند دخولي، بل اكتفىٰ بالتبسم، وأشار إلىٰ كرسيٍّ ثانٍ وراءَ خوانٍ صغيرٍ من الأخونة التي تطوىٰ، وقد نُشِرَ إعدادًا للعَشاء.

طفق يحدثني عن حرِّ النهار، وتعب الأسفار، وأذىٰ الذباب. ثم سألني كيف أصبر علىٰ المبيت في زرائب هذه البلاد، التي تغصُّ بالبراغيث، بل بما هو أسوأ؟

فأخبرته أنَّا بفضل سليمانَ وتدبيره سنبيت علىٰ عريشِ دارٍ لنسلمَ من هذا كله، فشَمَخَ بأنفه.

ثم أردت أن أُضحكَه فأخبرتُه بحديثٍ وقع علىٰ سمعي بين رشيدٍ وسليمان، يتذاكران فيه أي طريقةٍ أنجع لردِّ هوامِّ البيوت. فذكر رشيدٌ منافعَ نبتةٍ معينةٍ،

وعارضه سليمانُ وقال: إن خيرَ دواءٍ للهوامِّ رضيعٌ. والرضيعُ إن وُضِعَ علىٰ الأرض هُنيَّةً جمع إليه كلَّ حشرةٍ في الدارِ، فتحمله أنتَ حينئذٍ خارجَ الدار وتنفضه منها.

فلم يتبسم المبشر من كلامي أصلًا.

تمتم بقوله: «هؤلاء بهائم! كيف لكَ أن تتخذهم أخلاءَ وأنتَ رجل إنجليزي، وظاهرٌ أنك متعلم؟!».

فنافحتُ عنهم وبينت له أنَّ لهم محاسِنَهم، مع أن حُجَّتي قصرت بي؛ لِمَا وجدت في نفسي من أثر شكيمته؛ فهو رجلٌ أحسب أن التجارِبَ عَجَمَتْهُ، وهو أيضًا من الرهبان الذين تربيت علىٰ توقيرهم.

ثم لم ينطق بعد ذلك بكلمةٍ حتىٰ فرغنا من العشاء. وعشاؤه سَردينٌ، ولحمٌ معلَّبٌ، وشرائحُ من أناناسٍ، وطماطمُ، وزُبدةٌ خاثرةٌ معلَّبةٌ، وخبزٌ أوربيٌّ قديمٌ عفا عليه الزمنُ جاءَ به من بلادنا. لما وُضع قُدَّامي هذا الطعام المعتق، تلهَّفت نفسي علىٰ المأدبة الفاخرة الطرية التي خلَّفتُها في بيت العريف. وأظنه عرف ما جرىٰ بخاطري؛ إذ قال: «ما أمسُّ طعامَهُمُ البتةَ؛ فهو نجس!»، وأعلم أن قولَه هذا هو نفسُ رأيهم في طعامه.

ورأيتُ القائمَ علىٰ خدمتنا وَجِلًا إذا تحرك، وكان سيدُه جافيًا خشنًا إذا خاطبه.

وحضر بعد العشاءِ شايٌ، أقِرُّ أني فرحت به. ثم شَرَعَ المبشر في مساءلتي. وتربد وجهه وغاضت بشاشته لمَّا عَرَفَ ابنَ مَن أنا، وعرف أن بعض أصحابي أصحابٌ له. وأحسبه سمع بخبرِ وجودي في هذه البلاد.

أغلظ لي القولَ: «بالله ماذا تصنع هنا؟ حريٌّ بمن هو في عمرك أن يكون في الجامعة، أو في درسٍ لصنعةٍ تنفعه».

فأجبته علىٰ استحياءٍ: «أتعلم أمورًا».

جلستُ أمامه مدركًا أني غِرٌّ قليلُ التجرِبة، وهو يغالبني لأنزل علىٰ رأيه الذي وافقَ فيه رأيَ أبناءِ بلدي قاطبةً.

سألني: «أيُّ أمور؟»، ثم انفلت لسانُه، فبين لي رأيه في أهل هذه البلادِ، وخاصةً منهم صاحبَيَّ. وقد استشفهم من أول نظرة. وهما مجرمان مخادعان لا غايةَ لهما إلا نهبي. ثم قصَّ عليَّ أخبار إنجليزٍ كانت هلَكَتُهم هكذا، فيتخذ الرجلُ منهم أصحابًا من أهل هذه البلاد يحسبهم موضعَ ثقته. ومن هذه الأخبار التي قصها خبرُ رجلٍ قُتِل آخرَ أمرِه شرَّ قِتلة. ثم راودني علىٰ قطعهم. فلما رأىٰ تعلقي بهم، تضرع إليَّ أن أحتقرهم، وأن «أنزلهم منازلهم»، فوعدته جُبنًا أن يكون له ذلك. مع أني ما عهدت من شيمتي أن أنزل أحدًا المنازل التي أرادها.

ثم تبينت أنَّه جاءَ هذه البلاد يقطعُ مفازاتها طلبًا لنقشٍ يوناني ورد ذِكره في كتابٍ من الكتب. وكاد يستميلني أن أرافقه.

قال لي لَمَّا هممت أن أنصرف: «ليس في بقائك في هذه البلاد خيرٌ وأنتَ وحدَك مع رفيقين كهذين. قلِّبِ النظرَ فيما نصحتك به. ارجع إلىٰ إنجلترة. تعالَ معي في الأسابيع التوالي، وبِتْ في خيامي. فإذا نزلنا القدسَ فانزل معي، ولنا أن نتكلم ثَمَّة فيما بَيَّتَّ من رأي».

وليس في حسن قصده شكٌّ ولا مِرية.

فشكرته، ثم سِرتُ الهوينىٰ في سنا النجمِ راجعًا إلىٰ القرية. فلما برزتُ من الخيمةِ، فارق رشيدٌ النفرَ الذين جلسوا حول نارِ المبشر. وتقدمني وهو يغلي من الغضب يؤم القريةَ وفي يده مصباحٌ.

ومن العجائب: أن كلاب القرية التي أضجت عند مقدمنا قبل سويعاتٍ، لم تلتفتِ الآن إلينا، كأنما أثبتت خشخشةَ نِعالنا، وعدَّتها من خشخشة أهل القرية.

ما زال سليمان جالسًا في بيت العريف يسامر شيوخ القرية. فلما قعدتُ قال لي: لعلَّك روَّحتَ عن نفسك، وكان في صوته شيءٌ من أسفٍ، فطِنتُ له وتوقعته. ثم لمَّا نظرت إلىٰ الوجوه المتهللة المستبشرة التي حفَّتني، قايست بينها وبين وجهِ المبشر العَبُوسِ، فتمثل لي حينئذٍ في صورةِ سبعٍ عظيم من سباع الطير. أبْغَضَتْهُ نَفسي؛ فقد كان يحدثني كأنما هو قيِّمُ مدرسة. بيد أن كلامَهُ وَقَرَ في نفسي؛ فأنا أغرُّ من أن أحكم علىٰ الأمور، وقيِّمو المدارسِ - علىٰ بُغضِهِم - يميلون إلىٰ أن يكونوا علىٰ صواب.

ثم بعدَ سَمَرِنا صَعِدنا السطحَ لننام. فاستلقينا، وقال كلُّ واحدٍ لصاحبه: «تصبحُ علىٰ خيرٍ»، ثم تكلم سليمانُ كأنما يحدث نفسه:

«فسدت الحال ولن تصلح أبدًا!».

فسألته مغضبًا: «ما قصدك؟».

قال: «أفسد ذاك المبشرُ الأمرَ كلَّه. فأخبرك ألَّا تثق بنا. وألا تُوَادَّ أهل هذه البلاد؛ فهم لمولدهم فيها صاروا أحقر منك».

فلم أردَّ عليه، وأكملَ هوَ كلامه:

«مَن سعىٰ في الباديةِ استرشد بالبدويين، ومن ركب البحرَ ائتمن الملَّاحين، فما هو زعمه؟ أسألك بالله أن تنبئني عنه».

فقلتُ له: «أنبأني عن أخبارٍ من تجارِبه».

فقال سليمان: «ليست تجرِبته تجرِبتَكَ، ولن تكون أبدًا؛ فهو العدو، وهو نمرٌ، لو سألته عن بني آدمَ، لقالَ -من غير شكٍّ-: إنهم عفاريتُ، مكرُهم يفسد الدنيا؛ فحقهم أن يُقَطَّعُوا بالمخالب حتىٰ يَهْلِكوا. ولو سألتَ حمامَ مسجدٍ عن بني آدمَ، لأقسم بالله أنهم سادة الخيرِ كلِّه».

فقطع رشيدٌ عليه حديثه وقال: «غلمانه الذين حادثتهم خبروني أن الرحمةَ نُزعت من قلبه. فما يشكر لهم صنيعًا البتة، ولو أدوه علىٰ أكمل وجه. وما حرَّكَ قطُّ شفتيه بكلمةٍ طيبة. ووجهه مكفهرٌّ أبدًا. فأين هو منك وأنتَ تحادثنا وتضاحكنا؟!».

جلسنا حينئذٍ ثلاثتُنا من غير أن ننتبه لأنفسنا، ولبثنا جلوسًا نتناظر في أمرنا مناظرةً تغصصنا بريقنا، ومن فوقنا النجوم الثاقبة، ونسمع بناتِ آوىٰ يعوين من جبلٍ، فيُجَبْنَ عُواءً من جبلٍ غيره، فيهم القاصي وفيهم الداني. ولبثنا علىٰ حالنا هذه الليلَ كلَّه، وتَزَاحَفْنَا حتىٰ انزوينا إلىٰ بعضٍ لَمَّا كدنا نتفق علىٰ رأي.

قال سليمان: «إنجليزيٌّ مثل ذاك المبشر لا يفرق بين الناس حَسَنِهم وقبيحهم؛ فكلُّ مَن هم ليسوا مِن بني جِلدته أعداءٌ. والناس عنده سواسية، ومن يفعل ذلك في الدنيا فهو عُتُلٌّ. وهو يحاسب كلَّ رجلٍ حسابًا عسيرًا. أما نحن فإذا أحببنا رجلًا لم نحاسبه. وما ننظر أبدًا إلىٰ حقِّنا، ومكانتنا. وأما إذا كَرِهنا

رجلًا فحالنا -عفا الله عنَّا- كحال المبشر، ما عدا أخيَرَ الناسِ وأحلمهم من أشرافنا».

فعارضتهم قائلًا: «لكنكم أهل حِيَلٍ، ليست لكم مواثيقُ شرفٍ مثلنا». وقصدت بكلامي السخريةَ، إلا أني أحس أني سلقتهم به.

فكاد رشيدٌ يبكي، وصاحَ: «أهذا رأي سعادتك؟! ما أظنك إلا تقصد السرقة التي وقعت في الفندق، وأنتَ لم تقم لها وزنًا في ساعتها فلم تحرك ساكنًا. ثم استقر أن الذي فعل الفَعلةَ يونانيٌّ. فقل لي بالله، أتذكر فيما خَبَرت أحدًا من بني العربِ سرق منك بارةً زهيدةً[1] أو ظلمك قطُّ؟».

فتفكرت هُنَيَّةً ثم قلتُ: «لا أذكر. لكنَّ لي عبرةً في تجرِبة غيري ممن هم أسنُّ مني».

فقال سليمان: «دع غيرك يحكمْ علىٰ الناس بما رآه منهم، واحكم أنتَ عليهم بما رأيت منهم».

قلتُ: «حتَّني أن أذَرَ هذا الهَيَمان علىٰ وجهي، وأرافقه في طلبِ نقشٍ يونانيٍّ قديمٍ ما هو ببعيد عنا، ثم نرجع إلىٰ القدس، وأمَّلَ أن نبلغها في أربعة أيامٍ، وحثني أن أعود منها إلىٰ إنجلترة».

فوَجَمَ حينئذٍ صاحبَايَ وصارا كأنما علىٰ رؤوسهم الطيرُ، كأنَّ رعبًا نزل بهم وشلَّهُم. كنا في ساعةِ السَّحَرِ، وقد قَنَطْنا من الدنيا. وتردد حينها صوتُ المبشر في أذني كأنما يناديني إلىٰ تلبية الواجب، مع أنَّ كلَّ غريزةٍ فيَّ نفرت من صوته وعادَتْه.

قال خادمي مبتئسًا: «أفتفعل -سعادتك- ما يرضيه؟!».

زَفرَ سليمان ثم قالَ: «حَفِظَك الله أبدًا! أنتَ أميرنا فمُرْنا».

وتجلَّىٰ حينئذٍ خيطُ الصباحِ في أقصىٰ الأفقِ فأرانا أطرافَ الأرضِ المعوجة. وخرج طيرٌ وحشيٌّ مثقلٌ بنومِه، وزقزق بين صخورٍ تحت دارنا. فإذ بالغِشاوة التي أعمت بصيرتي تنقشع. فصرت ما أعبأ بنذيرِ المبشر. ورضيت أن

---

(١) البارة: عملةٌ عثمانية قديمة، وهي أقلُّ من القروش.

أرمي بنفسي إلىٰ المهالك التي توعدتني بها نُذُره؛ كأنْ أَضِلَّ، أو تفسُدَ إنجليزيتي. وهذا شرٌّ أحسبني قد وقعتُ فيه وانتهيت. ثم أيقنت أني لا يكون من طبعي أبدًا أن أفكر كما يفكر المبشر علىٰ الحقيقة، ولا أن أتكبر علىٰ أهل المشرق بعد ذلك. ولو قدَّرَ الله عليَّ ذلك لهلكت.

ثم قلتُ لرشيدٍ: «شُدَّ رِحالنا، ولننطلقْ من حيننا مُشَرِّقين قبلَ أن تَهُبَّ رِكابُ المبشر».

فجلس ساعةً لا حراك به، مكذبًا ما سمِعَتْه أُذُناه. ثم إذ به يُكِبُّ علىٰ يدي يقبلها ويقول: «الحمد لله!».

فسُرِّيَ عن سليمان وحَمِدَ الله مثلَ رشيدٍ وقال: «لم يغلبك النَّمِرُ الذي فيك، وما زالت في الدنيا بهجتها».

فضحكت فرحًا وقلت له: «رضيتُ أن أكون حمامةَ المسجد!».

ثم ما مرت خمسُ دقائقَ إلا ونحن علىٰ الخيلِ نؤمُّ مشرِقَ الشَّمسِ، وهي تحمَرُّ من وراءِ جبالِ مؤاب.

الباب الحادي عشر

الفارسُ الجوَّاب

رحلنا عن دمشقَ من عصرِ أمسِ، وبِتنا البارحةَ في خانٍ عظيمٍ تحسبه حِصنًا. وهو أولُ خانٍ في طريق الحجِّ تليهِ خاناتٌ كثيرة. ثم بعد أن ارتحلنا وسرنا ساعةً تذكر رشيدٌ أنه ترك وراءه رحلًا من رِحالنا. وكان متاعُ هذا الرحلِ لسليمان، فرافقَ رشيدًا ليردوه. أما أنا فمضيتُ رويدًا، وجلست أفتش عن ظُلَّة. وما كان في مدِّ بصري شيءٌ ظِلُّهُ أوسعُ من ظلِّ عِضٍّ متوسطة[1]، ما عدا الخان الذي آنستُ طيفَهُ الأسودَ المربع من بعيد. وامتد قُدَّامي قَفرٌ شاسعٌ حرُّ الكثبانِ، تموج حتىٰ الأفق[2]. وعن يمينه جبالٌ مُبهمةٌ مُزْرَقَّةٌ كأنها موجٌ، وعن شماله جبالٌ أعلىٰ منها وأشمخ، وبينهما كما بين المشرق والمغرب من البعد.

وبينما أنا أعلو كثيبًا وفرسي يُهَوِّدُ في مشيه، إذ بفارسٍ برزَ من قمة هذا الكثيبِ، لو رأيتَ هيأته لما قلتَ إلا إنه تَمثَّل من بطنِ كتابٍ عن الفروسية. عليه بُردةٌ ملونةٌ يحركها النسيم، وفي جيبِ رِكابه قناةٌ منصوبة. وكان يسير علىٰ رِسله حتىٰ وقع بصرُه عليَّ، فصاح صيحةً شَهَرَ معها رمحَهُ نحوي، وأرخىٰ أنفَ خُوذَتِهِ علىٰ وجهِهِ، ثم هجم عليَّ. ففَزِعْتُ فزعًا شديدًا؛ إذ لم أكن أحسن المبارزة، لكنَّ نفسي لم تطاوعني علىٰ ثَني عِنان فرسي والفرار. فأكملتُ سَيري كما كنتُ،

---

(١) نباتُ الشوك في العربية عِضٌّ وعِضاهٌ، فما كان له جِذعٌ كالسَّمُرِ والسدر فهو العِضاهُ، وما كان شُجَيرةً في الأرضِ كالشُّبرمِ والشِّبْرِق فهو العِضُّ.

(٢) حرُّ الرمل: خالِصُه الذي يخالطه شيء من حجارةٍ أو غيره.

غير أن قلبي واجفٌ، ونيتي -إن كانت لي نيةٌ- أن أنتهز الفرصة حتىٰ أميل عن حصاني وأنتزع منه رمحه، وأوكلت إلىٰ الله أن يثبتَ فرسي عند التصادم. لكنَّ أملي في الفلاح قصيرٌ، فما كنتُ أستبين شيئًا، حتىٰ انقطعت جلجلةُ خبط حوافرِ فرسه. واستبان حينئذٍ علىٰ قدرِ عشرِ خطوات كابحًا فرسَه، يضحك حتىٰ بدت نواجذه، ثم رفع قناته يحييني بها.

قال ساخرًا: «أرعبتك يا فرنجي!».

فقلتُ له: إنه خَسِئَ؛ فما كان مشعوذٌ شقيٌّ مثله ليرعبني، ثم أريته مسدسي الذي لم أتذكره إلىٰ أن انقشعَ عني الخوف. أعجبه المسدس، فسألنيه من حينه، ورددتُه في قِرابه.

أقرَّ قائلًا: «سلاحٌ رائعٌ»، ثم قال: «لكني مع ذلك أرعبتك».

فلويت شدقي وقلَّبتُ كفيَّ، آنِفًا من أن أمارِيَه، وهممت أن أجاوِزَه، لكنَّه عطف فرسَه وسار إلىٰ جنبي، يسائلني: مَن أنا؟ ومِن أي البلاد جئت؟ وما حاجتي التي حملتني علىٰ أن أؤمَّ الصحراءَ وحدي علىٰ هذه الحال؟ فأفرطتُ في الجفاء في كلِّ جوابٍ أجبته به، ولم يحرجه ويردعه ذلك ولو قليلًا. فلما عرف أنِّي يرافقني رجلان، أحدهما صاحب خبرة في الحروب، عزم عليَّ أن ينتظرهم معي حتىٰ يَلْحَقُونِ. فأردت أن أخوِّفه بأخبارِ رشيدٍ التي يبارز فيها رجالًا مبارزةً واحدةً فيذبحهم، فما زاده ذلك إلا إصرارًا علىٰ أن يلازمني، قائلًا: إنه لَيطلب الشرف بقَهرِ رجلٍ مثلِ هذا.

ثم قهقه وقال: «لكني -والله- أحسبك تكذب فيما تزعم يا أكرم الفرنجة. وما أظن هذا المحارب الذي أطنبتَ في مدحه إلا حضريًّا شقيًّا شجاعتُه من وراءِ جُدُر».

أحفظني قوله هذا، فزِدتُ في الكذب.

وأخَذْنَا في حديثنا هذا حتىٰ دنونا من جدارٍ مهدَّمٍ فيه بقيةٌ لها ظلٌّ يسع المرءَ ليستريح فيه. ترجل الفارس وربط حصانه، فهممت حينئذٍ أن أمضيَ لولا زعقةٌ زعقها، فنزلتُ عن فرسي وربطته اتقاءً للخوضِ في مخاصمة. استلقينا متقاربَينِ في تلك الظلة. وناولني قِربةَ ماءٍ خشنةً شربتُ منها شربةَ شرابٍ حميمٍ،

وطَعِمتُ فيه ريحةَ ماعزٍ. وشرِب هوَ من بعدي شربةً أطالَ فيها، ثم قال: «ها هم أصحابك».

نظرتُ فإذا نقطتان في أقصىٰ الأرضِ تموران. وما كنت أقدر أن أميز بينهما لبعدهما، إلا أن الفارس فرَّقَ بينهما وأحكَمَ نَعْتَهما لي.

قال: «لا شكَّ أن الشابَّ الذي استوىٰ علىٰ صهوة فرسه هو المحارب الذي ذكرتَه. وأما الآخر الذي اعتدل في الجِلسة واسترخىٰ، ففي مِشيته تبختر، وأحسبه قاضيًا أو باشا».

قلتُ له: إن سليمانَ رجلٌ متعلمٌ، ثم تركته يتكلم وأنا أتأمل هيئته.

وجدت هذا الشَّخصَ الذي تمثَّل من كتب الفروسية رثًّا عند التصفح؛ فمِعْطَفُه الملون ممزقٌ نَفَضَهُ البِلَىٰ[1]، ومن تحت معطفه درعٌ تقادم عهدها حتىٰ زال كثيرٌ من حِلَقها، وأُبدلت خروقًا رُقِّعت بإهاب، وهذه الرقاع يوشك بعضها أن يتفتق. وكانت سِنُّ هذا الفارسِ نحو ثلاث وعشرين، عسليُّ العينين، أسودُ اللحيةِ والشاربِ، تستشعر الشرَّ فيه. وكانَ والله أشعثَ أغبرَ ومع ذلك يتغطرس في حديثه. سَرَدَ لي نَسَبَه، وعدَّدَ زُمرةً من آبائه ما سمعتُ بهم قطُّ. فلما تبيَّن ذلك مُلِئَ قلبُه فزعًا بادئ الأمر، ثم ملئ شفقةً عليَّ لجهلي. وأسهب كذلك في ذكرِ نسب فرسه، وهو طويلٌ كطولِ نسبه.

لمَّا جاء صاحبايَ حسبتُهما والله يُخَلِّصانني من عناءِ هذا الفارس، لكنهما ما فعلا. بل جلَّ في أعينهم وجلَّتْ مزاعِمُه، وتَحَفَّوْا بِبعضٍ، علىٰ صورةٍ شتان بينها وبين تَعَالِيَّ في مخاطبته قبل مجيئهم. امتنع رشيدٌ عن مبارزته بأدب، وعزَّ عليَّ أن سليمانَ -وهو أسنُّنا وأعقلنا- أجابه إلىٰ دعوته؛ شريطةَ أن تؤجَّلَ المبارزة إلىٰ وقتٍ أحسنَ من هذا. ثم أخبرهما أنه -عَظُمَ جاهُهُ- سيرافقنا في ترحالنا، فرأيتهما سُرَّا لذلك.

لمَّا شكوت إلىٰ رشيدٍ خِداعَهُ، قال لي: «سينفعنا؛ فقبيلته تحكم قدرًا عظيمًا من هذه البلادِ. لكنِ اجعلِ المسدسَ معي؛ فذلك أحسنُ ما دام راكبًا معنا. فأكون أنا الذي رددتُه، لا أنتَ سعادتك، وهذا أليق».

---

(١) نفض اللباسُ: أي ذهب لون صبغه.

وكان هذا الفارسُ قد طلبَنِي المسدسَ ثلاث مراتٍ حتىٰ الساعة.

لما أمسينا وقارَبنا قريةً منتبِذةً في القَفر، بارزَ الفارسُ سليمانَ، وأبلىٰ كلُّ واحدٍ منهما بلاءً حسنًا، فباشر كلُّ واحدٍ صاحبَه الضربَ بجريدة. والجريدةُ: سَعَفَةُ نخلٍ طويلةٌ، يستعملونها بدل الرماح في مبارزاتِ الأصحاب. تدانىٰ البطلان في تواجههما، إلىٰ أن رَكَضَ أحدُهما فرسَه برجله، وهو سليمان، وولّىٰ هاربًا داخلَ ما جُعِلَ ساحةً لنزالهم. أما الثاني فحمل عليه وله نعيرٌ مفزعٌ يريدُ أن يحذِفَ الجريدةَ فتصيبَ المَرْمِيَّ علىٰ وجهٍ معين. واستمرَّا علىٰ حالهما تلك حتىٰ رمىٰ رميته، فانقلب بعدها الأمر وصار المُطارِدُ طريدةً.

أقر الفارسُ لسليمانَ بمهارتِه كارهًا، متَعَذِّرًا أن قُوَّتَه ما كانتِ اليوم علىٰ عهدها.

ثم سافر معنا بعد ذلك أيامًا عِدَّةً، وتبين لنا أنه خرجَ يطلب مغامراتٍ يخوضها، فلم يبالِ البتة أيَّ دربٍ سلك. خبَّرني أنَّ كلَّ قريةٍ كان فيها في السنين الخوالي منافسةٌ كلَّ جمعة، فيَفِدُ عليها فرسانٌ ليسوا من أهلها ليظهروا شوكتهم في القتال، وينالوا الشرفَ والصيت. لكن من شاءَ أن يُتَوَّجَ في زماننا الأعوجِ هذا، فيلزمه أن يخرجَ في الناس وينادي فيهم: «هل من مبارز؟»، أو يهين نفسه فيقصِدَ حانةً ويواعد فيها أحدًا للنزال.

ولربما رضيت عنه جملةً لولا أنه رجلٌ خَصِمٌ، ويرجو منا -لأنَّا أصحابُه- أن نخلِّصَهُ من كلِّ خصومةٍ دخل فيها بسبب عُنجُهيَّته. حتىٰ صرنا نَرِدُ القريةَ أو المدينةَ خائفين؛ فله جرأةٌ تلقي به إلىٰ المهالك من غير تدبُّرٍ، وربما كان بطلًا نصبر عليه لو ملَكَ بأسًا يضاهي جرأته وكان مهيبًا. لكنه ما أقحم نفسه في خصومةٍ قطُّ إلا رجعَ مغلوبًا مرغم الأنف، وقد أُثخِنَ ضربًا. ثم يجلس يحدثنا عن مفاخر العرب حتىٰ يغلبنا النوم.

وأنقذناه ليلةً في قريةٍ اسمُها مزاريب من علجين شركسيين أطالَ لسانه عليهما. وكادا يُصِمَّانِ صداهُ إلىٰ يومِ الدين لولا أن اعترضنا دونه. وما أقول: إنه كَفَرَ معروفنا، لا والله، بل أقسم ألا يهجرنا حتىٰ يجيئه الموت. وقسمه هذا ملأ قلوبنا خوفًا، فحتىٰ سليمانُ أيقنَ الآن أنْ لا نفعَ فيه. أما خازننا رشيدٌ فأبغضَ

احتقاره للمال. وكانت من عادته كذلك: أن يسألنا ما يعجبه من متاعنا، ويأخذه إن لم تُكَفَّ يده عنه ويُزجر. وكانت فَعلته هذه توقد في صدرِ رشيدٍ نارًا تلَظَّىٰ؛ لِمَا كان عنده من تقديسٍ لمتاعي القليل. وعرفنا من خُلُقِ الرجلِ أَنَّا أخلاؤه، وأنه يرىٰ نفسَه أشجع الشجعان وأكرم العربِ، ونفسُه فداءٌ لنا أبدًا. ولمثل هذا صار كلُّ معروف نبذله له حقيرًا لا يُقارن البتةَ بما ينعم علينا به في كلِّ يومٍ وفي كلِّ ساعة.

وبلغ السيلُ الزُّبَىٰ؛ فقد كنا أضحوكةَ الخانِ في مزاريبَ؛ لأن هذا البدوي الشقيَّ يسوسنا، وما هو إلا رجلٌ لقيناه عَرَضًا ونَشِبَ فينا. فضاق بنا ذرعنا وتآمرنا لنتخلص منه.

جلسنا نتآمرُ حتىٰ خرج سليمانُ بحيلةٍ؛ وهي أن نولِّيَ وجهةً ثانيةً، فنعطِف إلىٰ جبل الدروز. والدروزُ حَرْبٌ لكثيرٍ من قبائل البدو، لعل قبيلةَ هذا الرجل منها. وما دامت الحرب لم تضع أوزارها، فما كان بدويٌّ ليخاطر البتة بالنزول عليهم، اللهم إلا متنكرًا.

فلما خرجنا من المزاريبِ، أجملَ سليمانُ الثناءَ علىٰ الفارسِ وخبَّرَه بما وقعنا فيه من معضلةٍ حَزَبَتْنا؛ فقد دعاني صديقي لعيادته، وهو شيخ من سادات الدروز لازمَ الفراشَ لشدَّةِ وجعِهِ. وما يريد من الدنيا قبلَ أن يُقبضَ إلا أن يكحل ناظريه برؤيتي. فترنم رشيدٌ حينئذٍ بود شيخِ الدروز هذا لي مودة صادقة، وذكر أني قد اشتدَّ عليَّ غمِّي لداء الشيخ العضال.

وخلاصةُ القولِ أنَّا وجب علينا الرحيلُ من ساعتنا إلىٰ جبلِ الدروز. وما يدري - والله - ما وجدنا في أنفسنا لما تذكرنا أن في هذه الأرضِ هلكةً لفارس عربيٍّ مثلِه. أفنفارق إذًا حبيبنا وخليل أرواحنا؟ ثم أخبره سليمانُ أنَّا لما تصورنا هذا المآلَ بكينا كأننا صبية. وأنفسُنا تأبىٰ مفارقته، فَلَيُهْلِكَنَّنا ما نلقاه من وَجْدِ فَقدِهِ. وصار لزامًا أن نحتال حيلةً تمكن قُرَّةَ أعيننا من مرافقتنا من غير أن يعرض نفسه للمخاطر. وأعاننا الله علىٰ تدبيرِ خطةٍ عظيمةٍ قليلةِ المؤونةِ؛ وذلك أن يطِّرِحَ قناتَه ودرعَه، ثم يلبس لِبْسَةَ نصارىٰ، ويصير طباخنا.

فسَأَلَنا رشيدٌ: «وما حاجته في أن يُرىٰ منه أنه نصراني؟».

فاندفع سليمانُ للجواب وقال: «ما من طباخٍ يرافق رحالةً إنجليزيًّا إلا كان نصرانيًّا. ولن يخطر في بال أحدٍ أبدًا أن يجد بدويًّا في رداءِ نصراني».

فهمهم رشيدٌ كأنما يحدث نفسه وقال: «ينبغي لرجلٍ رفيعِ المكانة كمولاي أن يكون له طباخ».

فاضطرب وجهُ فارسِ الباديةِ حينئذٍ، وارتعب رعبًا ما رأيت مثله في وجه أحدٍ قطُّ. أفيكون هو -علىٰ جلال قدره- طباخًا؟ أيتزيًّا -وهو من نسل فلانٍ وفلانٍ- بزيٍّ حضريٍّ وضيعٍ كافر؟ أمَا لو أُشرِعَتْ أسنَّةُ الرماحِ إليه ولَقِيَ عشرين منها لكان أحسن عنده. فإنْ أبَيْنا إلا أن نقصدَ جبل الدروز، فلنقصده من دونه.

وجلس كلُّ واحدٍ منا يبثُّ الأسىٰ علىٰ فراقه، وهو يستمع إلينا ويلوي لنا شدقه، ولم يردَّ علىٰ شيءٍ من كلامنا. ثم بعد مدةٍ أومأ إليَّ أن تنحَّ لأناجِيَك، فلما بَعُدنا عن الأسماعِ قال لي:

«أفارقك الآن يا فرنجي، وأؤمُّ نجدًا طلبًا للمغامرات. وأعلمُ أنك تحبني؛ ولذلك يعز عليَّ أن أفارقك. أما صاحباك فسَفِلَةٌ نخر الحسدُ جسديهما، ولأبطشَنَّ بهما إن لقيتهما بعد يومنا هذا. أما أنتَ فإن سافرتَ ناحيةَ الجنوب والمشرق ومررتَ بالبلقاء، فبالله اذكرني، وسَلْ عن مَضَارِبِ خيمنا. ولتجدنَّ منا ترحيبًا وقِرًى يفوق كلَّ قِرىٰ يلقاك الدروزُ به. واعلم أني لن أنقطع عن الدعاء لك، وأنَّ فيَّ من شدة الأسىٰ ما لا يزول إلا بالرجوع إلىٰ لقائك. وأناشدك الله، أعطني هذا المسدس أذكرك به».

الباب الثاني عشر

النصراني المتعنت

كانت القبعات الأوربية نادرةً في ذاك الزمان إلا في كبارِ المدن، وكانت تصرف الأنظار إليها؛ لذلك كنتُ غالبًا أطَّرِحها، ويطَّرحها غيري ممن تَجزِمُ من وجوههم أنهم أوربيون. ولعلَّ أهل الحيِّ إن ساءَ أدبهم يحيون لابسَ القبعةِ بوابلٍ من الحجارة.

وكنتُ في عشيةٍ راكبًا بعوالي القدسِ في طريقٍ يزعمون أنها ممهدةٌ، ووافق أني سِرتُ وحدي لابسًا قبعة، فمررت برجلٍ لا مركبَ له قعد في ظل صخرةٍ إلىٰ جانب الطريق. وهو من نصارىٰ القدسِ، تعرف ذلك من نظرةٍ إليه. لكنِّي ما عرفتُ مِن لباسِه مِن أيِّ مذهبٍ هو. وكان لباسُه طربوشًا، ورداءَ رهبانٍ أسودَ، وسترةً إنجليزيةَ الطِّرازِ شديدةَ البِلَىٰ، وقميصَ صوفٍ أصفرَ، وحبلًا في طرفِهِ قُنزعةٌ لفَّهُ علىٰ رقبته كأنه ربطةُ عنق، وسراويلَ تركيةً فضفاضة، وجوربين أبيضين، ونعلين يُمَطَّان من عند الكعب. وجعل جنبَه هِراوةً أسندها إلىٰ الصخرة.

لما دنوتُ منه نهضَ وتلقاني بوجهٍ بشوشٍ باسمٍ، وانحنىٰ لي وقال: «مُسِّيتَ بالخيرِ! أظنك سيِّدًا إنجليزيًّا؟».

أقررتُ له بصدقِ ظنه، فاستأذنني أن يجاورني في المشيِ حتىٰ نجاوزَ قريةً ليست منا ببعيدة. وجزم لي أن أهلها من أشدِّ الناس فجورًا وعداوةً للنصارىٰ. أَذِنتُ له من حيني، فعَمَدَ إلىٰ عصاه وحملها، ثم سار إلىٰ جنبي مستفرغًا وُسعَهُ في المديح والثناء عليَّ وأطنبَ فيه.

وكانت القرية التي خشي مجيئَها ديارَ مسلمين فَسَقَةٍ يبغضون أهلَ الصلاحِ من النصارىٰ ويبطِشون بهم إذا قدروا. وقال لي: إنه ليرقُبُ اليوم الذي يتغلَّبُ فيه الإنجليزُ علىٰ هذا القُطرِ كلِّه، ويُنزِلُونَ هؤلاء الآثمين منازلهم التي يستحقونها تحتَ النصارىٰ. ثم ذكر لي رأيًا استقرَّ عليه بعد إنضاجٍ؛ وهو أن الإنجليز لو حكموا هذا العالَمَ كلَّه، لكانت تلك رحمةً من الله وفضلًا علىٰ بني آدم؛ فالإنجليزُ عنده أحسن الناس خُلُقًا، وأسواهم وأشدُّهم صلاحًا. وما كان يظنُّ أن ذنبًا قد اقتُرِف قطُّ في إنجلترة. ثم سألني[1]:

«هل **تكون** أنتَ **بروتاستنتي؟**».

فأجبته أني أتبعُ الكنيسةَ الإنجليزية.

فصاحَ: «إي، **الهمد** للرب! أنا كذلك **أكون** بروتاستنتيٌّ **مُأمَّد** (مُعَمَّد)».

وكان كأنما يحسب أن قَسَمي للكنيسةِ يجعلنا إخوة.

بدا لي مما حدثني به عن نفسه أنه مُنَصِّرٌ اشتغل بدعوة أهل بلاده الفَجَرَةِ إلىٰ دينِ الحقِّ. فحتىٰ النصارىٰ ممن هم تبعٌ للكنائس اليونانيةِ والروميةِ أخبرني أنهم كانوا في فجورٍ وضلالةٍ عمياء، ولو قَدَرُوا عليه لبطشوا به مثلَ المسلمين. ثم رفعَ بصرَه إلىٰ السماء واشتكىٰ لي أنه يلقىٰ في سعيه هذا عنتًا شديدًا. ثم تحسر علىٰ البلادِ، فما السبيلُ إلىٰ تطهيرها من هؤلاء الفَجَرَةِ كلِّهم إلا بتدميرها. وعَجِبَ لِمَ لَمْ يهلكهم الربُّ من قديمِ الدهر؟

قلتُ له: أخالفك؛ فأنا أحسبهم قومًا صالحين، لكنهم رجعيون. فما قلتُ قولي هذا إلا رَجَعَ عن رأيه إلىٰ رأيي في طرفةِ عينٍ، وقال:

«إي، ما أصدقك! آفتُهُم **الرَّجْئِيَّة**. ولن **يَصْلُهَ هَالُهم** إلا إذا أخذوا من نورِ الإنجيل ومائه **المَئِين**».

فقلتُ له: إنك تهذي؛ فضُرُّ المبشرين عندي أكبر من نفعهم. فرَجَعَ عن رأيه مرةً ثانيةً علىٰ استحياءٍ، وقال:

---

(١) حدَّثَ النصرانيُّ ابنَ بكثالَ في الأصلِ بإنجليزية رديئةٍ فيها لكنة ولحنٌ؛ فصنعت مثل ذلك في الترجمةِ لعل القارئ العربي يستشعر طرفةَ الأصل.

«ما **أسأدني** بالاسترسال في **الهديث مَأَ** سيِّدٍ من أشرافِ الإنجليزِ. والربُّ **يَأْلَمُ** أني لن أملَّ من **هديثك** ولو كلمتني النهار كله؛ فكلامك **لتيفٌ مليهٌ**، وكلُّه لم **أسمَأْ** به قطُّ».

ثم شرع يحدثني عن قسوة الإنجليز في معاملتهم لِمَن تنصَّرَ مِن أهلِ البلدِ مثلَه، وقصَّ عليَّ من قبيح فِعالهم أخبارًا كثيرةً يتذكرها. فما تمالكتُ أن عجِبتُ من سرعة تنقله في الرأي وذهابِ ماءِ وجههِ طلبًا لرضاي. خضنا في الكلامِ حتىٰ إذا قَرُبْنا من القرية التي خافها قالَ لي متوددًا:

«أنا لو أكون **وهدي** أكونُ خائفًا جدًّا. لكنْ لأني **مَأَكَ** لا أكون خائفًا. هؤلاء الفجار لا يجرؤون أن **يَأْتَدُوا أَلَىٰ** سيِّدٍ إنجليزي يلبس **القُبَّأَة، وتَهْمِيهِ** دول أوربة **الأظيمة**».

ما كدنا ندخلُ القريةَ إلا أبصَرَنَا صبيةٌ كانوا يلعبون بين صخورٍ خارجَ العمران، فلما لمحوا قبعتي رمونا بالحجارة، وأصابت واحدةٌ منها فرسي. فرفعت سوطي وعجلت إليهم، فولوا هاربين يصيحون في ذعر. نظرتُ ورائي أفتش عن صاحبي المخلصِ فما رأيت له أثرًا. فلما رجعتُ، وكنت أمشي الهوينىٰ؛ لأن الصبيةَ العفاريتَ قد اختبؤوا: وجدته منهالًا بأبرحِ الضربِ علىٰ صبيٍّ صغيرٍ عَثَرَ في فراره وفزعِهِ، وغلبه الخوف لما رأىٰ أن أصحابه تجاوزوه فلم يقدر أن يرجعَ فيقوم.

لاح علىٰ وجهِ هذا المُنَصِّرِ المحتشمِ شرٌّ لغلبته عليهم ما رأيت أشدَّ منه قطُّ. وطفق يضرب الصبيَّ كأنما يريد قتلَه، ويغمغم بلعنه، ويتلفَّتُ يمينًا وشمالًا؛ خشيةَ أن يطلُعَ علينا مسلم، فإن طلعَ فأحسب اللَّكْمَ ينقلب تَربيتًا في غمضة عين.

قال لي لما جئتهم: «هذا الصبي الفاجر، **يستَهِقُّ** أن نسلِّمَهُ إلىٰ دول أروبة **الأظيمة؛** لأنه رمىٰ **الهِجَارة ألىٰ** سيدٍ من أشراف الإنجليز».

أَمَرتُه أن يَدَعَهُ وإلا لقيَ مني أشدَّ مما لقيَ الصبيُّ منه. فأخذَتْهُ حفيظةٌ وبدا علىٰ وجهه أن غلظتي في الكلام عَظُمَت عليه، ثم تركَ فريسته. واجتهدتُ في أن أطيِّبَ خاطرَ الصبيِّ المكلومِ، فلم يَحْفِلْ بحديثي، بل اشتدَّ في عَدْوِهِ للقريةِ وهو يصدح بعويله.

ما فتئ المنصر يصيح في لهفة متلجلجًا: «الولد الفاجر، الأولاد الفجرة! من **الهَسْرَةِ** أنك تركته. فهو يمكن يذهب إلىٰ القرية **ويَرْجِئ** ذلك **أَلَيْنَا** بمصيبة. لكنك **شُجَاءٌ، وأَهْسَبُ** أن الإنجليز **أشجأُ** الناس».

حسبتُ مثلَه أنَّا قد نَجِدُ في القريةِ ما يَسُوءُنا؛ بيد أني عزمتُ علىٰ الإقدام حتىٰ لا يرىٰ هذا الهيَّابُ مني خوفًا. ثمَّ أخبرتُهُ أن صبيان إنجلترةَ النصرانيةِ يرمون الناسَ بالحجارة، فصرخَ مذعورًا متعجبًا.

ثم صاحَ في تضرُّعٍ كأنما يريد أن يستبقيَ آخرَ أوهامه: «لكنهم يرمونها **أَلىٰ** الكفار؟!».

فأجبته بكلامٍ معناه أنَّ أتباع الكنيسة الإنجليزية لا شكَّ في أنهم يبادرون بنفوسٍ طيبةٍ إلىٰ رجمِ المعمَّدين أو الكاثوليك الرومِ إن لبس واحدٌ من هؤلاء الهراطقة لباسًا مميزًا وهو بين ظهرانيهم. لكني -علىٰ كل حالٍ- أحسب أنَّ فَعلة الصبية إنما هي لسَجِيَّةٍ فيهم أن يرجموا كلَّ مخلوقٍ رأوه شاذًّا عنهم.

عبرنا القريةَ وهو ساكتٌ، فما أدري أأسكتته صدمةُ كلامي أم الرعب الذي سرىٰ في أحشائه؟ فأهلُ القريةِ رجالًا ونساءً جعلوا يرمقوننا بأبصارهم وتتجهَّمُنَا وجوهُهُم. وما اطمأنَّ جأشي فما زلت أترقَّبُ صولتَهُم علينا في كل خطوةٍ يخطوها فرسي.

لما بلغنا آخرَ القريةِ وأبصرتُ الخلاءَ وحمدتُ الله أن نجَّانا، شاء الله أن يقذفني صبيٌّ قريبٌ مني بحجرٍ عظيمٍ ضخم، وأصابت رميته تلك يدي، وآلمتني ألمًا أضرمَ الغيظ في صدري.

ناشدني صاحبي المذعور وقال: «أسألك بالله أن تمضيَ يا سيدي! لا **تَصْنَأْ** شيئًا! **فأُيونُ** رجالهم ترقبك».

أحسست به يولىٰ هاربًا ولم يُعقِّبْ، وأنا ممسكٌ بالصبيِّ المجرمِ أضربه وهو يستغيث بالقومِ ويضِجُّ بصياحه:

«يا أبتاه! يا أماه! يا مسلمين! أغيثوني!».

فأحاط بي في طرفةِ عينٍ فلاحون كالحةٌ وجوههم، وأغلظ لي أحدهم السؤالَ أنْ أخلِّي سبيلَه، ففعلت من حيني، وهيأتُ نفسي لمصيبةٍ ستنزل بي.

لكني ما رفعتُ يدي عنه إلا انهالت عليه يدُ هذا الرجلِ. فرجع الصبي يصيح، وما استغاث هذه المرة إلا بأمه، فما كانَ جلادُه إلا أباه.

تضرعتُ إليه أن يكفَّ يدَه عنه، فما فعلَ إلا بعد إبطاء.

ابتسمتُ آخرَ الأمرِ في وجوه الفلاحين العابسةِ المقمطرةِ فتبسموا إليَّ، وسألوا الله أن يمسيني بالخيرِ لمَّا ارتحلت.

وما رأيت ذاك المنصر الفَطِنَ بعد يومنا هذا، وأجزم أنه جرىٰ حتىٰ بلغ موضعًا من الأرض لا يسكنه إلا صالحو النصارىٰ. لكنَّ هيئةَ عَدْوِهِ حين فرَّ كانت كأنما يصيح في بني آدمَ قاطبةً من غيرِ النصارىٰ ويناديهم أنِ الحقوني.

الباب الثالث عشر

انتقام رشيد

نزلنا علىٰ صاحبٍ لي من بَرَاسِنَةِ الكنيسة، غيرَ أنه أبعدُ الناس عن طباعِ البراسنة. وسكنا في دارٍ له صغيرةٍ مليحةٍ بِقَريةِ دروزٍ في جبلِ لبنان. وكان خِلْوًا لا شُغلَ له إلا تَعَهُدَّ امرأةٍ مُبَشِّرَةٍ عجيبةٍ تبحبحت في الغِنىٰ، فيبذل الأسباب في ردها عن طيشها. خرجَ صاحبي هذا في حاجةٍ بضعةَ أسابيعَ وترك بيته في عهدتنا، وجاءنا في غيابه رجلٌ من براسنةِ الكنيسةِ نقيضُ صاحبي في طبعه؛ دحداحٌ، لحيته طويلةٌ بيضاء، وأنفه أشمٌّ، وعيناه زهراوان فيهما نور. وأتىٰ هذه الجبالَ في عملٍ، أو أحسبه توهم ذلك، فينظر في أحوال ما أنشأه التبشير من منشآت. وقد دعاه صاحبُ البيتِ مرةً أن ينزلَ عليه إذا مرَّ بهذه الديار. فعجب لما وجد البيت في عهدتنا، ومع أني كنتُ مُضَيِّفه علىٰ الحقيقةِ إلا أنه عاملنا كأنَّا طفيليون وكأن دارَنا الصغيرةَ دَيْرٌ للرهبان. ولما جاءَ العَشاءُ ورحبت بمقدمه ثم جلست لآكلَ معه، أَسَفَّ النظرَ إليَّ بحسنِ نيةٍ وفي عينيه استعجاب. وكان إذا أمرَ خادمي أغلظَ له. وسَمْتُه يبين عما في نفسه إبانةً جليةً كأنما يسألني: ما شأني هنا؟ وكنت إذا جئتُ أبين له تصامَّ عن جوابي.

تَحَلَّمتُ عن هذا الخطبِ العجيب، أما رشيدٌ فثارت حفيظته وتقطعت نفسه غيظًا، وزاد حفيظتَه هيجانًا أنْ رأىٰ هذا الذي ما فتئ يهيننا ذا قَبولٍ عند طالباتِ مدرسةِ التبشير القريبةِ وأستاذاتها. وكنت أرىٰ ضيفَنا هذا مِن أطهر الناسِ بطانةً، لولا حمقه وغطرسته. لكن رشيدًا تتبَّعَه في كل حاجةٍ سارَ فيها، وقصَّ عليَّ حالَ

هذا «المنافقِ» المسن، ولم يكن رشيدٌ يسميه إلا منافقًا. فحدثني أنه يختلف إلىٰ المدرسةِ كلَّ يومٍ، ويقبل طالباتِها، ويُجْلِسُ الحسناواتِ منهنَّ علىٰ فخِذِهِ، ويداعبُهنَّ سَفَهًا، ويحادثُهُنَّ ويقهقه معهُنَّ متصنعًا البلاهة، ويَهَبُهُنَّ من الحلوىٰ. فهو عندَهُنَّ أحلىٰ من العسل لشِدَّةِ فجورِ قصده؛ كما أخبرني رشيدٌ، وأحسب رشيدًا اعتقد ذلك اعتقادًا جازمًا، وأما عندنا فهو أشدُّ ما يكون عبوسًا وتجهمًا إذا رجعَ البيت. وفي عشية يومٍ نظر إليَّ رشيدٌ يرقب إيماءةً مني حتىٰ يقضي عليه بعد أن قال:

«ما أظنني إلا نسيتُ نظَّارتي في المدرسة؛ فهلَّا ذهبتَ وسألت عنها؟».

فلما قمت طائعًا لأخرجَ، وشوشَ خادمي لي:

«أنتَ أدرىٰ الناسِ بما يختلج في صدورنا إذا لقينا أحدًا من شاكلةِ هذا الرجل، وفي الفرنجة منهم كثير. لكنْ والله ما عادت النفس تطيق الصبر».

لم يكن في الدار إلا حجرةُ نوم واحدةٌ أنزَلْنا هذا البرسونَ فيها، ونِمْتُ أنا في الشُّرفةِ لأجله. لكنه مع ذلك تشكَّىٰ من ثيابٍ لي معلقةٍ في حجرته، ونَبَذَها إليَّ. فغضبت هُنيَّةً غضبًا شديدًا من فَعلته القبيحةِ هذه، فبادرني رشيدٌ يسألني: «ألستَ تبغض هذا المنافق؟».

قلتُ: «إي والله أبغضه!».

فرأيتُ رشيدًا سُرِّيَ عنه لما سمعَ حدَّةَ صوتي، ثم قالَ:

«أعرف رجلًا يقتله لنا بثلاثين جنيهًا إنجليزيًّا».

ولا جرمَ أنَّ من الواجبِ ها هنا أن أبين أنَّ البغضَ عندنا معاشرَ الإنجليز لا يبلغ الغايةَ ويستبد بعقولنا كبني العرب. فغِشاوةُ بُغضي له قد انقشعت حينئذٍ وصرتُ أضحك. أما رشيدٌ فتجلىٰ كسوفُ الخيبةِ علىٰ وجهه، وشهَقَ شهقةَ من ضاقت عليه الأرض، وما قال إلا: «أراحنا الله من شنيعِ تسلطه!».

لما رأىٰ رشيدٌ معاملةَ ضيفنا لي كأني عبدٌ عنده تجرَّعَها وما كاد يسيغها، كيفَ وهو مَن يبذل نفسه طلبًا لرِفعتي. وفي عشيَّةٍ مليحةٍ ناداني الضيف إليه وأنا جالسٌ مع بعض شيوخ القريةِ في أيكةِ زيتونٍ خلف الدار، ثم سألني سؤالًا مستنكَرًا، لمَّا عرَفَه رشيدٌ أقسم بالله أن هذا دليلٌ علىٰ انغماسه في الشرِّ والرذيلة.

وما رأيت البرسونَ قطُّ تلطفني إلا تلك المرة. وكان جالسًا علىٰ كرسيٍّ باسطًا كفيه علىٰ سترته، يشير بأطراف أصابعه وهو يكلمني وفيه سكينةُ القساوسة، وقال لي:

«عزمتُ أن أزور نساءً مبشراتٍ في ثلاثة مواضع مختلفة من هذه الجبال، ثم نقصد جِزّينَ لنرىٰ شَلَّالها. وأراك أحطتَ بهذه البلاد وأهلها خُبْرًا، وأتقنتَ لغتهم، فليتَكَ ترافقنا. وذاك الرجل الذي اسمه رشيدٌ له أن يقوم علىٰ خدمتنا كلِّنا».

وكنت أعلم أن رشيدًا بالبابِ يسترق السمع.

سألته: «كلِّنا؟ فكم أنتم إذًا؟».

تنحنح قُبَيْلَ أن يردَّ ثمَّ تكلم متلجلجًا وقالَ: «أنا ... هاه ... رأيتُ أن ترافقني بنتا آلِ كَرَمٍ، وأن أجعلك تلي أمرَ الصغيرة منهما. وما أظنهما إلا تستمتعان برحلتنا هذه». وبنات آل كرمٍ هما سارة، وهي شابَّةٌ شاميةُ الأصلِ، إنجليزيةُ التعليمِ، وهي القيِّمةُ علىٰ مدرسةِ البنات، وأختُها الصغيرةُ حبيبةُ التي ما تكاد تفارقها. وكلا البنتين بِكرٌ لم تُنكح.

وما دامت الوجهةُ جِزِّينَ فما في جِزِّينَ فندق، وليس لنا إلا أن نتزاحم جميعًا في حجرة أضيافِ القرية. فما يكون رأيُ أصحابي العربِ في فَعلتنا هذه وهم الذين ما تركوا صغيرةً ولا كبيرةً إلا عيَّبوها؟!

فأفصحتُ له عن رأيي، وبينت له ما قد يقعُ في أذهان أهلِ الجبلِ عنَّا جميعًا. وما أشاءُ أن ألطِّخَ عِرضَ أيِّ امرأةٍ، أو أُكْرَهَ علىٰ تزوجها تَعِسًا لِخزْيةٍ ذاعت بين الناس. أما هوَ فزائرٌ مردُّه إلىٰ بلاده، شيخًا ذا شيبةٍ، مقدسًا لمنصبه، ما يكاد يَضُرُّ عِرضَهُ الشريفَ شيءٌ عند الإنجليز. وأما الفتاتان فمردهما إلىٰ أهلِ الجبلِ ممن إذا عرفوا برعونتِهِنَّ ازْدَرَوْهُنَّ بعدها. وأما أنا ...

قاطعني وقال: «علىٰ رسلك! فما حدثتك إلا عن نزهةٍ يسيرة، وما أدري لأي شيءٍ أغلظتَ القولَ لي!».

فما كان جوابي إلا أن قلتُ: «قد بينتُ لك رأيي!».

ثم خرجتُ من عنده، وقصصت علىٰ رشيدٍ الخبرَ الذي قد عَرَفَه، فقالَ: نِعمَ ما قضيتَ، وأثنىٰ علىٰ صنيعي ثناءً جميلًا.

وما لقيت صاحبنا الأخرقَ هذا إلا بعد الفَطور من الغدِ، إذ جاءني يحدثني وفي صوته شيءٌ من الندم، فقال لي:

«تفكرت فيما قلتَه البارحةَ. وما كان والله في حِسباني ما يشيع في القرىٰ من القيل والقال. وقد رغِبتُ عن السَّيرِ إلىٰ جِزِّين. وخطر ببالي أني أقدر أن أستعمل فرسَك ما دمت لن تجيءَ معي. ولو تفضلت عليَّ وأعرتني إياه، لحفظنا بذلك قيمةَ كِراء فرسٍ وكُفينا مؤونته».

فاجأني -والله- بسؤاله، فقلتُ: «هُوَ لَك!»، ثم خرجتُ وأخبرت رشيدًا بما كسبت يدايَ. فطَفِقَ يقلبُ كفَّيه ويغلظ عليَّ اللائمة، ثم قالَ:

«ألا إنَّ في الأمر حسنةً؛ فشيطانٌ لا محالةَ قاتِلُه».

وقد ملكنا هذا الفرسَ شهورًا ما سمعتُ فيها رشيدًا قطُّ يسميه باسمه الذي اخترته له. وكثيرًا ما أنذرني أن اسمَهُ شؤمٌ علينا. لكن ما من شؤمٍ يوفي هذا المنافق حقَّه.

قلتُ لرشيدٍ: «ما أودُّ أن أعيرَهُ فرسي، بل أعلم علمَ اليقين أنه لن يحسن ركوبه. لكنَّه باغتني بسؤاله، فبمَ كنت أجيبه؟».

فقال لي: «أما إن كان الأمر كذلك فلا عليك، فما زال عندنا بقيَّةٌ نقولها. وسينعم فرسنا الحبيبُ اليوم بغُسلِه».

وفرسي حصانٌ عربيٌّ أدهمُ، لعوبٌ كهُرَيرةٍ، جموحٌ مثلها. وكان غَسْلُهُ عيدًا يحضره جيراننا علىٰ بكرة أبيهم. فَسِيقَ شيطانٌ إلىٰ الينبوعِ حيث حُشِرَ أهلُ القريةِ قاطبةً، وطفق يَنضِحُ أجرؤُهم عليه الماءَ من دلاءٍ لهم من حديد، وهو يَضْبِرُ ويركُل، وله صهيلٌ مفزعٌ دوَّىٰ صداهُ في الجبال. ثم أطلقَ رشيدٌ في هذه المرة عِنانَ شيطانٍ ختامًا لهذا المَحفِل، ففرَّ الناسُ وتفرقوا في كلِّ وجهٍ شَذَرَ مَذَرَ، وماجَ شيطانٌ رافعًا ذنَبَه، وعدا يتوقَّلُ في مدارجِ الجبلِ لا يلوي علىٰ شيءٍ حتىٰ يُنَفِّسَ عن نفسِهِ قبلَ أن يرجعَ إلىٰ مربِطِهِ، وكان أشبه ما يكون بالوَعِلِ من خِفَّتِه.

وقد رأىٰ ضيفُنا القِدِّيسُ المَحفِلَ بتمامه من شرفة الدارِ التي أطلَّتْ علىٰ العينِ وارتفعت عنها نحوَ ثلاثِمئةِ قدم. وكنتُ حينئذٍ واقفًا خلفه ولم أنطق بكلمةٍ، حتىٰ قالَ وفي صوته ذعرٌ صادق:

«ما هذه الدابة الشَّرِسة؟! هذا يُخشىٰ من شَرِّه، ولا بدَّ أن يُرمىٰ بالرصاص». فسألته حينئذٍ عن قصده.

فأشارَ إلىٰ شيطانٍ الذي كان يدور في الطريقِ تحتنا، وسألني بحقدٍ وغضب: «لمن هذه البهيمة المتوحشة؟».

فحَفَلتُ وقلتُ: «أوه، ذاك فرسي! وهو قَؤُودٌ وديع».

قال: «فرسك؟ أبالله عليك؟».

ثم دخلَ البيت وما زاد علىٰ قوله هذا. وخرجَ بعد ذلك إلىٰ مدرسةِ التبشير ليلقىٰ أستاذاتِها.

جاءني مساءً وقالَ: «لن يلزمني فرسك؛ فما كنت أدري أنه شديدُ البأسِ لمَّا ذكرت لك رغبتي في استعارته. وقد سألتُ في المدرسةِ الشيخَ قاسمًا أن يَكْتَرِي لي حصانًا؛ فأنا أخشىٰ أن يصيبَ فرسَكَ الكريمَ هذا شيءٌ وهو تحتَ يدي».

وكان هذا عذرَه الذي تعذر به.

شَهِدنا ارتحالَ الرَّهطِ بُكرةً، والراهب متهللُ الوجهِ فَرِحٌ، والفتاتان في اضطرابٍ، وثلاثتهم ركوبٌ علىٰ فرسٍ من أشدِّ الخيول انكسارَ حالٍ وكربًا. ورافقهم الشيخُ قاسمٌ عاملُ المدرسةِ علىٰ حمارٍ ليُشَيِّعَهُم. فلما رجعَ ومرَّ بدارِنا حدثه رشيدٌ ونَعَتَ عمله بنعتٍ قبيحٍ، فغلب النحيبُ علىٰ هذا الشيخ المسكين.

ثم قالَ لرشيد: «الله يعلم أني لو خُيِّرت ما اخترت هذا العمل، لكن ما حيلتي؟ فلا بُدَّ للمرء أن يسعىٰ للرزقِ، وعِرضُ أهلي أنا صائنه ما دمتُ أقدر».

فردَّ عليه رشيدٌ وقالَ: «أعانكَ الله! ولْتَربِطْ علىٰ جأشك؛ فإني سلبته عينيه».

لم أعرف حينئذٍ ما رمىٰ إليه رشيدٌ وأنا أسمع حديثهما من فوقِ الشرفةِ، لكنه عرضَ عليَّ آخرَ النهارِ نظارتين كانتا لضيفنا، شِدَّتُهما ضُبِطت مخصوصةً له، وليس لهذا القِدِّيسِ أن يبصر دقائِقَ الأشياء من غيرهما.

ثم تبسَّمَ ابتسامة منصورٍ مظفَّرٍ وقالَ: «ليسَ عنده غير هاتين. وكان يلبسها كلَّما نظرَ إلىٰ النساء نظرةَ ذي عَلَقٍ. والحمد لله أنَّ ضياعهما سيفسد عليه لذَّتَه».

الباب الرابع عشر

الكلب المشنوق

كانت لمُضَيِّفِنا الإنجليزيِّ كلبةٌ إسبانيةٌ لم يكن يطمئنُّ له جنبٌ بسبب كرم سلالتها. وباله منشغلٌ أبدًا بألَّا ينكِحها من ليس بكفؤ لها في النسب. فكان يهبُّ مغضبًا ليطرد كلابَ القريةِ الضالةَ إذا دبَّتْ لاهثةً حول البيت، وفيها كلبٌ خصَّهُ صاحبُنا بالعداوةِ، أشعثُ، فيه دُكنةٌ وبياضٌ، أضخمُ من أقرانه، وهو أقرب إلىٰ الدِّبَبَةِ منه إلىٰ كلِّ كلبٍ أبصرتُه قطُّ. وكانَ هاجسًا في صدرِ صاحبنا أطارَ نومَ الليالي عنه. ويا ليت الأمرَ اقتصر علىٰ الهواجس، بل كان هذا المُتَلَمِّسُ يَضِجُّ عند الدارِ ضجيجًا عظيمًا إذا أظلم الليل، فينحِب ويَعوِي، بل ويخربش ببراثنه بابَ المربِط. ثم لما ضاقت بالرجل المذاهبُ آخرَ الأمرِ، عَزَمَ علىٰ قتله.

فقعدنا ذاتَ ليلةٍ في الشرفة قابضينَ علىٰ مسدساتنا نترصد، وكلُّ من في القريةِ نيام. ثم ما لبث أن ظهر طيفُ كلبٍ يتسلل من بين أشجارِ الزيتون، فأطلقنا عليه الرصاص. وجلجلَ الصدىٰ في القريةِ والجبال، ونَقَّ الدَّجاجُ، ونَبَحَتِ الكلابُ، وخُيِّلَ لنا كذلك أنَّا سمعنا صياحَ النَّاسِ، حتىٰ حسِبنا أنَّ الحيَّ كلَّه سيخرج علينا. لكنَّ الليلَ رجع إليه سكونُه بعدَ وقتٍ يسيرٍ جلسنا فيه نترقب.

هَمَسَ رشيدٌ في هذه الظُّلمةِ: «ما أسمنه وأملحه!»، كأنما ظنَّ أنَّا أردنا أكلَه.

سألته: «أهو ميت؟».

قال: «جثةٌ هامدة».

فقال صاحبي: «إذًا فائتِ بحبلٍ واشنقه علىٰ الشرفة؛ لعل نَتَانَتَهُ تستدرج الثعالب».

فما كانت إلا هُنَيَّةٌ وجثته معلقةٌ بالشرفة، ونحن قعودٌ نتربص، وحديثنا المخافتة.

سمعنا ضُبَاحَ الثعالب من بستان الكَرْمِ القريب منا، وفيه عناقيد عنبٍ لم يحن بعدُ أوان قطفها، فردد مضيِّفُنا بالإنجليزية: «لِكَرْمِنَا أطرىٰ العِنَبْ»[1]، وذكرني بأسطورةِ الثعلب والعنب، التي بذلتُ وُسعي في قصِّها علىٰ رشيدٍ بالعربية، فضحك وهو يقول:

«أَعِنَبًا ناضجًا! أمَّا ثعالبُنا فلا تشتهي ناضجَ العنب وما تكاد تسرِقه. وأجزم أن هذا الشيطان ما أراد إلا حامضَ العنب، فلما لم يبلغه رآه أطيب العنب مطعمًا وأحسنه حموضةً، وهيتَ له إذ سالَ لعابه تشوقًا إليه».

فكُنَّا ونحن نسمعه كأنما فتح الله علينا بابًا جديدًا من الفهم لخبرِ الأولين هذا.

قعدنا بالمرصاد ساعةً أو ساعتين نهشُّ الذباب[2]، فلما لم يَجِئْ ثعلبٌ قمنا إلىٰ مضاجعنا، وذُهِلْنا عن الكلبِ المشنوق.

كانتِ الدارُ قريبةً من شارعٍ للعربات ينحدر إلىٰ المدينةِ من لدن أكبرِ قريةٍ في الجبلِ، ويمر بقرًى كثيرة. فلما طلع الفجرُ طفقت العربات تهبط في الطريقِ أفواجًا؛ وذلك لأنَّا كنا في صيفٍ، وفي الصيفِ يبيت الأغنياء بمساكن الجبالِ للتبرد. فلما اشتدت الشمسُ حتىٰ جلَّتِ الأرضَ للأبصارِ، ظهرَ الكلبُ العظيمُ ذو الدُّكنة والبياضِ معلَّقًا بالشُّرفة، والريحُ تديره هَونًا. فقذف المنظر الرعبَ في صدور المارَّة. أفتلك رايةٌ للحربِ أم هذا سحر؟ ثم وقَفَتْ عربةٌ في إثرِ عربة، وأصحابها يريدون أن يطلعوا علىٰ خبيئة هذا السر. لكنْ لم يكن ثمة أحدٌ ليجيب سؤالهم. فأنا ومضيفي، ومعنا رشيدٌ، رقودٌ ملء جفوننا داخلَ الدارِ. دقق

---

(١) هي أغنية من (أغاني سليمان) في إنجيلهم، وهذا بيتٌ ترجَمَتُه:

«تلكَ الثعالِبَ امْسكُوا، ثُعَيلَبَاتُ السبب بها فساد كرمنا، لكرمنا أطرىٰ العنب».

(٢) كنايةٌ عن الفراغِ، وما زالتِ العامة تستعملها.

السائلونَ النظرَ حولهم في الأرضِ، ثم في الدارِ التي أوصدنا مصاريعَ نوافذها، ثم في أشجارِ الزيتون التي أحاطت بالدار، ووقع بصرهم علىٰ شجرةٍ فوقها فراشٌ وعليه رجلٌ راقدٌ في ثيابٍ زُرق. وما كان ذاك إلا أمينًا طباخَنا، وقد نام هناك البارحةَ طلبًا للنسيم، ولم ينغص عليه نومَه صوتُ إطلاق الرصاص.

ثم أيقظوه برمي الحصىٰ عليه، فنزلَ لهم، ومَثَلَ بين أيديهم، وهو يعرُكُ عينيه اللتين أثقلهما النوم.

سألوه: «ما النذير الذي أردتموه بهذا الكلبِ المعلق؟».

فحدَّقَ مرتابًا إلىٰ ما عَجِبَ الناس منه، ثم قالَ: «هذه فَعلةٌ فعلها عدُوٌّ بياتًا وأنا نائم، وما يريد بها إلا إذلالي. لكن لا عليكم؛ فإني لمنتقمٌ منه قبل أن ينقضيَ النهار».

وذاع خبرُ هذا الأمر الغامض في القريةِ حتىٰ جاءَ كل رجلٍ قادرٍ ليطلع عليه، ويشير في الأمرِ برأيه.

وأجمعوا علىٰ أنَّ: «الكلبَ معروفٌ، واسمه بارود. وهو أحسن كلابِ الحي. وكان يحرس دارَ الشيخِ عليٍّ زمانًا، حتىٰ انصرف عنه ومالَ إلىٰ بيتِ الشيخِ سليم. وإنَّ قتلَ هذا الكلبِ لخطيئة». فوافقهم أمينٌ، وقال: «إي والله، ما أرذلها من خطيئة! لكني آخذٌ بثأري قبلَ أن تغرب الشمس».

ثمَّ نبَّهَ رشيدًا من نومِهِ صخبُ القومِ، فبَرَزَ لهم من المربط الذي عَهِدَ أن ينامَ فيه. وبيَّنَ لهم الحادثةَ بتمامها وهو يضحك. فثَقُلَ الأمرُ جدًّا علىٰ بعضِ أهل القرية، وشددوا علينا النكير. فذبَّ رشيدٌ عنَّا، وقال: إن الكلبَ لا صاحبَ له، وليسَ لأحدٍ من الأحياءِ أن يلومَ قَتَلَتَه، أما كلبةُ القسيسِ اللعوبُ الفارهةُ فهي له، وحقُّها عليه أن يدفعَ عنها من لا يصلح لها من العشاق. ثم عمد إلىٰ الجثة المعلقة فقطع حبلها لِتَقَعَ، وما اجترأ أحدٌ منهم علىٰ فعل ذلك حتىٰ الساعة. ثم انفضَّ الحشد وانصرف الناسُ رويدًا رويدًا.

ولَمَّا استيقظنا قبيل الثامنةِ صباحًا ما بقي أحدٌ من القومِ، فقصَّ علينا رشيدٌ الخبرَ ضاحكًا ونحن نفطر. وأجمعنا أنَّا كنا حمقىٰ لَمَّا تركنا الكلبَ معلقًا، ثم حسِبنا المسألةَ طُوِيَت علىٰ ذلك.

لكنَّا ما كدنا نفرغُ من أكلتنا إلا والبابُ المفتوحُ يُطرَق، فنظرنا فإذا بفلاحٍ طويلٍ مهيبٍ، دعوناه ليدخلَ، فوضع عصاه علىٰ عتبةِ الباب، وخلع نعليه، ودخل.

ثم أخبرنا أنَّ الكلبَ المقتولَ كلبُه، وكانَ يحبه كحبِّه عينيه، وامرأته، وعياله. وكان أجودَ كلاب القريةِ قاطبةً، ولم يُرَ في الأرضِ كلبٌ مثلُه؛ لشدة ندرة سلالته. وكانت لهم فيه منافعُ؛ فيحرس بيتَهم، ويعينهم علىٰ كلِّ ما ينوبهم من عمل. ثم ذكر الفلَّاحُ أن ثمَنَهُ خمسةُ جنيهات تركية، ولا بدَّ أن ندفعها له من حيننا، وإلا أبلغ الحكومة.

فقلتُ له: أعطيك بشلكًا[1]، وبيَّنْتُ له -قدرَ استطاعتي- أني لم أبالِ بوعيده. فجعل يسُبُّنا، ثم ما لبثَ أنِ انصرف علىٰ عجلةٍ لمَّا أقبل عليه رشيدٌ مكشرًا عن نابِه.

فما كانت عشرُ دقائقَ بعد أن ولَّىٰ حتىٰ جاءَ فلَّاحٌ غيره، يقسم بالله أن الكلبَ كلبُه، وقد احتكم إلىٰ أهلِ الحيِّ، وكاد يسترده لولا أن سَبَقَ إليه رَصاصُنَا. فكانت تلك عنده مصيبتين أنزلناهما به؛ مصيبةً في آماله، ومصيبةً في ماله. وقَدِمَ إلينا يسألنا جنيهًا إنجليزيًّا، وإلا رفع مظلمته إلىٰ والي العثمانيين، ولا بدَّ لنا أن نعلمَ أنَّ له فضلًا علىٰ الوالي.

قلتُ له: أعطيكَ بشلكًا، فانصرفَ مثل صاحبه مغضبًا يتميز من الغيظ.

فبينما نحن نحادث رشيدًا في هؤلاء الذين لقيناهم، إذ برجلٍ يطلع علينا أعظمَ منهم خَلقًا وأهيبَ جانبًا، وهو عريفُ القريةِ الشيخُ الصالحُ مصطفىٰ. وقال: إنه قد بلغه الخبرُ القبيحُ مِن سعي الرجلين في جباية مالِنا بوَعِيدِهم، فعَجِل إلينا حتىٰ نعلمَ أنه قد اشمأزَّ لمَّا رأىٰ خداعَهم الغرباءَ، وأخذته حفيظةٌ من فعلهم. وأقسم لنا أن الكلبَ كلبُه، وأنه فرح لرمينا إياه؛ لأنَّ رميَه سَرَّنا. وليس له بُغيةٌ إلا أن نُرَفِّهَ عن أنفسِنا. بل أشارَ علينا أن يجيئنا بمُهْرته حتىٰ نرميها بالرَّصاصِ ما دامَ قتلُ الحيوانات الأهلية محلَّ أُنسنا، ومهرته من أجود سلالات الخيل العربية الأصيلة.

---

(١) والبشلك: خمسة قروش.

فانزوينا حياءً من قولِه، وتمتمنا بما جادت به القريحةُ من اعتذارٍ، فلم يقبله منا. وقالَ لنا وقد تبسم ثغرُه، وقبض علىٰ لحيته البيضاء: «كلا! بلِ اصنعوا ما بدا لكم؛ فالله يعلم أن رضاكم واجبٌ علينا. بل مُرُوني، تجدوني ملبيًا -غفر الله لي- أقدم لكم بُنَيَّ حثيثًا لترموه بالرَّصاص. وإن في قلبي لإجلالًا لا غايةَ له لمن سَمَوْا عن أحكامِ سوقةِ هذه البلاد، ومن تحميهم دولُ أوربةَ العظيمةُ في كلِّ هاجسٍ تخالَجَ في صدورهم».

فلما سمعنا ثناءه هذا، وددنا أيامًا عديدةً لو تُسَوَّىٰ بنا الأرض.

الباب الخامس عشر

النـمـور

يَسْمُرُ عندنا في عشواتِ الشتاءِ فلاحونَ يجتمعون حول سراجنا ومدفأتنا، وأقسموا لنا أن بالجبالِ المجاورةِ لهم نمورًا. ولا جرم أنَّا لم نقبل زعمهم هذا علىٰ عواهنه، لكنَّ صاحبنا الإنجليزي أُوتِيَ غريزةً للفتك، فلما بلغتْ سمعَه هذه الشائعةُ من تواري صنفٍ عظيمٍ من السنوريات في الجبالِ كالنمرِ، رأىٰ في ذلك رياضةً يتسلىٰ بها تسليةً لم يجد مثلها قطُّ في الشام. فلما اطمأنَّ الجوُّ خرجنا نطلبها.

أما أنا فيعجبني أن أخرجَ بمسدسي في رحلاتٍ طويلةٍ وإن لم أكن أظفر فيها بصيدٍ البتة. ولطالما كان تَبَلُّدُ بديهتي عند سوانح الفرص موضعَ خيبةِ دلَّالي البلادِ وصياديها. فكنتُ مرةً في مِصْرَ، وتوغلت في غِمارِ نيلِها أميالًا، ويَجْدِفُ قاربي رجالٌ شدُّوا مآزرهم، إلىٰ أن رَسَونا ساعةً علىٰ جزيرةٍ تحُفُّهَا أعوادُ بُوصٍ. وجعلتُ أتأمل الشمسَ وهي تطلعُ، فتَحْمَرُّ أكَمَاتُ الباديةِ منها كأنها وردٌ، ومن ورائها سماءٌ مزدانةٌ بالنجوم، فدُهِشْتُ عن رمي البَطِّ وهو يُحَلِّقُ فوقنا، ولم أنتبه له إلا وأصحابي يهمسون إليَّ. وسعيت مرةً النهارَ كلَّه علىٰ طائر حَجَلٍ واحدٍ بينَ صخورِ عينِ الجَدْيِ، وليس لي في إدراكه رَجِيَّةٌ. ولقيتُ في وادي الأردنِّ عنتًا شديدًا وأنا أفتش عن الخنازير الوحشية، ولم أرَ ولو واحدًا منها. بيد أني كنت أبتهج من الكُمُونِ في هذه البراري في أغرب الساعاتِ، لا من اختبارِ بأسي وحِذْقي علىٰ مَنَعَةِ الحيوانات. وكنت أكره التنافسَ بصُوَرِه كلها. وأنا أبين لكم

هذا كلَّه حتىٰ تعلموا أني لما اندفعت طلبًا لهذه السباع فرِحًا، ما كان الدافع قتلَها.

خرجنا من قريتنا في صباحٍ ربيعيٍّ مليحٍ، يرافقنا رشيدٌ خادمي، وصيادٌ مشهورٌ في ذلك القُطرِ اسمُه محمد، وبغلانِ مُحَمَّلان بكلِّ ما يلزم رحالنا، يقودهما أمينٌ طبَّاخُ صاحبي. سِرنا إلىٰ الجبالِ رُكبانًا، قاصدين جماعةً منها شامخةً وسَطَها، جرداءَ، لونُها كلونِ الأسدِ، بل وهيئتها تكادُ تكونُ كعَجُزِهِ. فلما بلغنا هذه الجبالَ المتصدرةَ بعد إبطاءٍ وجدنا في حضيضها قريةً، سألنا أهلها عن النمور. فقالوا: امضوا فلم تبلغوا بعدُ، وأخذَنا رجلٌ منهم إلىٰ موضعٍ مشرفٍ أشارَ منه إلىٰ مكانهم بعينه، وهو شَظيَّةُ جَبَلٍ كأنما هي طافيةٌ علىٰ السرابِ في أقصىٰ الأرضِ. فسرنا يومًا ونصفَ يومٍ حتىٰ صرنا تحتها، ورجعنا نسأل أهلَ قريةٍ قريبةٍ منها. فكان جوابهم: «أوه، ما زال بينكم وبين النمور مسافةٌ شاسعة. أتبصرون تلكَ الرَّبوة؟»، وأشاروا كذلك إلىٰ جبلٍ ثانٍ في أقصىٰ الأرض. فمضينا، وضربنا أوتادنا عند القرية التي بعدهم؛ لأن الليلَ قد أقبل. فخرجَ إلينا أهلها ليعرفوا خبرنا، فسألناهم عن النمور.

فقالوا: «ويحكم! إن النمورَ لا تُطلَبُ هنا. ووالله إنكم تسيرون إلىٰ جهةٍ غير جهتهم. أفترون ذاك الجبل القاصي؟!».

وأشاروا إلىٰ الموضعِ الذي انطلقنا منه أولَ أمرنا.

فغضب صاحبنا الإنجليزي، أما رشيدٌ والصيَّادُ والطباخُ فأفرطوا في الضحك. لكنَّا أطبقنا علىٰ ألا نرجِع. فلما كان الغدُ فَتَكَ صاحبي بابنِ آوىٰ، ووَبَرَيْن، تعزَّىٰ بهم عن قِلَّةِ النمور. ثم أكملنا سيرنا قُدُمًا، نسألُ كلَّ قريةٍ في طريقنا عن مسألتنا. وما ولَّينا وجهنا قِبَلَ قريةٍ إلا جزمَ لنا أهلها أنَّ بالجبالِ نمورًا، بل وفي بعض القرىٰ أبىٰ شبابٌ ممن أرادوا اللهوَ وملكوا السلاحَ إلا مرافقتنا في رحلتنا، فعلمنا من مجيئهم أنهم هم أنفسهم مصدقون أنَّ بالجبالِ نمورًا. ومع أن صحبتهم بعَثَتْ في نفوسنا الأملَ، إلا أنها أتعبتنا؛ فقد دخَّنُوا سجائرنا، وأكلوا طعامنا.

ثم بلغنا سابعَ يومٍ في هذه المغامرةِ، وأبصرنا قُبيلَ المغربِ في رأسِ الجبلِ

قريةً موحشةً، ليسَ عندها شجرٌ، وإنما أتلامٌ[1] غيرُ خصبةٍ، في مَدارِجَ صغيرةٍ كأنما هي أجرافٌ تنحدر في الجبل.

أخبرني صاحبنا حينئذٍ أنه قد ملَّ من الهَيَمَانِ في الأرضِ طلبًا لما لا يُدرَك، بل وشِرارُ الخلقِ كلُّهم ملازمون لنا. وما عاد يصدق أن بالجبال نمورًا، وأنا مثلُه. فاتفقنا عازمين علىٰ أن نقفل من الغد. وبينما نحن كذلك إذ ينصب علينا أهلُ القريةِ الكئيبةِ يركُضُون خيولهم، ويصيحون فرحًا بتحيتنا، كأنما ذهبت أعمارهم وهم قعودٌ ينتظرون مقدمنا.

سألَنَا كِبارُ القوم وقد خفضوا جناحَ الذلِّ لنا: «ما تريدون؟».

فأجبناهم: «نمورًا! فأنْبِئْنَا يا شيخُ أحَوْلَكم نمور؟».

فرفع الشيخُ يديه إلىٰ السماءِ وانقلب وجهه كأنما قد طَرِبَ، وصاحَ: «تريدون النمورَ؟ فها هنا إذًا تنزلون والعينُ قريرة. نمور؟ إي والله! ما من موضعٍ إلا وهي فيه».

وأشارَ الشيوخُ إلىٰ الجبالِ في يقينٍ، ثم قال لنا رجالُهم ونساؤهم، بل وصبيانهم: «إي وربي، وما هو نمرٌ أو نمران، بل مئاتٌ وألوف. ولو طفِقَ أَشَرَهُ الخليقةِ يأكلها لربما كفَتْهُ أربعينَ سنة من كثرتها».

فتبسم صاحبنا بعد أن دامَ عبوسُه ثلاثةَ أيام، وقال: «أرانا ظفرنا بحاجتنا بعدَ إبطاء».

وضربنا خيامنا في بيدرِ القرية[2]؛ إذ ما كنا نبصر حولنا شيئًا منبسطًا غيره، اللهم إلا سقوف البيوت. وتعشىٰ معنا كبارُ القريةِ، وسامرونا إلىٰ قَرِيبٍ من نصفِ الليل، يحدثوننا عن النمور وسبيل صيدها. وقصوا علينا أخبارًا بعضها عجيبٌ يضيق الذهن عن تصديقه، لكنها لا تجاوز في الغرابةِ ما عهدنا من قصصٍ في هذا الباب. وجلس شيخٌ يحدثنا بما لا حاجة لنا بسماعه، فأنذرنا أشدَّ النذيرِ ألا نمسكها البتة من ذيولها.

---

(١) الأتلام: جمع التَّلَم؛ وهو: أخدود وخطٌّ في الأرض يكون للحرث. وما ارتفعَ بين الخطِّ والخطِّ مما يُمشىٰ عليه يسمىٰ: عَنَفَة.

(٢) البيدر: المكان الذي يجفف فيه القمح. قال الجوهري: «وأهل المدينة يسمون الموضع الذي يجفف فيه التمر لينشف: مربدًا، وهو المِسْطَح والجرين في لغة أهل نجد، والمربد للتمر كالبيدَر للحنطة».

ثم أغدق علينا من حكمته وقالَ: «لو كانت أفعىٰ لصلح لها ذلك؛ فإنك إذا حملتَ الأفعىٰ من ذيلها عجَزَتْ عن رفع نفسها إليك إلا بقدر نصفِ جسدها، أما النمر فقادرٌ علىٰ أن يرفع نفسه ويرتد عليك بجسده كلِّه، ولا يعجبه ذلك منك. فلكل حيوانٍ سبيله التي تصلح له».

ولا ريبَ أنهم أخلصوا النية لما جلسوا يُعَلِّموننا، وحرصوا علىٰ نفعنا ما استطاعوا. فلما أصبحنا وانطلقنا، رافَقَنا عريفُ القومِ مسافةً غيرَ قليلةٍ حتىٰ يُلَقِّنَ الدليلَ الذي أرسله معنا. وهو فتًى بليدُ المحيا، رأينا في وجهه الخوف. قال له الشيخُ: «ابتدئوا بما بين تلك الصخورِ، فإذا استنفدتموه، فاهبطوا إلىٰ الشِّعبِ، ثم توقَّلوا منه في الجبلِ واضربوا فيه حتىٰ تبلغوا شعفته. وإنكم إن شاء الله راجعون بخمسين نمرًا من هذه النمور التي أهلكت حرثنا».

فأعجَلَنَا الأملُ، وانطلقنا منشرحةً صدورنا. لا لرجائنا في صيدِ خمسينَ نَمِرًا، بل لتأميلنا أن يُقضىٰ الأمرُ الذي طالَ اختلافنا فيه، فنقف علىٰ كُنْهِ هذه النمورِ الشهيرةِ ونعرف حقيقتَها. فرأيُ رشيدٍ أنها ما نسميه في الإنجليزية: الليبارد[1]، وأما أنا فقولي: إنها الوُشُوق[2]، أما صاحبنا الإنجليزي فكان يحسبها -ساعةَ اليأسِ-: بناتِ عِرس[3]. وجلسنا النهارَ كلَّه نتصفح الجبالَ، وننتشر فيها حَذِرِينَ أشدَّ الحذرِ طاعةً لدليلنا، وما أبصرنا مع ذلك دابةً واحدةً من فصيلة السنانير. وأبصرنا علىٰ الصخرِ عَظَاءً جامدةً تتشمسُ، فلما أحست بمقدمنا انحدرت أسرعَ من لمح البرق. وكان في شظايا الجبل وكرانِ طارَ منهما صقرانِ عظيمانِ يرصُداننا وهما يُدَوِّمانِ فوقَ رؤوسنا ويَعِيفَانِ[4]، وظلُّهُما في عُرْضِ الجبل

---

(١) تسمي العجمُ النمورَ العربية المنمرة ليباردات، ولعل هذا الذي لبَّسَ علىٰ ابن بكثال وصاحبه. فمن الناس من يناظر كلمة تايقر بكلمة: نمر. والإنجليزي إذا سمع كلمة تايقر أو نمر، انصرف ذهنه إلىٰ السبع الهندي المخطط الذي تسميه العربُ ببرًا.

(٢) حيوان أصغر من الفهد، منمر حادُّ الأذنين.

(٣) بنات عرس: جمع ابن عرس؛ وهو: دويبةٌ بين الهرِّ والفأر.

(٤) التدويم: سكون جناح الطائرِ عند طيرانه؛ كفعلِ الحدأة. العَيف: حومان الطائرِ علىٰ الشيء وكأنما يريد أن يقع عليه؛ كفعل النسور مع الجيف.

كأنه نُكتتا حِبرٍ تموران. وبَرَزَت من غارٍ بومةٌ ناعِسَة. وأقسمَ رجلٌ من رهطنا أنه سمع حجَلَةً تصيح. وما مررنا يومَنا هذا بدابةٍ أكبرَ من الخنافس غير هذه التي ذكرتها.

رجعنا غاضبين إلىٰ خيامِنا بعد العصرِ، فتَلَقَّانا أهلُ القريةِ علىٰ بكرةِ أبيهم، يتصدرهم شيخُهم رافعًا صوتَه بالتحيةِ، يسأل الله أن نكون قد وجدنا في صيدنا ما يشفي غليلَنا، وأن نكونَ رجَعْنَا بنمورٍ كثيرةٍ تكفي أن يُولِمَ بها الناسُ. فلما أخبرناه أنَّا ما رأينا ولا نمرًا واحدًا، بَرَكَ علىٰ الفتىٰ الشقيِّ الذي أُرسِلَ معنا، وأحسبه همَّ بقتله لولا أن منعناه.

جعل يصيح عليه: «أفتشتَ في كلِّ موضعٍ أمرتك بتفتيشه؟ لَعَمْري أعلم أنك ما فعلتَ، ولو فعلتَ لرأوا النمور. فانظر إلىٰ وجوهنا سوَّدها تكاسُلُكَ وسَفَهك، أيها البهيمة السائبة!».

أوثق رجلان من رهطنا الشيخ بقوةٍ، فبَصَقَ من الحقدِ علىٰ الفتىٰ الباكي. وجلس الفتىٰ يقسم له بالله أنه أطاعَ وصيته بحذافيرها.

ما استطاع صاحبنا الإنجليزي أن يتكلم بالعربية؛ لفرطِ غضبه، فسألني أن أقول للشيخ: إنه كاذبٌ، وإنَّ مَثَلَ بلاده الخاويةِ من النمور، كمَثَلِ نفسِه الخاويةِ من الصدقِ. وعَضَدَ مقالتي هذه جماعةٌ من الفلاحين من رهطنا. فبدا علىٰ وجهِ الشيخِ العجب، وفزِع من ذلك أشدَّ الفزع.

وقال جازمًا: «تاللهِ فيها نمور وافرةٌ كما تشتهي نفسك».

فردَّ عليه صاحبنا بحقدٍ: «إذًا فاخرج وائتنا بها».

فقالَ الشيخُ السَّمْحُ -وقد وضع يُمناه علىٰ عمامته توقيرًا-: «علىٰ رأسي! سمعًا وطاعة».

حسِبْنَا ردَّهُ هذا من بابِ الأدب وحسب، وأن البساط قد طُوِيَ علىٰ ذلك. لكن لمَّا أصبح الصبحُ عجِبنا أشدَّ العجبِ إذ رأينا الشيخَ ومعه كلُّ قادرٍ من الرجالِ، بل وكثيرٌ من الصبيان، يَؤُمُّون الجبالَ، متنكبِّينَ القَنَا، متقلدين السيوفَ، مدججين بكلِّ ما ملكوه من أسلحة الأولين. وكانت نيتنا أن نشدَّ رحالنا ذاك اليوم، إلا أنَّا بقينا لنرىٰ ما يؤول إليه صيدُهم العجيب هذا.

انتشر أهلُ القريةِ يضربون في الجبال. وسمعنا صياحهم النهارَ كلَّه في أقصىٰ شَماليها، وإن كان فيها نمرٌ فلا جرم بعثوه من مرقده. لكنهم عادوا مع ذلك في العصر بخُفَّيْ حُنَيْنٍ، ووجوههم مُسْوَدَّةٌ كأنما توقعوا حقيقةً أنهم سيرجعون بخمسين نمرًا. وأعطاني رجلٌ منهم بومةً ميتةً كأنما يقول لي: إن سعيهم لم يَضِلَّ كلُّه، وما أظنها إلا نفس البومةِ التي أثرناها أمس.

تأوَّه الشيخُ آهةَ من انفطرَ قلبُهُ، وقال: «ما من نمور! وما أدري ما الذي أجلاها كلَّها! وما هذا إلا يوم نحس. خيبةٌ أعوذ بالله منها، وهذه حال الدنيا».

فضجَّ القومُ كلُّهم تحسرًا وعويلًا. ثم أشرقَ وجهه فجأةً، وقال: «لكن لو تكرمتم -يا أصحاب السعادة- علينا ولبثتم أسبوعًا أو أسبوعين، لرَجَعَتْ من غير شكٍّ».

الباب السادس عشر

التفاخر فالسقوط

كان في قلعةِ شيخ شيوخ الدروزِ حفلٌ عظيمٌ ولعبٌ بالخيلِ حفاوةً بمَقدم كبير قناصِلَةِ الإنجليز في الشام، وقد دُعِيتُ إليه؛ لأني إنجليزي. وبيننا وبين هذه القلعة مسيرةُ يومٍ ونصف، وبينما نحن نسير في صباحِ يومنا الثاني ولمَّا نغرِّبْ بعدُ عن ديارنا، حاذانا فرسانٌ قاصدين نفس وِجهتنا، حِسَانُ الرِّكبة، عليهم فاخرُ الثياب. حيَّوْنَا بأدبٍ، بيد أنهم لم يقاربونا؛ فغالِبهم علىٰ ظهور مُهَرَاتٍ، ونحن علىٰ ظهورِ حُصُنٍ، واجتماع هذين مِن أعظم ما يجلب المصائب، ويفضي إلىٰ الحرب.

سرنا وأطلنا المسير حتىٰ أدرَكَنا شابٌّ علىٰ ظهر حصانٍ، وحيَّانا بأحسن التحيات. وكنت أعرفه وألقاه أحيانًا، وهو ابنُ رجلٍ غنيٍّ له أرضٌ في وادٍ جوارنا، وما أحسب عيني وقعت قطُّ علىٰ بشرٍ أجمل منه صورةً. ألفيته في ذاك اليوم خاصَّةً يسر الناظرين. وضيئًا آدَمَ المحيَّا، عليه مسحةٌ من حُمرة، تلألأت عيناه الزهراوان تحتَ أهدابه الطويلة الكحيلة، ولمع ثغره الأبيض النضيد فرحًا ونشاطًا. كان عليه رداءٌ فيه خطوطٌ عريضةٌ قِرمزية وبيضاء، وقميصٌ أبيضُ مزركش رقيقُ النَّسجِ فوقه سترةٌ قِرمزية مُخْمَلَة، وسراويل فضفاضة لونها أعفرُ كعُفرةِ الظِّباء، ونعلان من صوف ناعم، وعلا ذلك كلَّه عِمامةٌ بيضاءُ كالثلج. وأما فرسه فكريمٌ صغيرُ السنِّ، ما فتئ يبهرنا برقصه، وصاحبه يحبس عليه عِنانَه. ثم خبَّرنا أن هذا الحصانَ حصانُه، هديةٌ من عمِّه، وهو خيرُ خيلٍ هذه الجبال. ثمَّ عقَّب

علىٰ كلامه من بابِ الأدب، وقال إن فرسي كذلك لا شكَّ من أكرم الخيلِ سلالةً، وأنشطها نَفَسًا.

أمَّلَ أن ينال السمعةَ والصيتَ في ذاك السباق بفضل جوادِه هذا، ويُعرفَ -إن يُسِّرَ له ذلك- عند كبيرِ القناصلةِ وامرأته.

قال لنا: «ودَّ أبي أن أجيءَ علىٰ فرسٍ غيرِ هذا، لكنِّي أحبه، وأنا به خبير. ولستُ أوفي نفسي حقَّها إلا علىٰ سرجه، وليس فرسي رستمُ يبلغ الغايةَ في الإحسانِ إلا وأنا خيَّالُه».

ثم ما أبصرنا أمامنا فرسًا إلا حدَّثَنَا عنه، وبيَّنَ عيبه. وقال: «لأبُذَّنَّهم كافةً إن شاء الله، أَوَلَسْتَ -سعادتك- ترىٰ جوادي خيرَ هذه الخيل؟».

فجزمت له بذلك، وقلت له: «مُناي فوزُك؛ لأني أعرفك وأحبك، ولا أعرف غيرك».

فقال: «لا ريبَ تعرف نفرًا منهم؛ فكلُّ أهلِ الجبلِ آتون إلىٰ هذا المحفل. أرعني سمعَكَ أعددهم لك رجلًا رجلًا»، ولا شكَّ أني عرفت بعض من ذكرهم حقَّ المعرفة.

ثم قالَ: «أفإن رأيتَ الحسنَ بنَ عليٍّ واستحسنتَ رِكبتَه، أما يقع في نفسك أنه خيرُنا؟».

فبرِئتُ من هذا التذبذب، وقلتُ: «كلا! لا والله. وإن كان الدعاءُ بالخيرِ يضمن الظَّفَرَ، فاعلم أني سأجعل لكَ دعائي كلَّه في محفل اليوم».

فقالَ -وقد غشيه الفرحُ كأنما تفضلت عليه بهديةٍ ثمينةٍ-: «كثَّرَ الله مالَك!».

بلغنا طريقًا متقنةَ الرَّصفِ والتمهيد تعلو خلالَ الحدائقِ حتىٰ تصل إلىٰ القريةِ، وتنتهي إلىٰ ميدانٍ أمامَ باب القلعة. احتشد الناس في هذه الطريقِ حتىٰ تلوَّنت بألوان لباسهم الكثيرة، ووقفوا فيها يربطون خيولهم بحلقاتٍ في الحيطان وثقوب. اقتادَ رشيدٌ فرسي وفرسَه، أما أنا فترجَّلْتُ ورقيت درجًا إلىٰ شَرَفٍ يشقه جَدولٌ ماؤه أبرد من الثلج، ويصب في الوادي في مصبٍّ بديعٍ، يكسر الحرَّ رذاذُه

وخريرُه. وإن هذا الماءَ المعينَ لأعظمُ ترفٍ في مثل هذه البلاد، وكان صاحب القلعةِ شديد الفخرِ بنَبْعِهَا.

قصدتُ بابًا تسكع عنده جندٌ وخدم، فأُنبئتُ أنَّ: «مولاهم ليس بالقلعة». وأشارَ واحدٌ من الجندِ إلىٰ أيكةٍ فوق الشلال مشرفةٍ علىٰ الميدان، جلسَ علىٰ كراسيَّ عندها خلقٌ كثيرٌ ممن يُشارُ إليهم بالبنان، في معاطفَ سودٍ وطرابيش. ثم جرىٰ هذا الجندي إليهم حتىٰ يعلمهم بمَقدمي. فما لبثت حتىٰ صرتُ من أهل ناديهم الذي لم تُرفع عنه الكلفة والحشمة، وطفقت أردُّ علىٰ تحياتهم المعهودة وتلطفهم في السؤال عن أحوالي.

طافوا علينا بالقهوةِ، ثم أُتيَ بصنوفٍ من العصيراتِ، فطبقِ طعام. وتكلم الزعماءُ من حولي عن الحصادِ، وأثمانِ الأراضي، وغلبتِ الخيلُ علىٰ حديثهم، ولا غَرْوَ فاليومَ يومُ خيل. ثم دوَّىٰ من الميدانِ حصانٌ لا ينقطعُ صهيلُه، مفجعٌ ينذر بالشر. ووالله إني أثْبَتُّ الصوتَ، وما صاحبه إلا فرسي شيطان. وكان صهيله مزعجًا قبيحًا، حتىٰ إن جماعةً من الوجهاء حولي اكفهرت وجوههم، وسألوا -وفي أصواتهم السُّخط-: «لمن هذا الفرس؟»، حتىٰ استحييت من ملكي له.

ثم ما لبث صاحب القلعة أن نادىٰ إليه خادمًا وهمس إليه، وأشار بيده إلىٰ حيث كان الصهيل. فانطلق الغلامُ يغُذُّ السيرَ، وما لبث أن رجع، ووشوش لسيده، فنظر سيده إليَّ وهو يومئ برأسه بوقار. ثم كلمني متلطفًا، وقال: «تقطعت نفسُ فرسِ سعادتكم نشاطًا، وإن الحشد ليهيجه. أفتأذن في أن يربط في موضع غير هذا؟».

وأحسستُ من لينه في الكلامِ ومبالغته فيه: أنِّي لو كنتُ من أهلِ البلادِ، لقالَ لي أنِ انقلع من ها هنا أنتَ وبهيمتك المسعورة.

فقمتُ من حيني إلىٰ فرسي لأتولىٰ أمره.

ساءَه قيامي وقالَ: «بالله عليكَ استرِح!».

رافقني خادمه، وقصدنا الميدانَ، فلما بلغناه أقبل علينا رشيدٌ يجري. ولعمري إن منظر شيطان كان حينئذٍ مفزعًا، يَخطِرُ بذنَبِه، ويُشعِّثُ عُرفَهُ، ويمزق

لِجامه، وشرِقَ الدمُ في عينيه. طفِقَ تارةً يضرب الجُدران بيديه كأنما يريد أن يتسلقها، ثم يرفس برجليه هائجًا منكسًا رأسه. ولم أكن أعرف عن الخيلِ عامةً شيئًا كثيرًا، إلا أني عرفت ذاك الفرسَ بعينه، وعرفني. فعمدتُ إليه مترفقًا، وكلمته، وفككت رباطه، وسقته من غيرِ ممانعةٍ منه، ورشيدٌ يقول للخادم: إن ذلك ما كان ليتسنىٰ لأحدٍ غيري. ثم ربطنا شيطانًا في آخر الميدان.

رجعتُ إلىٰ المرقبةِ ووجدتُ الأشرافَ قد قاموا من مقاعدهم ينظرون إلىٰ الشبابِ ممن أرادَ التلاعب بالخيلِ، وفيهم رفيقنا في السَّفرِ الشيخُ الفتيُّ عبدُ الحميد. وكانوا حينئذٍ في ساحةِ التنافس مع خيلهم. كلمني الذي وَلِيَني من الأكابرِ وقالَ متأدبًا:

«لا بدَّ أن تنزل –سعادتك– معهم. فلمَّا كان نزولهم إكرامًا لعاملِ إنجلترةَ، صارَ يجمل بك أن تنزل معهم. وأنتَ فارسٌ شديدُ الحِذقِ كما رأيتُ. فلله درُّكَ ما أحسن طريقتك في تسكين فرسك ذاك، وقد جلسنا نتذاكرها جميعًا. فاركب معهم!».

فما كان مني إلا أن استعذرتُ منه.

ولَعِبُ الخيلِ هذا غايته أن يظهر المرءُ بأسَه، وتقريبَ فرسِه كالمجنونِ وهو يعدو في دائرةٍ واسعةٍ حولَ غرضٍ ما، كعربةٍ مكشوفةٍ عليها أحد الأكابر، أو عروسان. ولا يبالون بما يعترضهم من عوارضَ، فيطيرون فوق الصخورِ والأخاديد، ويَنْصَبُّون من كل منحدرٍ خطير، وخيلُهم تُهمِجُ إهماجًا. وفي تراويحهم يشحنون مسدساتهم ويطلقون النارَ. وقد جربت هذا اللعب مرةً في عُرسِ صاحبٍ لي، ولم أُسَرَّ به البتة. مع أن فرسي أعجبه هذا اللهو، وصار من بعد ذلك يحاول أن يبتدئه من غيرِ داعٍ له.

فلما تذكرتُ عبدَ الحميدِ ورغبته في الثناءِ ذلك اليوم، قلتُ:

«ما فينا إلا خيَّالٌ واحدٌ؛ وهو عبدُ الحميدِ بنُ الشيخِ مصطفىٰ. وما نحن جميعًا قياسًا به إلا رَجَّالة».

وأشرتُ إلىٰ الفتىٰ المقصودِ بينهم وبيَّنته لجاري، وهو من ذوي السلطة والجاه في الجبالِ. فأثنىٰ علىٰ جمالِ صورتِه وهو راكبٌ علىٰ فرسه.

وقالَ موافقًا لي: «إي والله صدقتَ. فليس فيهم غيره!».

ثم انطلقوا وأبعدوا، وفيهم آلُ جنبلاطَ، وآلُ تَلحوقَ، وآل عبدِ الملكِ. عمائمهم بيضٌ ناصعة، وأرديتهم ملونةٌ تموجُ مع الرياح، وهم ركوبٌ علىٰ خيلٍ بارعةِ الزينة والحِلية. جلسنا سكوتًا ننتظرهم نصفَ ساعةٍ، أو أحسبها نحوًا من ذلك. حتىٰ سمعنا ضجيجَ إيابهم؛ من صراخٍ، وإطلاقِ نار. وأقسم بالله أني رأيتُ رجلًا علا بفرسه سقفَ بيتٍ في القريةِ من جهةٍ، ثم طَمَرَ من الجهة الثانية. وما لبثَ حشدٌ من الخيَّالةِ أن دخلوا الميدانَ مِلء أعنتهم يثيرونَ النَّقعَ في صياحٍ وإطلاقِ نارٍ أهوجَ. تقدمهم صاحبي عبدُ الحميدِ، وبدا كأنما هو مَلَكٌ ثائرٌ. ثم نظر إليَّ رافعًا بصره متبسمًا فرحًا بنصره، وكبح فرسَه فجأةً. فلما فعلَ ذهبَ ثباتُه، وكَبَا عن رأسِ فرسِه وباعَد. وكان ذلك إبَّانَ حضورِ العربةِ التي حملتْ كبيرَ القناصلةِ وامرأتَه وقد أشرقت أساريرهم. وكان يبعث العربةَ من مقدمتها قواصٌ مهيبٌ، ويجرها حصانان[1]. جريتُ إلىٰ عبدِ الحميد حتىٰ أساعده، ووجدتُ رجلًا سبقني إليه. واندفع من بينِ الخيلِ والغبارِ شيخٌ طويلٌ لباسه لباس الدروز، فوقع علىٰ الفتىٰ الشقيِّ يضربه في كتفيه، ويصبُّ علىٰ هامَتِهِ البهيَّة من اللَّعَنَاتِ صبًّا؛ فقد جرَّ العارَ علىٰ بيتٍ شريفٍ أمام هذا الملأ. وكان هذا الرجلُ أباه الشيخَ مصطفىٰ.

عاونتُ الناسَ علىٰ ردِّ الشيخِ، ثم هممت أن أرجع إلىٰ ابنه فأصَبِّرَهُ، لولا أن أبصرتُ فرسي شيطانًا مقبلًا ولجامه مقطوع. فوجَّهْتُ عزيمتي إلىٰ إمساكه فركوبه من غير حاجةٍ إلىٰ حزامه، فلما صرتُ عليه، حمدتُ الله؛ فقد انفلت أكثر من خمسين جوادًا من مرابطها في هذا الهيجان، وماجَتِ الخيلُ تهرول في كلِّ موضعٍ، وتتشاجر تشاجرًا يُرَوِّع المرءَ. ولم أزل أوجس في نفسي خيفةً من تشاجر الخيلِ، وليتها كانت تلك مشاجرةً واحدةً فحسب، بل وطيسًا حاميًا. وكلما انقضت دقيقةٌ فكَّ محدَثٌ من الخيلِ رباطه وأغار. وعرض لي في طريقي حصانان

---

(١) القواصون: جماعةٌ من الخدم يقفون علىٰ أبواب كبارِ الباشاواتِ، ولمنظرهم هيبةٌ؛ لفاخرِ ثيابهم، ولتطويلِهم شواربهم حتىٰ تصير كأنها حبالٌ طويلةٌ مجدولة.

غاضبان وقفا علىٰ أرجلهما يتلاكمان، كأنهما أسدٌ ووحيدُ قرن[1]، واندفعَ غلَيِّمٌ ابنُ عشرةٍ أو نحوِها يعدو حتىٰ صار بينهما، وقفز قفزةً أمسك فيها لجاميهما.

أفلَتُّ منهم بعد لَأْيٍ، ثم هبطت خلالَ القريةِ إلىٰ بطنِ الوادي، وفيه غيضةُ جَوْزٍ لها ظلٌّ طيِّبٌ، وعندها جدولٌ يجري. وألفاني رشيدٌ هناك آخرَ النهارِ، فنبَّأني أن غيابي أفزع الناس وأهلعهم، وأنَّ كبير القناصلة سأل عني هو وامرأتُه. فسألته أن يجلس ثمَّةَ مع الحِصَانَين، ورجعت مشيًا إلىٰ القلعة. وما بقيت فيها إلا ما لزمني لتأدية الواجب.

فلما خرجتُ إلىٰ الوادي، رأيتُ مِحَفَّةً تغادر الميدانَ محمولةً علىٰ حمارين[2]. وإلىٰ جوارها الشيخُ الغليظُ مصطفىٰ، وأما المضطجعُ في سريرِ المحفةِ فأظنه ابنه الوضَّاحَ عبدَ الحميد، وما كنت علىٰ يقينٍ تامٍّ من ذلك.

سألتُ الخادمَ الذي كان يسوق أول الحمارين إن كان سيده تأذىٰ أذًى شديدًا. فأجابني أنْ:

«نعم، كَسَرَ مرفقَه وكتِفَه وتَرقُوَتَه. لكنَّ هذا أمرٌ هيِّنٌ؛ فقد ألبسَ بيتَنا لباسَ الخِزْيِ!».

فسمعتُ حينئذٍ من المحفةِ صياحَ مكلومٍ يقول: «يا خيبةَ اليوم!».

---

(١) وهذه من أساطير الإنجليز القديمة؛ وهي أن وحيدَ قرنٍ، وهو حصانٌ له قرنٌ، صارع أسدًا علىٰ مُلك البلادِ، وهما قائمان علىٰ أرجلهما كبني آدم، وهذه القصة واردةٌ في أشعارهم، ومشهورةٌ حتىٰ الساعة.

(٢) المحفة: مركبٌ يشبه الهودج، تُحمَلُ عليه الملوك، وتحمل عليه النساء، ويحمل عليه المريض والمسافر.

الباب السابع عشر

الـفـاجـعـة

أبصرنا أمامنا علىٰ صخرةٍ برجًا خَرِبًا، لمَّا جَعَلَتِ الشمسُ تنغمس في البحرِ، واكتسىٰ عُرْضُ الجبلِ وصدوعُه وحيودُه رداءً كثيرَ الألوان. وكنا نفتش عن دارٍ مأهولةٍ عسىٰ أن نجد عند أهلها طعامًا ومبيتًا. ولظننا أن هذا البناء خاوٍ علىٰ عروشه كدنا نجاوزه، لولا أن آنسنا طيفَ امرأةٍ جالسة عنده في شمسِ العشيَّة.

وكنَّا حديثي عهدٍ بحادثةٍ عرَّفتنا أن القريةَ إن كانت في حِمىٰ مذهبٍ معينٍ، فلا بدَّ أن ننفِرَ منها؛ فمن الفضائل عند أهلِها ردُّ الأضياف. ففي الظهيرة من نفسِ يومِنا، أردنا أن نشتري طعامًا من قريةٍ فلَقِينا من أهلها أعجب السب. حتىٰ إن حَوَارِيَّ رشيدًا ما ذهب عنه غيظه بعد، وشُغِلَ عقله بالقِصاص. فلما رأىٰ البرجَ الخَرِبَ آهلًا، قالَ:

«إن أبىٰ هؤلاء أن يضيفونا، دخلنا عليهم قسرًا بغيرِ رحمة. فهم -كما ترىٰ- سكَّانٌ وحدهم، ولا نصيرَ لهم».

ثم سبقني إلىٰ البرجِ مستويًا علىٰ فرسه، رافعًا سوطَه.

وعجِبْتُ من المرأة الجالسةِ عند البرج؛ إذ لم تعبأ بقدوم رشيدٍ، فلما اقتربتُ منها رأيتُ أنها عجوزٌ عمياء. وما أظنها إلا صمَّاءَ كذلك؛ إذ لم يحركها صوتُ الحوافر، مع أنه أسمعَ شيخًا هَرِمًا في البيت فخرج لنا. ونَغَّصَ هذا الشيخُ علىٰ رشيدٍ تدبيرَه للقِصاص بقوله: «تفضلوا!».

فرددتُ عليه بما جرىٰ علىٰ الألسن: «أنتَ من يتفضل!»، ثم قلتُ له: «إنَّا طالبون الليلةَ قِراك».

فقالَ الشيخُ: «كلُّ ما عندي لكم!»، وأقبلَ علىٰ فرسي ليأخذ بلجامه، وأنا أترجَّلُ عنه. فنظرتُ إلىٰ وجهه وفيه غضونٌ، وكان كأنما قد عجنَه الزمانُ وطبع عليه الصبرَ والأسىٰ، وهذا أظهرُ ما يكون إذا تبسَّمَ، وما رأيته قطُّ إلا متبسمًا.

دخلتُ البرجَ، ثم نزلت من درجٍ بالٍ انتهىٰ بي إلىٰ رُكامٍ من لَبِنٍ مُهَدَّم.

فقال لي ساكنُ الدارِ من ورائي: «تفضل فامضِ!».

فلما تسنَّمتُ هذا العارضَ، صرت إلىٰ حُجْرةٍ فسيحة، ما فيها من الأثاث إلا فُرُشٌ منضودةٌ، وأغراضٌ للطِّبَاخة. وعجبتُ والله من نظافة الحجرة. ثم خرَّ الرجلُ علىٰ الأرضِ وطفق ينفخ في فحمٍ في مجمرة، وما لبثتْ أن فاحت في السرداب رائحةُ قهوةٍ تُطبَخ، ولا ريبَ أن ديدنهم فيما مضىٰ من الزمانِ طبخها ها هنا. ولهذا السرداب نافذةٌ واحدةٌ، عاليةٌ فوقَ رؤوسنا، لكنها إذا نظرتَ إليها من خارجِ الدارِ وجدتَها ما ارتفعت عن الأرضِ إلا قليلًا. وقد رأيتها لما خرجتُ أطلب رشيدًا الذي وجَّهه مضيفنا إلىٰ غارٍ عند البحرِ يودِعُ خيلَنا فيه. ومررت بالعجوزِ فإذا هي علىٰ حالها قاعدةٌ علىٰ البابِ لا تتحرك.

طُفتُ بالبرجِ فرأيتُ دونَه من جهةِ البرِّ حقولًا صغيرةً حسنةَ التسييج. ورأيتُ مَعَزًا مُعَقَّلَةً في رقعةٍ من عشبٍ بقرب الشاطئ. ونُشِّرَت علىٰ الحجارةِ شباكٌ حتىٰ تجف. فعرفتُ من ذلك كلِّه سبيلَ تدبير مضيفنا لمعاشه.

ولما رجعتُ إلىٰ باب البرجِ لَقِيَني رشيدٌ برِحالنا، فأومأ برأسه إلىٰ العجوزِ التي ما زالت قاعدةً ما بها حراكٌ، وقال: «هذه المرأة المسنة المسكينةُ مجنونةٌ، لكن لا يُخشىٰ منها أذًى؛ فلا تخف. وهم والله قومٌ طيبون، وإن كانت حالهم غريبة. فقد أنبأني أنها ما هي بأمه، ولا هي بزوجه، وليس بينه وبينها رحم. وهو مع ذلك يقوم عليها، مع شدَّةِ عجزها».

فما أتمَّ كلامَه إلا وربُّ البيتِ قد خرجَ قاصدًا المرأةَ، فأخذ بيدها وأقامها. ثم قالَ: «تفضلوا!» بنفسِ بشاشته وأدبه الذي لَقِينا به عند مقدمنا، كأنما كانت هي كذلك ضيفةً مُكْرَمة. فنزلنا جميعًا من الدرجِ المحطَّمِ إلىٰ السردابِ.

وقُرِّبَت إلينا أكلةٌ من خبزٍ وسمك، وأخذت المرأة منها قِسمها. وما جلس صاحبُ البيتِ حتىٰ شَبِعَتْ. ثم بَسَطَ لها فراشها بعد العشاء. وغسل الآنيةَ، فما رجع وجلس إلينا إلا وقد رقدت المرأة. وأوقِدَ فتيلان فتراءت من نورِهما ظلالٌ في القبوِ، وقد أسلِكَا في قطعةٍ من دِسامٍ تطفو فوقَ قدحِ زيتٍ وماء[1]. ثم إذ بصيحةٍ من آخرِ الحجرة باغتتني أنا ورشيدًا حتىٰ وَثَبْنَا.

فقالَ مضيفنا: «لا عليكما! فهي تحلُم. وأوه لهذه المرأة ما أشقاها! فأسأل الله أن يجزيَ طِيبها خيرًا في الآخرةِ، ويعوضها عن كلِّ بلاءٍ صبرت عليه في الدنيا».

فسأله رشيدٌ: «أفيكون لنا أن نسألك عن خبرها؟».

فتكلَّف الشيخُ التبسمَ وهو ينظر إليَّ، كأنما يقولُ: «ذلكم خبرٌ محزن، أفحقًّا تريدون سماعه؟».

أومأت برأسي مخبتًا أنْ نعم، فزفر زفرةً شديدةً، ثم أخذ يقص الخبر، فقال:

«قبلَ سنينَ عددًا، وليس لي أن أدري كم عدُّها الآنَ، فمذ سكنتُ ها هنا والأيام تتصرم وما أحس بها ولا أحصيها. علىٰ كل حالٍ، كانَ لأحدِ زعماءِ الباديةِ ابنٌ أحبَّ ابنةَ عدوه، وحيُّنا وحيُّهم قطعا حبالَ الوصل التي كانت بينهما. لكنَّ هذا الأمير الفتيَّ الذي أحدثكم عنه كان يتلمَّسُ لقاءَ هذه الفتاةِ سِرًّا. حتىٰ إنَّا لنسير ركبانًا بين دورِ حيِّها، فيلقي بنفسه ونفسي إلىٰ التهلكة. وحتىٰ يتبين لكم الأمر، فأنا أخوه من الرضاعة، لكني لست من أشراف الباديةِ نسبًا؛ ولذلك أسير في خدمته علىٰ ما جرت به العادةُ، كأنما أنا حارسه وعَضُدُهُ».

«وكلا القبيلتين من قبائل العرب التي لها قريةٌ تَرجِع إليها، ولا يتركون مع ذلك عِيشَةَ الأولين من ضربٍ في الأرضِ وحرب. وقرية قومنا في أطرافِ البلقاء، وقريتها في شمالِ البلادِ جهةَ حوران. ولم تكن مراكزُ الجندِ الأتراكِ حينئذٍ تجاوز

---

[1] الدِّسام: هو السِّدادُ الذي يُسدُّ به رأسُ القارورة، وهو مشهورٌ في زماننا في قوارير العصير وقوارير الخمر.

الأردنَّ، فما كان يحكم البلادَ إلا أعرافُ القبائل وتناحرُها. مع أني نُبِّئْتُ أن البلاد صارت الآن آمنةً لمن أراد السفر».

«ولم يكن للمتحابَّيْنِ سبيلٌ يُرأَبُ بها الصدع الذي شقَّتْهُ أعرافُ القوم بينهما. وقد ذهب عقلُ أخي من الرضاعةِ صبابةً إلىٰ هذه البنتِ، فأجمع أمره علىٰ أن يفرَّ بها من عند أهلها خُلْسةً إلىٰ البلادِ الآمنة المطمئنة. ولحبي إياه، أثنيتُ علىٰ كلِّ عزيمةٍ عزمها. أما الأميرةُ أمينةُ، فكانت مماثلةً له في الحماسةِ؛ إذ هي ابنةُ عظيمٍ من سادات البدو. فخَرَجَتْ بليلٍ من قريةِ أبيها علىٰ ظهرِ خيرِ مُهَرِ الحيِّ، وليس معها إلا خادمة واحدة. وكنت أنا ومولاي نرقبها عند بئرٍ من الآبار. ثم ادَّلجنا جميعًا، موقنين أن القبيلتين ستطلبانا. سرنا جهةَ الولاياتِ حيثُ للعثمانيين قانونٌ وسلطانٌ نحتمي به. ولم يكن للأميرةِ أمينةَ جَلَدُ الرجالِ، ولَقِيَتْ فتاتها من سفرنا هذا نَصَبًا. فلزمنا أن نراعي ضعفهُنَّ، وقد ظهرَ عليهن أنهن لن يقدرن علىٰ المُضِيِّ قُدُمًا من غير استرواح».

«ولم يكن بيننا وبين أقرب مراكز الترك إلا مسيرةُ يومٍ قصير، ولو وصلنا إليه لكنا إن شاء الله في حرم آمن. فاعتصمنا بزريبةٍ، وناموا جميعًا. وجلستُ أنا أحرسهم. ثم آنستُ عجاجةً تسطعُ في الأُفُقِ، فأيقظتُ مولاي وقلت: «جاء طُلَّابنا!»، فرمىٰ ببصره الأميرةَ وفتاتها، وقد استثقلت بهن المضاجع من النَّصَب».

«ثم قالَ: (لا تصنع شيئًا! فلسنا نقدر أن نفرَّ. توارَ عنهم، لعلهم يجاوزوننا من غير أن تدركنا أبصارهم)».

«وكاد ذلك يكون فيجاوزوننا -والعلم عند اللهِ- لولا أن صَهَلَتْ خيلُنا، تصيح بخيلهم».

وقلَّبَ الشيخُ كفيه، ثم غطَّىٰ بهما عينيه، وقال:

«لستُ أقدر -ما دامت السماوات والأرض وحدا الليلُ النهارَ- أن أعرف كلَّ ما وقع بعد ذلك. لكنَّا قاتلناهم، وقاتلت الأميرة معنا، فاستلت مني سيفًا لبسته بجنبي. وأخَّرت جسارتُها الأجلَ شيئًا قليلًا؛ لأن من أغاروا علينا كانوا رجالَ أبيها، فخافوا أن يصيبها مكروه. لكنَّ الأجل وافانا، وقد سبق إلىٰ علمنا أولَ الأمرِ أنه لا بدَّ واقع. فرأيتهم وهم يذبحون مولايَ، وأنا مطروحٌ علىٰ

الأرضِ لا حيلةَ لي، مثخنٌ بجراحي، لكني كنت أعقِلُ كلَّ شيءٍ. وقطَّعوا جسده من فورهم إِرْبًا إِرْبًا، ونصبوا كلَّ بَضعةٍ منه علىٰ سِنانِ رمح. وعايَنَتِ الأميرةُ المشهدَ بتمامه، وقد أُوثِقَ كِتافها، وجُرِحَ وجهها. أما وَصِيفَتُها فكانت جثةً هامدةً، حسبتها حينئذٍ ميتةً، وكنت قد وُعِدتُ بها عروسًا لي. ثمَّ أقبلَ الأميرُ ومعه رمحٌ عظيمٌ، أظنه أرادَ قتلَ ابنتِه به. بيد أنه ما تقدم إلا دوَّىٰ صياحٌ شديدٌ، ثم اشتبكت معركةٌ ثانيةٌ، سمعتُ فيها شعارَ قبيلتنا[1]. فشدَّ والدُ مولاي علىٰ عدوه القديمِ علىٰ حين غرةٍ، وكان قد تبعنا كذلك ليعاقبنا. وكانت الغَلَبَةُ يومئذٍ له، وتبدد شملُ العرب الآخرين، وولوا الأدبار. فانطلق في إثرهم أكرمُ أبطالنا، وتخلفت جماعةٌ من الفجار حتىٰ ينكِّلوا بسيدتي الشقيَّةِ ويدنسوا عِرضها. وحاولتُ أن أنهضَ لأنقذها منهم، لكني ما استطعتُ أن أقومَ علىٰ ما بذلت من جهدٍ، وفاضت روحي، وأنا صريعٌ هامدٌ كالجَنائز. وأحمد الله؛ فما أنا حيٌّ الساعةَ إلا لذلك!».

«وما كان قتالٌ عظيمٌ ليقع علىٰ مقربةٍ من البلادِ المحصنة من غير أن يبلغ ولاتَها الخبرُ. فلما كان الغدُ جاءَ عشرةٌ من الجند الأتراكِ إلىٰ حيث كنا، متقلدين البنادقَ، يقودهم عريفهم. فعثروا علينا، وحملوا من نجا منا إلىٰ مأمن. وكانت حالُ الأميرة علىٰ ما عاينتم بأنفسكم، إلا أنها كانت شابةً إذ ذاك وهي الآن عجوز. أما وصيفَتُهَا، فنَجَت أيضًا، وما مسَّها سوء. وذلك من ستر الله عليها أنْ كانت مطروحةً بالأرضِ هامدةً، حتىٰ ظُنَّ أنها ميتةٌ فتُرِكَت. فلما برئت جراحي، تزوجتها».

«وكان في خبرنا هذا فاجعة شديدة أوىٰ لنا الخلقُ أجمعين بسببها. فأجارَ الأميرةَ الوالي بنفسه، وأنزلها مع حُرَمِه. لكنها ما كانت لتسعد في المدينة، ولا في هذه الحال من العيش، فباتت تتقلب علىٰ الجمر، وتتقطع ولهًا. وحزِنَتْ عليها زوجتي التي ما فتئت تزورها كلَّ يومٍ. ولما رأيتُ أن الأمر كما قالت، قصدتُ الوالي أستأذنه أن أتكفل بها. فأذعنَ لمَّا رأىٰ شقاءها في بيته. وطُفنا في

(١) الشعار: علامةٌ، أو كلامٌ يصيحون به حتىٰ يُعرفوا به في الحرب. ومن شعار المسلمين: قولهم في غزوة بدرٍ: «أَحَدٌ أَحَد»، وفي غزوة أُحُدٍ: «أَمِت أَمِت»، وفي غزوة الأحزابِ: «حم لا ينصرون».

هذه الحاضرةِ الآمنة شهورًا طِوَالًا، ما رأينا فيها من الناسِ إلا لُطفًا؛ لرأفتهم بنا؛ فخَبَرُنا معروفٌ عندهم. حتىٰ بلغنا آخرَ سيرنا أطلالًا علىٰ شاطئ البحرِ، طابَتْ لسيدتنا؛ وذلك لأنَّ الجبالَ ارتفعت كأنها سُورٌ بينها وبين البلدةِ التي أذهبت نفسَها حسراتٍ، وهذا ما رأته زوجتي. وما أظن هذا إلا قبل ثلاثين سنة، ولم تخرج وتضرب في الأرض بعد هذا قط».

«وتوفيت زوجتي، ودفنتها جوارَ الشاطئ. ثم خَلَفتها في قضاءِ حوائج سيدتنا. وأهل هذه الأرض يكُفُّون أذاهم عنا، علىٰ خبثهم. فهم يحسبون أنَّ عُقَدًا قد نُفِثَت لنا. وما فتئت أدعو الله أن يبقيني بعد سيدتي؛ فأنَّىٰ لهذه المسكينة أن تعيشَ وحدها؟ وما زال الله يمن علينا بتوفيق عظيمٍ من عنده، فله الحمد علىٰ كلِّ شيء!».

فتكلم رشيدٌ في الخبرِ متعجبًا رافعًا صوتَه، وقد انصرفَ عقله بالكلية إلىٰ الواقعة المفجعة التي عليها مدارُ القصة. فما ذكرَ كلمةَ ثناءٍ واحدةً أو تعجبٍ من بَذلِ مضيفنا لنفسه، وعدَّهُ أمرًا لا يُستغرَب. ومنعني خُلُقُه هذا الذي رأيته منه من أن أتلفظ بكلامٍ تعزيةٍ وإشفاقٍ كان علىٰ طرف لساني، وأحمد الله أني ما نطقت به؛ فقد كانَ من الوقاحةِ بمكانٍ، ولو قيلَ لأهلِ المشرق لاستسخفوه؛ فليسوا يُحسون كما نُحِسُّ.

فلما تمَّ الخبرُ، أوينا إلىٰ فُرُشنا.

الباب الثامن عشر
بَشْطِرمَة

جعل القمرُ يلقي نورَه علىٰ بساتينِ دِمَشْقَ، فيكون لها ظلٌّ خفيفُ السواد. مع أنَّ النهارَ ما زالت فيه بقية، وما زال في السماء ضياءٌ في جهةِ المغربِ وراءَ الشَّجر. وكنا جلوسًا علىٰ مقاعدَ تحتَ شجرةِ لوزٍ، وإلىٰ جنبنا جدولٌ يجري وله خريرٌ حَسَن. وأُفعِمَ الهواءُ بأريجِ زهرٍ لسنا نبصره. وكان من ورائنا حانوتٌ، عُلِّقَ ببابه المقوسِ فانوسٌ صغيرٌ موقَدٌ، بدا في الغسق كأنه عينٌ فذَّةٌ صفراء.

وكنا قد توسطنا المجلسَ وأحاط بنا الناس، وذلك دأبنا إذا صَحِبنَا سليمان. فكان صوتُه كالدُّفِّ يَجُرُّهم إلينا، ولحديثه سلطانٌ يبقيهم حوالينا. وصوته هذا فخمٌ، له تنغيمٌ مُحكَمٌ، يَعِدُ السامِعَ بحكمةٍ تفضي إلىٰ الضحك. وكان يتخير غالبًا لحديثه مسألةً من مسائلِ الأخلاقِ أو الدِّين، ويبين مرادَه بما ينتقيه من نوادرَ عرفها من طول تجرِبته وسَعة خبرته. وقد ذكر لنا أنه سافرَ إلىٰ آخرِ الأرض، وخالط الإنسَ، بل وخالطَ الجِنَّ والغُول. وسافر كذلك إلىٰ أوربةَ أكثر من مرةٍ، وعرفَ شوارعَ باريسَ ولندن. وكنَّا - لعلةٍ لا أعرفها - لا يعترضنا في صدقِ قِصَصِهِ شكٌّ البتة؛ فجَرْسُ صوتِه خلَّاب. وكان المرءُ منَّا يعقل أنَّ أخباره - علىٰ شدَّةِ غرابتها - صحيحةٌ في ذاتِ نفسها بصورةٍ لا ندركها. وشاءَ أن يحدثنا هذه المرة في الذنبِ والبراءة منه، والحسناتِ والسيئاتِ، وأثرِها في نجاةِ المرء من عقابِ الآخرة. فأبانَ عن رأيٍ له في المسألةِ، فانبعثت في الحَلْقةِ غمغمةٌ يُعرف منها الموافقة. ورأيه أنَّ أعظمَ الرغائبِ التي تُعوِزُ ابنَ آدمَ إذا عبرَ سبيلَه في هذه الدنيا: النيةُ الصالحة، وإن ساءَ عمله أو حَبِط.

وقالَ: «لأنْ تكذبَ ونيتك صالحةٌ خيرٌ من أن تصدق ونيتك فاسدة».

فقطع خادمي رشيدٌ عليه كلامَه بمَثَلٍ، وكان يحسن قولَ الأمثالِ، فقالَ: «الكذبُ مِلْحُ الرجالِ، والعيبُ علىٰ مَن يُصَدِّق!».

فلم يلتفت سليمانُ إلىٰ مقاطعته، وأكمل كلامه فقال:

«ولَذنبٌ تقترفه عن غفلةٍ، أهونُ من ذَنْبٍ تدبره وتَكِيدُه».

فقالَ شيخٌ من الحاضرينَ: «كلا يا حبيبي! فالذنبُ هو الذنب، قضىٰ ذلكَ ربُّنا الأعلىٰ. وواجبُ المرء أن يجتنبه. وإن أوقع المرءُ الضُّرَّ بسبيلِ منجاته يومَ القيامةِ، فإن الضُّرَّ واحدٌ كيفما أتاه. فإن قطعتُ يدي، أيكون جُرحُها خفيفًا، أم يكون شديدًا - وهذا الراجح - لأني قطعتها من غير تدبر؟».

فانصرفتْ أعينُ الناسِ إلىٰ هذا المُنْكِرِ، وغمغموا استحسانًا لمقالته. وما كانت صورته تستبين من الغسق.

أقرَرْتُ ما جادَ به من الرأيِ، فزادَ ذلك الشيخَ جرأةً، وضحك وقالَ:

«ألا بِئسَ الكذبُ، وبئس القتلُ، وبِئْسَتِ السرقة! لَحا الله هذه النية العجيبةَ التي لا يدرك كُنهها عامةُ الناسِ، ولا يفهمونها».

فجدَّ سليمانُ غايةَ الجدِّ وهبَّ يلحن بحجته، وهذا ديدنه أبدًا إذا خُولِف. فقال: «كلا، أرعني سمعك! فما أدركتَ فحوىٰ كلامي كلِّه؛ فالذي قلتُه إن المرءَ يتوكل علىٰ الله العليِّ، ولا يسرفُ علىٰ نفسه بالتفكيرِ في الأمرِ -من قبلِ أن يفعلَه- كيفَ يفعلُه. فلربما أنشأ في صدرِه نيةً خبيثةً إن فكَّرَ في الأمر قبل فعلِه؛ فنفسُ الإنسانِ جُبِلَت علىٰ الخطأ. فذَرهُ يتفكر في الأمرِ بعد فعله؛ حتىٰ يتعلمَ مجانبةَ هذه المصايد فيما استقبل من عمره، ويزيدَ بالتوبةِ والاستغفار الأعمالَ الصالحةَ في ميزانِ حسناتِه. والناس تؤتىٰ الحكمةَ من ذنوبِها، لا مِن أعمالها الصالحة. وعِلمُ الناسِ بذنوبِهم، ومعرفتهم أنهم لربما كانوا علىٰ شفا حفرةٍ من الذنبِ يوشكون أن يقعوا فيه: تَحفَظُهُمْ من الاغترار بصلاحهم».

فتبسم المنكِرُ ضاحكًا من كلامه، وقالَ: «لعل في قولك من الصحة مقدارَ حبةٍ من شعيرٍ، لكنها لا تكفي لجعلِ الذنبِ صلاحًا، ولا لنَسخِ الشريعةِ المقدسة».

فلم يبالِ سليمانُ بقولِه، وأكملَ كلامَه وقالَ: «عندي نادرةٌ تبين لكَ قصدي».

«وُلِّيَ قاضٍ جديدٌ بالمدينة المقدسة. فلما أرادَ أن يركبَ البحرَ إليها من إسطنبولَ حتىٰ يتقلد عمَلَه، وجعلَ يجهز السفينةَ، جاءَه في المرفأ يهوديٌّ يعرفه. فأجَلَّهُ، وسأله متلطفًا أن يُوصِلَ إلىٰ ولدِه بالمدينة المقدسة زِنْبِيلًا فيه بَسْطِرمَة. واليهودُ تسمي المدينةَ المقدسةَ في لغتها: أورشليم. أما البسطرمةُ فكلكم يعرفها. لحمٌ مُقدَّدٌ مُمَلَّحٌ، غايةٌ في اللَّذَّة. وهذه أكلةٌ شَغَفَ التركَ حبُّها. فأجابه القاضي إلىٰ سؤاله بصدرٍ رحب، وأمر خازِنَهُ أن يأخذ الزِّنبيلَ، ويستودعه مترفقًا مع سائرِ المتاع. ثم انصرف اليهودي، وسافر القاضي ومن معه حتىٰ وصلوا إلىٰ وجهتهم. فوجدوا عند وصولهم شابًّا يهوديًّا يستخبر الناسَ حثيثًا عن زنبيلِ بسطرمة، وكان القاضي قد نَسِيَ أمرَه، فصاحَ: (إي والله! أعطيته فتايَ ليحفظه)».

«ثم نادىٰ غلامَه هذا، وأمره أن يسلِّمَ زنبيلَ البسطرمة إلىٰ الشابِّ اليهوديِّ الواقفِ عندهم. فنَكَسَ الغلامُ رأسَه، وضمَّ يديه إلىٰ صدرِه، وقالَ: (اغفر لي يا مولاي! الزنبيل موجود، أما البسطرمة فكانت لذيذةً جدًّا، حتىٰ إني ما أكلتُ منها لقمةً إلا وددتُ أن أستزيد؛ فأكلتها كلَّها في سفرِنا حتىٰ ما بقي منها شيء. وأريدُ أن أعطيَ هذا الشابَّ اليهوديَّ ثَمَنَها)».

«رأىٰ القاضي أنَّ خادمَه أنْصَفَ اليهوديَّ فيما عَرَضَ له، إلا أن اليهوديَّ جُنَّ منه. فوَثَبَ علىٰ رَقَبةِ الفتىٰ، وجلدَ به الأرضَ، وأرادَ أن يمزِّقَ جسدَه بأسنانه وأظافيرِه ويجتثَّ روحَه. فاستغاثَ القاضي بمن حوله، وما استطاعوا أن يجرُّوا اليهوديَّ عن ضحِيَّتِه إلا بشق الأنفس. فلما فعلوا سأله القاضي:

(بالله عليك لِمَ صُلْتَ علىٰ خادمي بهذه الصورةِ المسعورة؟).

«فردَّ اليهوديُّ وما زالَ مُرْبَدَّ الوجهِ من الغيظِ، وأشارَ بإِصبَعِه السمينةِ إلىٰ الخادمِ الذي قامَ من الأرضِ، وقالَ: (احتوىٰ هذا الرجلُ علىٰ جدي!)».

«فصاح به القاضي: (ما هذا الذي تقولُه؟ فَسِّرْ لنا كلامَك!)».

«فقالَ اليهوديُّ: (توفيَ جدي بإسطنبولَ قبلَ ثلاثةِ أسابيعَ يا ذا الجلالةِ والسعادةِ. وكانت أعزَّ أمانيه أن يُدفَنَ بالمدينة المقدسة قريبًا من ساحةِ الحشرِ يومَ

القيامةِ[1]، ونحن ذريته، فإنجازُ أمنيته حقٌّ له علينا. لكنْ أنَّىٰ يكون لنا أن ننجزها له؟ أسألك باللهِ أنَّىٰ لنا أن نَبَرَّه؟ فما من ملَّاحٍ -سواءٌ كان مسلمًا أو نصرانيًّا- يقبلُ أن يحملَ جنازةَ يهوديٍّ في سفينته إلا أن يُعطىٰ وزنَها ذهبًا. ونحن قومٌ فقراء. ولا يُقدر البتة علىٰ حمله في البَرِّ. فعَمَدَ والدايَ بإسطنبولَ إلىٰ أعضائه الميتةِ، وذرُّوا عليها الملحَ ليحفظها، وصنعوا منها بسطرمة، ثم أرسلوها ها هنا علىٰ الصورةِ التي عرفتَها، ثم تلا ذلك أن خادمك اقترفَ أشنع الجرائم. ناشدتُكَ الله أن تأمُرَ به فيُقتلَ، فيُدفَنَ في التابوتِ الذي أعددناه؛ حتىٰ ننجز لجدي أعزَّ أمانيه)».

«أما الخازنُ فكان أقربَ إلىٰ الأمواتِ منه إلىٰ الأحياءِ لمَّا سَمِعَ الخبرَ. فشقَّ جيبَه، وخرَّ إلىٰ الأرضِ كالمغشيِّ عليه».

«وأجابَ القاضي الشابَّ اليهوديَّ بالحكمةِ فقالَ: (لكَ ثمنُ زِنبيلِ بسطرمة من خادمي هذا، ولا شيءَ غيرُه. أما خادمي فكلُّ مالِكَ حقٌّ له. فأيُّ مالٍ يعوِّضُه عن الخوفِ الذي لن يفارِقَه مِن أنه لربما بُعِثَ في الآخرةِ ممتزجًا بجدِّكَ الكريمِ وهما واحدٌ لا يَنْفَكَّان؟ أقولُ لك: اذهب! ولا تجرُؤ علىٰ الدنوِّ من هذا الرجلِ أبدًا، وإلا أمضيتُ هذا الحكمَ فيك واستصفيتُ مالَكَ[2]. أما الخازنُ . .)».

فقطع الناسُ عليه القصةَ يصيحونَ: «مسكين! مسكين!».

وقال رجلٌ من القومِ: «أكلتُ مرةً لحمَ خنزير خطأً، لكنَّ بلوىٰ هذا الرجل أفظع وأشنع!».

وقالَ خصمُ سليمانَ: «لا شكَّ في أنه حَكَمَ عليه لسرقتِه البسطرمة. فأنبئنا أيها الراوي ما فَعَلَ بعد ذلك؟».

فأكملَ سليمان: «كان الخازنُ إلىٰ تلك الساعةِ من أشدِّ الناسِ فِسقًا، وأنا بذلك زعيمٌ؛ فإني أعرفه مذ كانَ صبيًّا. ثم انقلبَ حاله بعد يومه ذاك وصارَ أتقىٰ

---

(١) في الأرضِ المقدسةِ وادٍ تعتقد اليهودُ أن الساعةَ تقوم منه، واسمه: وادي قِدْرُونَ، أو: يهوشافاط بلغةِ يهود.

(٢) أصفىٰ الحاكمُ أو الأمير مالَ الرجلِ واستصفاه: أي أخذه كلَّه بالسلطان. ومن ذلك قولُ البُحتُريِّ:

فـالـرأيُ كـلُّ الـرأيِ فـي قـتـلِـه ... بـالـسـيـفِ، واسـتـصـفـاءِ أمـوالِـه

الناس. وما فتئ يذكر جُرمَه هذا ويحزن عليه، وعدَّ نفسَه بهيمةً دَنِسةً حتىٰ توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ودُفِنَ في المدينة المقدسة كما أرادَ اليهودي. وما خطَرَ ببالِه قطُّ إلا صالحُ العملِ من غيرِ أن يرقُبَ عليه جزاءً؛ لأنه يعلم أنه ما من عملٍ يطهره. فغدا أشدَّ الناسِ تواضعًا وأصلحهم من بعد كِبْرٍ وفسوق؛ ولهذا وشبهه قلتُ: إن الرجلَ خيرٌ له أن يتفكر في ذنوبه بعد اقترافها لا قبلها».

فقالُ خصيمه: «ونِيَّته؟ ما قولُك في نيته يا سيدي؟ لم يحسن النيةَ؛ فقد سرق!».

فردَّ عليه سليمانُ بقوله: «ما جاوَزَتْ نيتُه زِنبيلَ بسطرمة، أما اليهوديُّ فمصادفةٌ لا تسرُّ أحدًا، وليس يلحق الفتىٰ منها ذنبٌ. وهذا أمرٌ جَلِيٌّ، لكني لم أقدِر علىٰ تبيينه له قطُّ مع جلائه ومع أني كنتُ أجادله فيهِ. ولا شكَّ في أمرٍ واحدٍ يُظهِرُ لكم مكانةَ النيَّةِ الطيبة، لم يقصدِ الرجلُ إلا أن يأكل زنبيلَ بسطرمة، فلما أكل اليهوديَّ ذَهَبَتْ نفسُه حَسَرَاتٍ، وصارَ إمامًا في التُّقىٰ كأنما نَزَلَ من السماء. ولو قصد أكلَهُ لما وَجَدَ تلك الحسرةَ العظيمة. فما قولكم؟».

فوافقه الناسُ قاطبةً علىٰ قولِه.

الباب التاسع عشر

الدليلُ الحَاذِق

ما رأيت من قدرةِ سليمانَ في الدَّلالةِ إلا شيئًا قليلًا، مع أني سمعت عنها شيئًا كثيرًا منه ومن غيره. وكانَ مَن استوطن الشامَ مِن الإنجليزِ وعرَفَهُ عدَّه رجلًا مُرِيبًا. وذلك يتبين من تَكرار تحذيرهم إيايَ من الإفراطِ في الثقةِ به. ولم تعجبهم جميعًا -كما راقتني- حكمتُه وأسلوبُه الفذُّ في بثِّ هذه الحكمةِ. وليست من محاسن سليمانَ توقيرُ غيرِه من الخلقِ إذا عاملهم. أما السائحون فَهُم إما محبٌّ له أشدَّ الحبِّ، وإما خلافُ ذلك، وقد تبينتُ ذلك من شهاداتٍ كثيرةٍ كتبوها له أراني إياها. غيرَ أني لم أرَ أحدًا منهم يقولُ: إن سليمانَ لا يحسن صنعته.

ومع أنه كان طَلْقَ اللسانِ واضحَ المعاني إذا تكلم بالإنجليزية، إلا أن أسماعَ الإنجليزِ تستغربُ لغتَه أحيانًا. فقد قرأ الإنجيل في مدارسِ التبشير الألمانية، وصارَ يحدثنا عن **حمارِ بِليامَ، وسِمسُون العظيم** وكان الأولىٰ أن يقولَ: **عَيْرَ بالامَ، وسَامسُون**. وكان إذا أرادَ ذِكْرَ قِرَبِ الماءِ التي نسميها في الإنجليزية: **قِربَة جِلدِ الماعزِ**، سمَّاها: **قِربَةَ جِلْدِ الدواب**. ولربما إذا أرادَ توكيدَ جملةٍ جَعَلَ يُقسِمُ كما تفعل العرب.

وما أظنه بلغ من الشأوِ مثل صاحبِنا الدَّلالِ الذي رَكِبَ ذاتَ صباحٍ بهيجٍ من حَيْفَا ومعه امرأةٌ إنجليزيةٌ، فلما مرَّا بجبالِ الكَرمَلِ أشارَ إليها وقالَ:

«إبْلَادِي فَايْنْ هِلْ، يا مَادَامْ»[1].

---

(١) "Bloody fine hill, madam!"؛ وهذا كلُّه من كلامِ عامةِ الإنجليزِ الذي اختصوا به؛ كأنما يقول لامرأةٍ حجازيةٍ: «شوفي يا سِتِّي الجبل الرهيب دا!».

وكان سليمانُ يعرِفُ كيف يغيِّرُ في لغتِه حتىٰ تلائِمَ مَن يسمعه. لكني أعجَبُ أنَّىٰ للحنِ أن يقع في إنجليزيتِهِ، وعربيتُه فصيحةٌ مُحَبَّرَة؟ وأقِرُّ أنه لربما أوقع اللحنَ في كلامه عمدًا؛ ليستعين به ويتخذه عُدَّةً في صَنعته، فكان يَضَعُ سخيفَ الأغلاطِ ثم يجرِّبُها فيتلوها عليَّ، ويسألني: «أتَرَاها تُضحِكُك؟ أتضحك الإنجليز؟».

أما القساوسةُ فكان يدَّخِرُ لهم سمتًا خاصًّا، وذخيرةً من الدعابة يخُصُّهُم بها. فكان إذا عَبَرَ بهم فلسطينَ جَعَلَ الإنجيلَ أمامه في رَحله، وإذا فرغوا من عشائهم سامَرَهم كلَّ ليلةٍ، وخطبَ بهم خطبةً في موضوعِ مسيرِهم غدًا. ويتفكه في حديثِهِ ما استطاعَ، حتىٰ يرَوِّحَ عنهم بشيءٍ من اللهو. فالقساوسةُ يحبونَ صنفًا من صنوف الضحكِ؛ كما أخبرني هو أكثرَ من مرة.

وقد قصَّ مرةً علىٰ برسُونٍ خَبَرَ صدقٍ، أو لعله أسطورةٌ تلقاها الناس بالقَبول، فاستفزَّه سليمانُ حتىٰ كاد يُذهِبُ عقلَه بأنْ رواه علىٰ وجهٍ فبدا له كأنما هو كَذِبٌ أو ضربٌ من الجنون.

فبينما هم ركوبٌ إلىٰ فلسطينَ من يافا، أشارَ إلىٰ قريةٍ من طينٍ اسمُها اللطرون، وقالَ[1]:

«ذاك الموضعُ يا سيدي هو الذي فيه **يصيد** سِمْبِسُنُ الثعالب».

فقالَ: «هَه! ومَن سِمبِسُن هذا؟».

فقالَ سليمانُ: «رجلٌ ألمعيٌّ، كان يحب أن يتصيَّد».

فسأله: «أهو إنجليزي؟».

قالَ سليمانُ: «لا، بل يهودي. هو **يفعلُ صيدَ** كثيرٍ من الثعالب بالفخوخ. ثم يأخذ جلودها إلىٰ خياطٍ في يافا، ثم **يقول** للخياط: (اصنع جِرابًا عظيمًا من هذه الثعيلبات). فالخياط **هو يصنعُ** جِرابًا كبيرًا هائلًا، يكفي سِمبِسُن **أنه هو** يدخل فيه. ثم سِمبِسُن **يلبسُ** هذا الجراب في ليلةٍ، ويخرج إلىٰ المرجِ **ويفعلُ**

(١) أصلُ كلامِ سليمانَ في هذا البابِ مع الإنجليزِ بالإنجليزية، وفيه شيءٌ من اللحن والركاكة. فجعلتُ في ترجمته العربية لحنًا وركاكةً حتىٰ يستشعر القارئ الأصلَ. (استحضر هذا في الكلمات المكتوبة بالحرف الغليظ في هذا الموضع، وفي المواضع اللاحقة [الناشر])

أصواتًا مثلَ الأصواتِ التي **تفعلها** الثُّعَيْلِبَات. فالثعالب الصغيرة **يخرجون** من الجحر حتىٰ **ينظرون، فيرون** ثعلبًا ضخمًا يجلس هناك، لكن **هم ما يعلمون** أنه حقيقةً سِمبِسُن. **فيجيئون** قريبًا جدًّا، وسِمبِسُن **يفعلُ الإمساكَ** بذيولها، وهو يربط ذيولها ببعضها. ثم هم **يفعلون** الأصوات، **ويستمر** الثعالب **يأتون** وسِمبِسُن **يفعلُ الإمساكَ** بذيولها، ويربط ذيولها ببعضها. إلىٰ أن **حصل علىٰ** مئات ومئات».

فسأله البرسونُ: «وما صنع بها؟».

قالَ سليمان: «أوقد النارَ فيها!».

فسأله: «لأيِّ شيءٍ فعل ذلك قاتله الله؟».

فقالَ: «فعل ذلك يا سيدي حتىٰ يَغِيظ الأصهار».

ثم قالَ سليمانُ بعد أن قصَّ عليَّ الخبرَ: «أفتصدق أن هذا المُبَشِّرَ الأحمقَ لا يدري أن القصةَ وردت في الإنجيل؟ فدوَّنها بتَمامِها في كُرَّاستِه علىٰ أنها مغامرةُ رحَّالةٍ يهوديٍّ. وما هذا الرجلُ إلا واحدٌ من الثِّقال».

وجملته الأخيرةُ هذه إلماحٌ إلىٰ بيتِ شعرٍ عند العربِ يحبُّه سليمانُ جدًّا؛ وهو قولُهم:

إذا حــلَّ الـثـقـيـلُ بـأرضِ قـومٍ   فـمـا لـلـسـاكـنـين سـوىٰ الـرحـيـلِ

وهذا البيت أيضًا تلميحٌ إلىٰ هذه القصة:

كان لبَطٍّ جزيرةٌ في نهرٍ، ولهم في هذه الجزيرةِ مساكِنُ يعيشون فيها رَغَدًا، إلىٰ أن أقبلَت عليهم في يومٍ جثَّةُ ثور يذبذبها الموجُ، حتىٰ رَسَخَت في مقدمة الجزيرة. فحاولوا رفعها أو دفعها، ولم يتأتَّ لهم ذلك. واستقصوا في ذلك الذرائعَ، وما استطاعوا أن يزحزحوها قدرَ شبرٍ؛ لشدةِ ثِقَلِه. ثم عُرِفَ الثورُ بعد ذلك في كلامهم (بالثقيل). ثم ما بقي موضعٌ في الجزيرةِ إلا أَرْوَحَ من نَتَانَةِ جيفَتِهِ، التي ما فتئت تشتَدُّ حتىٰ اضطُرَّ بسببها البطُّ الشقيُّ إلىٰ الهجرة.

وشاءَ اللهُ أن يجعلَ كثيرًا من الثِّقال تحت يدِ الدَّليلِ سليمان، وكانَتْ نفسُه لا تُطيقُ الصبرَ علىٰ مخالَطَتِهم. لكنَّه لربما وقعَ علىٰ مَن يُثلِجُ صدرَه مِن أصحابِ الغرائب. ومنهم أميرُ عسكرِ بحرٍ من الأمريكانِ، أرفأت سفينتُهم في فلسطينَ يومين. وما سألَ سليمانَ إلا مسألةً واحدةً؛ وهي أن يريه الشجرةَ التي شَنَقَ يهوذا

الإسْخِرْيُوطيُّ عليها نفسَه[1]؛ علَّه يجد سبيلًا لجعلها تتدَنَّسُ من تلقاء نفسها، فيَصْدُقُ بذلك دِينُه. واستطاعَ سليمانُ أن يدلَّهُ علىٰ عينِ الشجرةِ، في المدة التي عينها له. فسُرَّ الأمريكيُّ منه، وكتب له تزكيةً أطنبَ فيها.

وأحسب أنَّ سليمانَ كان يشقُّ عليه تَأَمُّرُ أمثالِ هؤلاءِ السائحين، ويشقُّ عليه احتمالُ جفائهم، وهو الرقيقُ بطبعه، المستغني بنفسه. وقد خُبِّرتُ -ولا غَرْوَ- أنه لو وُكِّلَ إليه أمرُ الرحلةِ كلِّها لكانَ خيرَ أَدِلَّاءِ الشَّام، وما كان ليدخرَ جُهدًا في جعلِ الرِّحلةِ هنيئةً كثيرةَ الفوائد. أما إن أُضجِرَ بالمساءلةِ أو خُوِّنَ زادَ تهاونه حتىٰ يُخشىٰ آخرَ الأمرِ من خطرِه؛ إذ يَكِيدُ المكرَ بمن عدَّهُ عدوًّا. ومن ذلك رجلٌ إنجليزيٌّ اشتهىٰ أن تكون الإِمْرةُ له، وليس له كثيرُ علمٍ بالبلاد، وكان فوق ذلك ناقصَ العقل. فانقادَ له سليمانُ، ولم يعص له أمرًا. فما كان منهم إلا أن ضيعوا وقتَهم، وضيعوا متاعهم، وأصابهم الوجعُ والنَّصَب؛ وهذه سبيلُ سليمانَ في الانتقامِ من الثقال.

زفَرَ سليمانُ زفرةً، وقالَ: «وهو مع ذلك فَرِحٌ بعد تلك الرحلةِ التي ما رأيتُ أفظعَ ولا أشدَّ بلاءً منها؛ وذلك لأنَّا سِرنا علىٰ هواه . . . ألا إنَّ بعضَ بني آدمَ حمير!».

وبينما أنا أسير ذاتَ عصرٍ من عكا بإزاءِ خليجِها أريد سفحَ الكرمل، وأنا أظنُّ أن بيني وبين سليمانَ مئةَ ميلٍ، إذ مررتُ بجماعةٍ من السائحين بأطرافِ نخلٍ عند نهرِ المقطع. وكانوا جميعًا قد ترجلوا وتجمَّعوا علىٰ دليلٍ شاميٍّ فاخرِ الثياب، كتجمُّعِ النوارسِ علىٰ ببغاء. وقد امتدَّ بهذا الشاميِّ نَفَسُ الكلامِ، وأُثقِلَ صوتُه بتنغيمِ القساوسة، فتنبهتُ من ذلك علىٰ أنَّ السامعينَ ليس فيهم إلا القساوسةُ، ونساءهم الصابرات.

طَفِقَ الخدَّاعُ يخطب فيهم كأنما يُوحَىٰ إليه: «هذا -أيها السيدات والسادة- النهر القديم: نهر المقطع. هنا **فعلَ** الرسول العظيم إلياس **جمْعَ** أنبياء الصنم بعلٍ، **وهو فَعَلَ** ذلك بالحيلةِ الذكية **التي هي التضحية** في الجبل الذي **أنتم يرونه** وراءكم، والتي **فعلتُ شرحها** لكم قبل قليل. ثم **فعل** إلياس الهبوط من الجبلِ

---

(١) شنق نفسه ندمًا بعد أن غدر بالمسيح وأسلمَه إلىٰ قَتَلَتِه؛ كما تزعم النصارىٰ.

رويدًا إلىٰ هذا النهر القديم، وهو **يكون فرحًا** جدًّا، ويغني أغنية واحدة قصيرة. والناس **هم** يدُعُّونَ هؤلاء الأنبياء الدجَّالين دعًّا. ثم إلياس يأخذ سكينًا كبيرةً وطويلةً عمُّه أعطاه له، ثم هو **يفعل** أن يحُدَّها بحجر، كما **يفعل** أنا الآن. ثم **يقوم** بضحكةٍ، **ويفعل** النَّظَرَ في هؤلاء الأنبياء، ويرىٰ رجلًا يعجبه شكله، وهو حسنٌ وسمين. ثم هو يقول: (أحضروا لي هذا الرجل!)، فيحضرون ذاك الرجل. فإلياس **هو يذبحه** ويرميه في النهر. ثم إلياس يقول: (أحضروا أخاه!)، فهم يحضرون أخاه، **فهو يفعل ذبحه** ويرميه في النهر. إلىٰ أن **هم يفنىٰ** كلهم وما يبقىٰ أحد. ثم إلياس **يقوم بتنظيف** سكينه في الأرض، وبعد **أنه هو** ينتهي من الضحك، يقوم **ويفعل** الصلاة.

كانت تلك **هي** مذبحة عظيمة يا سادة».

وكان هذا الخطيبُ سليمانَ، في معمعة مجاهدةِ الثِّقال. وما خجل مني البتة لمَّا أبصرني.

الباب العشرون

البَطرَكُ والعِشق[1]

سكنتُ أسابيعَ في فندقِ هَاوَرْدَ بالقدسِ. وهاوردُ هذا من أخِلَّائي، وهو رجلٌ كريمٌ محمودُ الشمائلِ، لا يَعِيبه إلا حدَّةٌ في طبعه. وكان اسمه إسكندرَ بنَ عوادٍ، فغيره إلىٰ الفارسِ ألِكزَندر هاورد. وكنتُ أخرجُ كلَّ يومٍ علىٰ ظَهرِ بِرْذَوْنٍ فارهٍ وجدتُه في مربِطٍ وراءَ الفندق. وفي خُلُقِ صاحب هذا المربِطِ شيءٌ من الشِّدَّةِ، وله ابنُ أخٍ جاءني ذات ظُهْرٍ، وعرَضَ عليَّ أن نركب معًا إلىٰ بيتِ لحم. وكان له حصانٌ من أجودِ الخيلِ يتبخترُ في مِشيتِهِ، ولا يستطيع صاحبنا حُكمَه. فلما سرنا وجاوزنا رَبَضَ القُدسِ تطلَّقَتْ خيلنا، وتوقَّدَ جوادي الزهيدُ تأسيًا بهذا الحصان. حتىٰ إذا بلغنا مُنعَرَجًا بين صخرٍ يضيق عنده الطريق، صَدَمَ الفرسُ الضخمُ فرسي وقَلَبَه، وما أدري كيف وقع ذلك. وكَبَوْتُ لرأسي علىٰ بعض الحجارة.

وبادي الرأيِ أني دُستُ موضعًا مبللًا في هذا القفرِ القاحل. ثم تنبهت وأنا في حالي تلك أن فرسي قد بَعُدَ عنا وهو يركض. وسمعت ابنَ أخِي صاحبِ

---

(١) البَطرَكُ أو البَطْرِيَرْكُ: مرتبةٌ من مراتب زعماء النصارىٰ، وقد ذكرهم القلقشندي في كتابه ضوء الصبح المسفر (ص٣٤٩-٣٥٩)، وفي صبح الأعشىٰ (ج٥، ص٤٤٣-٣٣٥). فأولهم البابوات؛ وهم رؤساء المذاهب الذين عُلِّقَ بهم التحليل والتحريم، ومكان كرسيِّ البابا يختلف باختلاف المذهب. ثم يليه البطاركة؛ وهم خلفاء البابا في الأرض، وعددهم وأماكنهم كذلك تبعٌ للمذهب؛ ففي القدس مثلًا أكثر من بَطرَك.

الفرسِ يقول لي: إنه لا بدَّ أن يتبعه، أما أنا فأركبُ فرسَه وأمضي قُدُمًا علىٰ هَوني.

وقالَ لي: «تَجِدُ القَطَمُونَ علىٰ ذاك الجبلِ بعدَ أقلَّ من نصفِ ميلٍ، وهي كرسيُّ بَطرَكِ اليونان. ولا شك في أنك ستلقىٰ هناك قومًا في قلوبهم عطفٌ ورحمة. ليتني ما حَيِيتُ حتىٰ أرىٰ هذا اليوم! ليتني أُقبَرُ بَدَلَك!».

وبدا كأنما تمكن منه الحزنُ والإشفاقُ عليَّ، مع أنَّ همَّ تضييع المالِ كان هو الغالبَ علىٰ عقله. وكان ردُّ الدَّابةِ الهاربة أولىٰ شيءٍ عنده وأهمَّه.

ثم مضيت ولم أركبِ الفرسَ؛ لأني قد غُمَّ عليَّ وزاغَ بصري، ولو فعلتُ علىٰ تلك الحالِ لقَهَرَني. فقُدتُه وسرتُ الهوينىٰ أرتقي به الجبلَ إلىٰ القَطَمُون. فلما بلغتُ أعلاه رأيتُ أجمةً، أطَلَّت من فوقها سُقُفٌ مستويةٌ وقُبَّة. ثم ما لبثتُ أن وصلتُ إلىٰ باب هذا الحائطِ، ووجدته مفتوحًا. فقُدتُ الفرسَ في طريقٍ كأنه مُهِّدَ للمراكبِ، وفيه دجاجاتٌ كثيرةٌ، وشاةٌ مربوطةٌ أرادت أن تَفِرَّ لما رأتني مقبلًا، فطافت حولَ شجرةٍ حتىٰ تَشبَّكَتْ في وَثاقها وما صارت تقدر أن تحلل منه.

وألفيت في العَرَصَةِ التي بين الكُنَيِّسةِ وسائرِ الدُّورِ عجوزًا كئيبةً عليها خِمارٌ ملون، جَعَلَتْ تنظر إليَّ من وراءِ البابِ، فصِحتُ بها أُخَبِّرها أني نَزَلَ بي حادثٌ، وسألتها أن تتفضل عليَّ بغُسلٍ وضِماد. فطَفِقَت تُحَدِّقُ إليَّ مشفقةً، وتهُزُّ رأسها.

فعزمتُ عليها في المسألة: «ماء! ائتيني بماء!».

فدخَلَتِ الدارَ وجاءتني برجلٍ من نفسِ شاكلتها، جَحَظَتْ عيناه وتكدرت فزعًا من منظري.

فجدَّدتُ المسألةَ واستأذنتهم في أن أغسلَ رأسي ووجهي. وسمعتها توشوش له: «ألا أُحضِرُ له ماءً؟»، فأجابها الرجلُ أنْ: «دَعِيه! إن هذا الجسدَ المضرَّجَ بالدماءِ قد شارَفَهُ الموتُ، وهو هالكٌ لا محالة. وأحسَبُ الفرسَ مسروقًا. وقد وقع قتالٌ، لربما تورطنا فيه إن مسسنا هذا الرجل. فاصبري حتىٰ تُدرِكَهُ المنيةُ، ثم ندعو صاحبَ الغِبْطَةِ[1] ونكتبَ شهادتنا، حتىٰ نبرِّئَ أنفُسَنا».

---

(١) صاحب الغبطة: لقبٌ للبطاركة.

عَجِبْتُ من غبائهما، فتقدمتُ خطوةً إليهما أجادلهما، ففرَّا مهطِعَيْنِ حتىٰ غابا عنِّي. فتنبهتُ حينئذٍ -وما كنتُ أدري- أن هيئتي كانت والله مُفزعة. فلما فطِنتُ إلىٰ هذه المَزِيَّةَ استعملتُها، فطاردتهما وأنا أتوعدهما بالأوبئةِ في الدنيا، والعذابِ الأبديِّ في الآخرة، إلا أن يجيئوني الساعةَ بماء.

وكان الفرسُ الذي قدته وديعًا، غايةً في السكونِ حتىٰ الساعة، لكنَّ صياحي أفزعه؛ فاستعصىٰ عليَّ وجمح. فجعلتُ أنازعه عند بابِ الدارِ حتىٰ حَضَرَ قسيسٌ جسيمٌ مَهيبٌ، في ثوب كهنةٍ أسودَ، تقلَّدَ صليبًا مرصَّعًا بالجواهرِ يبرق في الشمس. فأخضع الفرسَ فيما أحسبه طرفة عينٍ، وربطه في حلْقةٍ في الجدارِ لم أرها من شدةِ ما غُمَّ عليَّ. ثم أخذني بتلابيب ردائي، وساقني سوقًا في نَفَقٍ إلىٰ عَرَصَةٍ ثانيةٍ فيها حوضٌ ومِضَخَّة. وضخَّ بها الماءَ ووضعَ رأسي تحتها، وهو يسبُّ الخدمَ لحُمقهم.

ثمَّ رجعَ الرجلُ والمرأةُ وهما في غايةِ الخضوعِ والتذلل. فبعثَهما واستعجلهما، وأرسل واحدًا ليجيء بعُدَّةٍ للضِّمادِ، والآخرَ ليجيء بما يداويني به. ولم يحدثني بكلمةٍ حتىٰ فرغَ من شغله كلِّه، فضحك بملءِ فيهِ وقالَ: «أرضيتَ الآن؟».

فأخبرته أني أجد نفسي أصَحَّ بكثيرٍ مما كنت عليه.

فقال: «الحمد لله»، ثم أخذني بيدي إلىٰ غرفةٍ، كثيرةِ البُسُطِ، فيها من الأثاثِ أريكةٌ مبَطَّنةٌ، ولها نوافذُ واسعةٌ تُطِلُّ علىٰ الصحراءِ الشرقية.

لما جلسنا هناك واسترحنا، سألني: مَن أنا؟ ومِن أي البلاد جئت؟ فلما عرف أني من إنجلترةَ استخبرني عن الكنيستين العليا والسفلىٰ في بلادنا، وسألني: هل اجتمعت كلمتهم، أم ما زالوا مفترقين؟ وبدا عليه أنه يعدُّها مسألةً عظيمة. ثم قال لي: إنه سُرَّ لما عرف أني لست من كاثوليكِ الرومِ؛ فهذا المذهبُ أشرُّ مذاهب الهراطقةِ عنده.

وإذا رأيتَ سروره بما في مزرعته من البهائمِ قلتَ: إن عنايته بهذه المسائلِ الكهنوتيةِ إنما هي من جهة العادة لا لاكتراثه بها؛ إذ لما انتبهت من النافذةِ علىٰ

بقراتٍ جَرداواتٍ[1] تَعتَلِفُ في زريبةٍ صغيرة، تطلقت أساريرُ وجهه وقالَ: إنَّا حديثو عهدٍ بشرائها. وطَفِقَ يحدثني في دواجنِه وغنمه ومَعزِه، ولو اشتهت نفسي رؤيتَها لسرَّهُ أن يريني إياها كلها.

فلما فرغنا من تحسِّي القهوةِ التي أتمَّت عليَّ عافيتي، خرج معي وطاف بي علىٰ محلِّهِ الصغير. وبينما نحن وقوفٌ في ظلِّ الشجرِ نتذاكر الدِّيَكَةَ الرومية، إذ أقبلَ علينا رفيقي راكبًا الفرسَ الآبق. وكان يدين بمذهبِ الكنيسة اليونانية الأرثدكسية.

وللهِ ما أشدَّ عجبي لمَّا رأيته ربطَ دابته ثم أقبلَ مهطعًا مُقنِعَ الرأسِ، فجثا عند رِجلَيْ صاحبي، وقبَّلَ يديه خاشعًا مبتهلًا. فنظرتُ إلىٰ هذا القسيسِ أبيضِ اللحيةِ، عسليِّ العينين، ذي الشعرِ المنسدلِ من تحت قبعته السوداءِ الطويلةِ كأنه فروٌ أبيضُ أسفلها، ذاك الذي انبسطتُ في مخاطبته مستأنسًا، تبين أنه لم يكن إلا بَطركَ القدسِ الأرثدكسي، خليفةَ القديس يعقوبَ أخي المسيح. وكنتُ أحسبه شَمَّاسًا[2]، أو راهبًا من رهبانِ الدَّير. فتبسم صاحبُ الغِبطة ملء شدقيه ساخرًا من تعجبي.

ثمَّ جعل صاحبنا الذي قَدِمَ آنفًا يقصُّ خبرًا طويلًا بتنغيم يُبكي وهو جاثٍ علىٰ ركبتيه. والقصةُ في رجلٍ عَشِقَ بنتًا حتىٰ كاد العشقُ يهلكه، وهي أختُ زوجةِ أخيه. وقد حُرِّمَ في شرائع الكنيسةِ الشرقيةِ أن يتزوج أَخَوَانِ بأختين.

ثم سألَ هذا السائلُ: «أما مِن سبيلٍ تُنِيله إياها بما يوافق الشرع؟».

فبدا علىٰ البطركِ التملُّلُ، وهزَّ رأسه، وقالَ:

«أما لو كان كاثوليكيًّا أو بروتيستنتيًّا لَحَلَّ له زواجها».

ثم بدا علىٰ وجه البطرك سُخْطٌ وإشفاق.

ونهضَ السائل حينئذٍ عن الأرضِ ونَفَضَ الترابَ عن ركبتيه وهو يقولُ: «الأمرُ معضِل».

---

(١) الأجرد من الدواب: ما قَصُرَ شعره ورَقَّ، حتىٰ ترىٰ فيه لمعانًا، وهذا من علامات الحسن؛ وهو مشهورٌ في الخيل.

(٢) الشماس: نائبُ صاحبِ الدَّير، وقيِّم علىٰ الكنيسةِ، وهي من مراتب الخدمة لا العلم.

فقلب البَطركُ كفيه وأقرَّ ذلك. وذكر أن الفتىٰ لا ينبغي له أن يطلق بصره إلىٰ بنتٍ لا تحل له.

ثم قالَ: «لا سبيلَ له إلا أن يفسَخَ نِكاحَ أخيه بأن يبين أنه نكاحٌ فاسدٌ». وختمَ المسألةَ بقوله هذا، ثم أكملَ حديثَه في الدواجن. فجَعَلَ رفيقي يجذِبُ كُمِّي.

فاستأذنت البَطركَ في أن أنصرف، ووقَّرتُه وأجزلتُ له الشكر. فضرَبَ بكفِّهِ علىٰ كَتِفِي، وقالَ: «ائتنا مرةً ثانية. وإياك أن تسعىٰ إلىٰ نكاحِ أختِ زوجةِ أخيك. أليست كنيستُك تبيحُ هذا النكاحَ؟ فكنيستك ما تزالُ مُشَرَّبَةً بهرطقةِ الرومِ. أمَّا علةُ التحريمِ عند الكنيسةِ الأرثدكسيةِ، فلأنه يجرُّ علىٰ البيوتِ الاختلاطَ والالتباس، ولأنه فعلٌ قبيح».

وكان كأنَّما هو يمزَحُ، لكنَّا لما ولَّينا نَظَرَ إلىٰ رفيقي شَزْرًا، وأحسبُ عينَهُ مُلِئَتْ غمْطًا.

ولما رأيت أن عافيتي قد تكاملت، وما بي إلا أني مضمَّدُ الرأسِ، أكملنا سيرنا إلىٰ بيتِ لحمٍ التي كنَّا خرجنا أول الأمر إليها. وفي تلك الأرضِ الحَجِرَةِ بُقَعٌ ورديةٌ من زهورِ بخورِ مريم، ومن فوقِها سماءٌ شديدةُ الزرقةِ عَافَتْ في جوِّها غِربانٌ سود.

سِرنا حتىٰ انتهينا إلىٰ أجمةِ زيتونٍ في سفحِ جبل، وفوقَ الجبلِ دَيرُ مارِ إلياسَ اليوناني، فتلطفني صاحبي حينئذٍ وقالَ: «إن شئتَ عرَّجنا علىٰ هذا الدَّيرِ، وتزوَّدنا بخفائف أكلٍ وشربٍ نتنشط بها. فرهبانُ هذا الدَّيرِ أصحابي. وما سلكتُ هذه السبيلَ إلا لزيارتهم».

فلما لم أُنكِر عليه، ربطنا خيلنا في بستانِ الدَّير ثم دخلنا. وأَلْفَينا شمَّاسَ الدَّيرِ متوسِّطًا حفلَ شايٍ وحوله جماعةٌ من الجيرانِ اليونانيين ذكرانًا وإناثًا في حجرةٍ وثيرةِ الأثاث.

وشوش لي صاحبي قُبَيلَ دخولنا يناشدني ألا أخبرهم أنَّ ما أصابني إنما كان لرعونته في ركوبِ فرسه. وابتدع من عنده قصةً تسَمَّعتُ إليها ولم أَستَبِنْها، ذَكَرَ فيها قتالنا لأعرابٍ، وأظنه رَفَعَ بها ذِكري؛ فقد رأيتُ منهم جميعًا حفاوةً بعد

أن أتمَّ كلامَه. وأبىٰ بعضُ النساءِ الحاضراتِ إلا أن يَزِدنَ غَسلَ جِراحي بماء الورد، ويُبدِلنَ ضِمادَ البَطركِ بضِمادٍ أرقَّ كتَّانًا منه. وعاونهن رهبانٌ استهجنتُ هيئتهم؛ فقد طالت شعورُهم وانتفشت كأنما يتغنجون بها، وربطوها برُبُطٍ. أما صاحبي فجعل حينئذٍ يحادث فتياتٍ حسناوات.

لما قَفَلنا إلىٰ القدسِ جعلَ رفيقي يسائلني عن الكنيستين الأنجليكية، والرومية الكاثوليكية، وكان كأنه يرىٰ أن الأولىٰ يَعيبُها أتعسَ العيبِ أنهم لا يتَجوَّزون في مسائلِ النكاح.

وبينما نحن نهبِطُ من الأكمةِ التي جاورت مستشفىٰ العيونِ، وقد تجلَّت علىٰ الرابيةِ أمامنا قلعةُ القدسِ وأسوارُها، سألني صاحبي بعد إطراق ساعةٍ: «أرأيتَ البناتِ اللاتي كنتُ أكلمهن؛ لا سيَّما التي لبِسَتْ رُبُطًا سماويةَ اللون؟ إنها لَهِيَ التي أحب». فلمَّا أثنيتُ علىٰ حسنِ نظرِه، قالَ: «أظنني سأتحوَّلُ كاثوليكيًّا!»، ثمَّ انهلَّت بوادرُ دمعِه.

فعرفتُ من انكسارِه في الكلامِ أنه هو المتيَّمُ الشقيُّ الذي ذكَرَ للبَطركِ خبَرَه، والبنتَ التي رأيتها في دَيْرِ مارِ إلياسَ هي أختُ زوجةِ أخيه. فتكلَّفتُ إظهارَ العطفِ عليه ما استطعتُ، لكنِّي لعلةٍ لا أعرفها لم أجد في نفسي عطفًا إلا علىٰ البَطرَكِ الذي أحسبني ما لقيت رجلًا يومئذٍ غيره.

الباب الحادي والعشرون

صاحبُ الأرضِ المُبغَضُ

عزمتُ علىٰ أن أشتريَ أرضًا بالشامِ وأقيمَ بها، وقد أذِنَ لي أهلي؛ شريطةَ ألا أُنفِقَ أكثَرَ من ثمنٍ حددوه لي، وهو قليلٌ، إلا أنَّ سليمانَ أخبرني أنَّه يجزئ لحاجتنا. ثم بيَّنَ لي أنَّ الأرض قد تكونُ صحراءَ فتُشتَرىٰ بثمنٍ بخسٍ، ثم تصيرُ مربحةً بإخراجِ الماءِ فيها. وكان يعرِفُ بقعةً كهذه يجري أسفلَ منها ماءٌ ليس بغائرٍ، وهي عند قريةٍ له فيها دار. وكَرِهَ رشيدٌ هذا الرأي في قلبِ الصحراءِ بستانًا، وقالَ: ما هي إلا تضييعٌ للوقتِ والجهدِ؛ ففي البلادِ بساتينُ مهيَّأةٌ تُباعُ برُخْص. وفي شمالِ البلادِ ضيعةٌ بهيجةٌ قريبةٌ من قريته، تجري فيها عينانِ ماؤهما عِدٌّ. وإن أهلَهُ لسوفَ يسُرُّهم ويزيدهم مفخرةً أن أشرِّفَ دارَهم الزهيدةَ بالنزول فيها إذا ذهبتُ لأطَّلِعَ علىٰ الأرض. أما سليمانُ فأَسِفَ أنَّ بيتَه أحقرُ من أن أنزلَ فيه، إلا أنه أشارَ عليَّ أن ننصِبَ قبَّةً حَسَنَةً خارجَه، إن أنا أكرمتُ قريته ونزلتُ بها ضيفًا عليه.

وقالَ لي رجلٌ إنجليزيٌّ استشرتُه لمَّا زرتُ المدينةَ، وقلَّمَا كنتُ أزورها: «أضمن لكَ أنَّ الأرضَ التي مدحوها إنما هي لأقاربهم، وسيبيعونك إياها بضِعفِ قيمتها عشرين مرة. ثم يتعلقون بك كالعَلَقِ ويَمَصُّونَ دمَكَ مصًّا حتىٰ لا يبقىٰ لك شيء». ثمَّ قالَ: «أنصحُكَ أن تعدِلَ عن نيَّتِك هذه مِن أصلِها». وهذه نصيحةٌ عَهِدتُها، ولا أحيد عن مخالفتها.

أما تحذيره من أهل البلد الذين استشرتهم فغايةُ ما وقع في نفسي منه أني عَزَمتُ علىٰ اجتناب الأراضي التي مدحوها في أحيائهم. فلما أخبرتهما بهذه العزيمةِ، حزِنا منها أولَ الأمرِ. بيد أن رشيدًا ما لَبِثَ أن قالَ: «لا أدَعُ خدمتَكَ أينما كان المنزلُ الذي نتبَوَّؤه». أما سليمانُ فأطالَ السكوتَ، ودخَّنَ أرجيلتَه، ثم قالَ: «سأزورك في كلِّ صيفٍ وأنصحُ لك».

ثم انتشرنا حينئذٍ ثلاثَتُنا في الأرضِ نتقصَّىٰ المسألة. وما أكثرَ الأشياخَ ممن أظنهم أُعسِرُوا فأرادوا بيعَ أراضيهم. وقد سارَ بعضُ أصحابِ الأراضي مسافةَ أربعين ميلًا حتىٰ يلقوني، ويبينوا لي ما في أراضيهم من عظيم المحاسن. وكنتُ أعرِفُ أمرًا متعلقًا بقانونِ العقارِ، فأسألهم عن حالِ حِيَازتها. وما كنتُ أريد إلا مِلكًا، وكانَ الوقفُ بصورِهِ المختلفةِ والمنكَرَةِ أشهرَ وأشيع. ثمَّ جاءَ بعد إبطاءٍ شيخٌ زَعَمَ أنَّ أرضَه مِلكٌ، وشَهِدَ جماعةٌ من جيراننا بما علموه يقينًا من أنَّه قالَ الحقَّ، وهم قومٌ كِرامٌ عُدُول.

وكان بين قريتنا وقريةِ هذه الأرضِ مسيرةُ يومٍ طويل. فلما انسلخَ نصفُ شهرٍ بعد محادثةِ صاحبها، خرجتُ مع سليمانَ إليها، وبعثنا رشيدًا يتقدمنا ليفتش عن مسكنٍ طيبٍ؛ لأنَّا نَوَيْنا أن نقيم فيها بضعة أيام.

ونُسِّقَتْ هذه القريةُ علىٰ هيئةِ الدَّرَجِ عُرض الجبل، فكانت سقوفُ الدورِ التي في الدرجةِ السفلىٰ طريقًا يُتوَصَّلُ به للدورِ التي فوقها. وانتشرت البساتينُ حواليها في كلِّ منحدرٍ، وبين أشجارِ البساتينِ في بعضِ المواضعِ بيوتٌ مستويةُ السُّقُف.

خرجَ رشيدٌ لاستقبالنا، ومعه نفرٌ من كِبارِ القرية، قلَّبتُ فيهم بصري أفتش عن صاحب الأرضِ الذي جئناه، فرُدَّ بصري إليَّ خاسئًا. وكان هو أولَ ما سألتُ عنه. فأجابني رشيدٌ بأنَّه: «رجلٌ مُبغَض. وقد قَصَدتُ عريفَ القريةِ»، وأشارَ بيدِهِ إلىٰ الرجلِ الذي رافقه، وقالَ: «فأعدُّوا دارًا ومربطًا ليكونا تحت يدِ سعادتكم».

فلما نزلنا الدارَ وجدناها حجرةً فذَّةً، مربَّعَةً، ليسَ فيها من الأثاثِ إلا حصير. واتصل ببنائها المربِطُ، وهو مثلُها، غيرَ أنه مكشوفٌ من جهةٍ من غيرِ جدار.

ثم تعشَّيْنا في حانوتٍ عندَ ينبوعِ القريةِ، وحولَنا حَشدٌ من فلاحينَ أوِدَّاء. فرجعتُ أفتش عن الشيخِ الذي جئت لألقاه، ووشوشتُ لرشيدٍ أتعجبُ أنِّي لم أجده، فأجابني بنفسِ جوابه الأولِ وقالَ: «هوَ مبغَض».

ثم رجعت إلىٰ الدارِ ورافقني رشيدٌ، وهيَّأَ فراشي، وقرَّبَ إليَّ السجائر وأعوادَ الثِّقابِ، وأوصَدَ النافذتين بمصاريعها، ثم خبَّرني أنه هو وسليمانَ سيبيتانِ في بيتِ رئيسِ الحيِّ، ثم انصرف.

لمَّا أويتُ إلىٰ فراشي علىٰ الأرضِ سمعتُ طرقًا علىٰ مصاريعِ الخشبِ الصَّلدِ التي غلَّقَها رشيد، فقمتُ إلىٰ أحدها وفتحته فتحًا يسيرًا، فإذا بالقمرِ أفاض بنوره علىٰ الأرضِ، إلا أن نافذتَنا أطلَّتْ علىٰ ظُلمةِ أشجارِ الزيتون، وسمعت سائلًا من العَتَمةِ يقولُ: «أهذا أنتَ أيها الإنجليزي؟».

فإذا هو صاحبُ الأرض. ثمَّ جَعَلَ يعاتبني بصوتٍ ملهوفٍ؛ لأني لم أبلغه بالساعةِ التي أصلُ فيها، ولو فعلتُ لبرزَ من القريةِ مع عياله الثلاثة يستقبلونني في طريقي. وخبَّرني أنَّ أصحابَ البيتِ الذي سكنتُ فيه هم أعدىٰ أعدائه. فتضرَّعَ إليَّ أن أنسلَّ من الدارِ من حيني وأجيءَ معه. فلما أبَيتُ، حَشرَجَ قنطًا، وانصرفَ بعد أن قالَ لي كلماتِه هذه:

«إياك أن تصدق كلمةً يقولونها فينا أو في أرضنا».

أوصدتُ المصراعَ، ثم عدتُ إلىٰ فراشي. وما لبثت أن وجدتُ حَرًّا، فقمتُ إلىٰ النافذتين وفتحتهما كي ينالَني ما بهذه الأرضِ من نسيم. وما غلبني النوم إلا بعد طولِ التقلب حنقًا من البعوضِ. فلما استيقظتُ وجدتُ الحجرةَ مُلئت بنورِ النهار، وسمعتُ غمغمةً حسِبتها أولَ الأمر أصواتَ حشراتٍ، ثم ما لبِثْتُ أن تبيَّنتُ أنها أصواتُ حشدٍ عظيم من الناس. ورأيتُ وجوهًا حُشِرتْ عند النافذتين، وأَخمِرةً، وصبيانًا حُمِلوا علىٰ أكتافِ أمهاتهم. وسمعتُ نواحَ صبيٍّ يقولُ: «يا أماه! ارفعيني حتىٰ أنظر إلىٰ هذا الكافر مثلكم!».

سارعتُ إلىٰ سَتْرِ نفسي؛ فقد ركلتُ لحافي برجلي ونحَّيْتُه وأنا نائمٌ. ثمَّ أمرت هؤلاء النسوةَ جميعًا أن ينصرفن الساعةَ. فما صَنَعنَ إلا أن تبسَّمنَ بملءِ أفواههنَّ، وصبَّحنَني. ثم طَفِقْنَ يتذاكرنَ بحرصٍ عظيمٍ هيئتي، وبَياضَ بَشَرَتي،

وخصُّوا بحديثهن مَنَامتي. وهلم جرًّا إلىٰ أن حضر رشيدٌ، ومعه مغتسلي الهندي[١]، ودلوٌ من حديدٍ مُلِئَ ماءً. فغلَّقَ النوافذ وأحكم إيصادها. ثم رجع وهو يتسخَّطُ علىٰ قلةِ حياءِ مُحِبِّيَّ.

قصصتُ عليه خبرَ زيارةِ صاحبِ الأرض.

فما زاد علىٰ جوابِه الأول: «هو مبغَض».

فسألته عن علَّةِ بغض الناسِ له، فقال:

«في هذه الناحيةِ من البلاد فرقتانِ من قديمِ الدهرِ. وأهلُ هذه القريةِ قاطبةً ينتمون إلىٰ فرقةٍ، إلا هذا الشيخَ وبنيه ينتمون إلىٰ الفرقةِ الأخرىٰ. ولو سَكَتَ لما كانتِ الناسُ تبالي به، لكنَّه ما تَرَكَ فرصةً إلا تبجَّحَ فيها عليهم وفاخرهم بجماعتِهِ. حتىٰ عقدوا النيةَ علىٰ قتلِهِ؛ وذلك سبب رغبته في بيعِ أرضِه. والحمدُ لله أنَّا عرفنا ذلك؛ لأنها تجعل لنا مزيَّةً عليه».

حضَرَ سليمانُ، وأفطرنا ثلاثتُنا بأقراصِ خبزٍ بلديٍّ، وقَدَحٍ عظيمٍ من جبنةٍ شامية، ثمَّ خرجنا لنطَّلِعَ علىٰ الأرض. فتلقانا الشيخُ وبنوه ليطوفوا بنا فيها، واسمُ الشيخِ يوسُف. ومع أنها لم تكن أرضًا واسعةً، إلا أنهم أَمكَثُونَا فيها حتىٰ الظهرِ، وبُسِطَت حينئذٍ تحت أشجارٍ مائدةٌ عظيمة. فلما فرغنا، اغتنمَ الشيخُ كلمةً قلتُها ليردَّنا إلىٰ النظر في الأرضِ مرةً ثانية.

ثمَّ ذكَرَ آخِرَ الأمرِ ثمنها، ورأيتُه قد غالىٰ فيه، وخبَّرتُ أصحابي بذلك.

فقالَ رشيدٌ: «لا ريب! فلم نشرع في الصفقةِ بعدُ. وسنعيد النظرَ في الأرضِ غدًا وبعد غدٍ. ثم نواعِدُ مُقَوِّمَينِ يُقَدِّرانِ قيمتَها، واحدٌ من عندنا وواحدٌ من عندهم. فيتفحص كلُّ واحدٍ منهما الأرضَ علىٰ حِدَة، ثم ينظران فيها معًا. ونحتكم بعدَ ذلك إلىٰ حكمٍ ينازعُ صاحبَ الأرض. ثم بعد ذلك..».

فقطعتُ كلامَه وقلتُ: «لكن هذا سيمتدُّ شهورًا!».

قالَ: «ما من سبيلٍ غيرُها، إلا إن شئتَ -سعادتك- أن تُغشَّ».

---

(١) المغتسل الهندي: هو مغتسلٌ كان الرحَّالةُ يحملونه معهم ويستحمون فيه، وهو يسع رجلًا واحدًا. قاعدته حوضٌ يوقَف فيه، ويُنصَبُ عليه خَيزُرانٌ في رأسِه قبةٌ، تُسدل منها ستائر.

فسألتُ سليمانَ: «ما قولك؟».

فأجابَ بقولِه: «الأرضُ طيبة، وفيها كثيرٌ تقدر أن تُحسِّنَه. وسيبيعك إياها بكلِّ شجرِها، وهذه مزيَّةٌ لها. ثمَّ زِد علىٰ ذلك أن مَنبَعَ الماء تحتَ يديك وحدك».

ثم أعادَ كلامَه هذا عند جمعٍ من أهلِ القريةِ كانوا قاعدين أمامَ داري ينتظرونني. فما أتمَّ كلامه إلا صاحَ رجلٌ: «يوسُفُ هذا كذَّاب؛ فليست كلُّ الأشجارِ له، وأما الماء فنقدر أن نقطعه عنه؛ فمنبعه من أعلىٰ الجبلِ لا من عنده».

جعل سليمانُ يحاور شيخَ القريةِ، فلما رجعَ، رجعَ منقبض الوجه.

سألتُه: «ما الخطب؟ أكانَ الشيخُ يوسُفُ يخادعنا؟».

فتمعَّرَ وجهه واشمأزَّ قبلَ أن يجيبني، وهزَّ رأسَهُ، ثمَّ قال:

«كلا، بل هم مَن يكذبون عليه؛ لبُغضِهِم إياه. أتعلَّقَ قلبُك بهذه الأرضِ وعقدتَ العزمَ علىٰ شرائها؟».

قلتُ: «كلا والله!».

فقالَ: «الحمدُ لله، فما هذه القريةُ إلا مجتمَعٌ للشياطين. وقد قَسَمَ عريفُ القريةِ هذه الأرضَ لنفسه منذ زمنٍ. فلو أعطينا الشيخَ يوسفَ ثمنًا طيبًا لها ومكناه من الارتحالِ عزيزَ النفسِ، لأبغَضَنَا الناسُ، وسلكوا في أذيتنا سُبُلًا شتَّىٰ؛ فلذلك نعرِّجُ علىٰ الشيخِ غدًا، ونرجِعُ عن البيع، وعذرنا في هذا أنَّك أُصِبتَ اليومَ بمسٍّ من الحمىٰ من الأرض. وأحسب هذا عذرًا حسنًا».

فلما كان الغدُ أخبَرْنا الشيخَ الخبرَ، فتلقاه منا مستخفيًا لَيَّ شِدقِه، كأنَّما بالَغْنَا في إذلاله. وبُلِّغنا أنَّا ما فارقناه إلا وقد مضىٰ إلىٰ الحانوت المجاور لعينِ القريةِ، يلعن شيوخَها الذين خببوني عليه ويشتمهم، وأسرفَ وطغىٰ. فاستفزَّهم حتىٰ لم يبرحوا موضعَهم ولم يجاوزوا ساعتَهم إلا وقد أجمعوا أمرهم علىٰ الخلاص منه.

فلما انطلقنا قافِلِينَ من الصبحِ، سَمِعنا في القريةِ جَلَبَةَ إطلاقِ نار. فعلونا ناحيةَ أكمةٍ مصطَفِّينَ عليها ننظرُ، فإذ بالشيخِ يوسُفَ قد قعد علىٰ كرسيٍّ بإزاء

حائطِ بيتِه، وتحجبه شجرةُ زيتونٍ، في جذعها المعمَّرِ فُرُجاتٌ ما تحسبها إلا نوافِذَ للقنص. وما فتئ يطلقُ النارَ علىٰ فوجٍ عدوٍّ له من الفلاحينَ. وكان يستعملُ ثلاث بندقياتٍ واحدةً تِلوَ واحدةٍ، وما انفكَّ بنوه يعبئونها له. وعرفنا بعد ذلك علةَ جلوسه؛ وهي أنه أُصيبَ برَصاصةٍ في رجله.

عَجِلتُ إلىٰ نجدتِهِ، وفي إثري رشيد. وأظن أرواحنا كانت لتَزهَقُ لولا أنَّ سليمانَ صَرَخَ من حينه مجلجلًا: «أقصِروا! باسمِ السلطانِ وباسمِ دول أوربةَ العظيمة قاطبةً. أَقصِرُوا، وإلا ليُشنَقَنَّ كلُّ واحدٍ منكم».

فصرفَ كلامُه هذا وجوههم إليه، فانتهوا عن إطلاق النارِ. وركبنا بينهم وبين رمِيَّتِهم. ثم أنبأ سليمانُ أهلَ القريةِ بأدبٍ أنِّي عَضُدُ كبيرِ قناصلةِ الإنجليز وعاملٌ مَكِينٌ عندَه، وأنَّ لي سلطانًا لا حدَّ له في أن أُذَبِّحَ وأُشَنِّق من شئت.

ثمَّ عمَدنا ثلاثتُنا إلىٰ الشيخِ يوسُفَ نجادله في أنه لا بدَّ له أن يخرج علىٰ الفورِ من ها هنا، ويقصد الوالي ويختصم إليه.

قال لي سليمان: «سنرافقه حتىٰ تعرف سعادتك الوالي، وهو رجلٌ ينبغي لك أن تعرفه. أما أرضه فلن تُخَرَّبَ في غَيبته؛ فهم يخافون القانون. فإنَّ حِمَىٰ الوطيسِ أمرٌ، وسوءَ العشرةِ والضغائنَ أمرٌ غيرُه. وما أغاظهم إلا منظرُه وسماعُ صوتِه، فحملهم علىٰ مجاوزةِ الحد».

ثمَّ حملناه بعدَ لَأْيٍ علىٰ ركوب فرسه والسير معنا، فكان أبعد الناسِ عن الشكرِ، وما برح يتمنىٰ أن يرجِعَ فيقاتل القوم. وما سمعنا منه كلمةً طيبةً في مسيرنا كلِّه علىٰ بُعدِ الشُّقة. ثم لما شارفنا القريةَ التي سكنَها الوالي، راوَغَنَا وهرب منا.

قلَّبَ رشيدٌ كفَّيه أولَ ما شعرنا أنه أَبَقَ، وقالَ مشمئزًّا: «لا عجبَ أنَّ الناسَ تبغضه. أيَفِرُّ منا ونحن المتفضلون عليه؟ أوبعدما حِدنا عن طريقنا وباعدناه لا لشيءٍ إلا لرفقنا به؟ أفٍّ له ما أمقَتَه! من -غيرُ الله- يقدر علىٰ حب رجلٍ كهذا؟».

الباب الثاني والعشرون

قائم المقام(١)

سرنا إلىٰ القريةِ مع أن الشيخَ يوسفَ رحلَ عنا، وهو علة مجيئنا إليها. ووجدنا في رَبَضِها خانًا بِتنا فيه، له فناءٌ ظُلِّلَ بشجرةِ خُرْنوبٍ بهيجةٍ معمَّرة. ولمَّا أفطرنا من الصبحِ قعدنا في مكانٍ يشبه الشرفةَ أطلَّ علىٰ أغصان هذه الشجرةِ، ورأينا الشارعَ من خلالها ومن وراءِ بابٍ مقنطرٍ دارِسٍ، فإذا به قد غصَّ بفلاحين في ثيابٍ رمادية طفِقوا يرِدون السوق. أشار عليَّ سليمانُ حينئذٍ أن نزورَ كلانا قائمَ المقامِ، وهو والي المَحَلَّة. وكنت قد بِتُّ ليلةً ضَنْكًا، وكان المكانُ صاخبًا مُنتِنًا، ولم أُرِد إلا أن أغادرَه في أعجلِ ما يمكن، فقلتُ له:

«لن أزورَ أحدًا. وما أردتُ لقاءَه إلا من أجلِ ذاك الشيخِ الشقيِّ الذي فرَّ منا».

فقال رشيدٌ: «ذاك الرجلُ جاحدٌ جاحد . . . لعَنَ اللهُ أباه!».

قالَ سليمانُ: «بل يُشفَقُ عليه لجهلِهِ! فليس في خاطرِهِ إلا أن يقاتِلَ دونَ بيتِهِ وأرضِهِ. ولم يتصور أنه لو ذادَ عنهما بالقانونِ والسلطان لربما كان دفاعه أنجعَ، وأدوم. وما أظنه إلا استبعد أن تَفِدَ سعادتُكَ إلىٰ الوالي وتجادِلَ عنه بنفسك».

فأجبته مغضبًا: «لن ألقىٰ أحدًا، ولنرجِعْ علىٰ الفور».

---

(١) قائم المقام، أو القائممقام: من أرباب الوظائف في الدولة العثمانية، وهو نائب الوالي أو الأمير في مدينةٍ ما، وسمي بذلك لأنه يقوم مقامَه.

قال رشيدٌ: «جيِّد! سأعدُّ الخيل».

فقال شيخنا متفكرًا: «رُوِيَ لي أن سعادتَه رجلٌ ظريفٌ، وإنَّ لقياه لغنيمةٌ باردةٌ، فنعرفه، ونسأله فضلَه. وبذلك تصيرُ لنا يدٌ علىٰ الشيخِ يوسُفَ وقد ينفعنا في أمرٍ، مع أنه رجلٌ مَقِيت. وقد ذكرتُ لأهلِ هذه البلادِ أنَّا قدِمنا إلىٰ الوالي في حاجةٍ عظيمة. وأعلم أن رشيدًا كذلك ذكر الأمر لهم وفاخر به. فلو غادرنا بعد ذلك في حَنَقٍ ونحن لم نَلْقَه، لمشىٰ الناسُ بقيلَ وقالَ، بل لربما وقعت -والله العالمُ- فتنةٌ بينهم. فإذا عرفَ الوالي بالأمرِ، لربما أخذته حفيظةٌ، وحُقَّ له».

جعل يجادلني مجادلةً سخيفةً، ويماريني أشدَّ المراءِ حتىٰ لزِمَني أن أذعن له. فسِرنا علىٰ رِسلنا في طرقٍ ضيقة إلىٰ دارِ الولايةِ قُبَيْلَ العاشرةِ صباحًا، وهي دارٌ حمراءُ السقفِ، بيضاءُ الجدرانِ، تسَكَّعَ العسكرُ عندها في ساحةٍ من ترابٍ.

طال لُبثنا في حجرةِ انتظارٍ تجلب الغم علىٰ فساحتها، بإزاءِ جدرانها أرائك لا وسائدَ لها، وعليها قومٌ عجائبُ جاؤوا الوالي في حاجاتهم، وقد جلس بعضهم، وقعد بعضهم القُرْفُصاء. ورأيتُ في هيئةِ نفرٍ منهم شدَّةَ الفقرِ، فما تمالكت أن أعظمتُ جرأتَهم علىٰ الاستئذان علىٰ الوالي. ولما جاءَ الحاجبُ في ثيابه السودِ وعمامته، كان أولَ من نودِيَ رجلٌ من أبأسِ الناسِ هيئةً. فتوارىٰ في حجرةٍ داخلَ الدارِ، ثمَّ أُغلِقَ عليه الباب.

ثم قصد سليمانُ هذا الحاجبَ وهو واقفٌ بالبابِ يحرسه، وسارَّهُ بحديثٍ. وما أدري ما قال له، لكنه وَلَجَ الحجرةَ بوقارٍ لمَّا خرجَ الرجلُ البائسُ منها، ثم ما لبث أن رجع إلينا فانحنىٰ لنا وأدخلنا. فدخلتُ في الحجرةِ، وتبعني سليمان يمشي البَخْتَرِيَّةَ متنفخًا، وكان في ثيابِه المتموجةِ كأنه طاووس.

ألفينا قائمَ المقامِ كهلًا تركيًا، جميلًا، لباسُه أنيقٌ يتناسب مع ما كانَ حوله في الحجرة. تكادُ هيئتُه تكونُ هيئةَ إنجليزيٍّ لولا طربوشٌ قرمزيٌّ علىٰ جبهته، وسُبحةٌ حمراءُ الخرَزِ ما فتئ يعبث بها. نظر في عيني متلطفًا يستخبرني بنظرِه. فقلتُ له: إني أتيته بخبرِ اضطرابٍ عظيمٍ في إقليمه هذا، ثم أوكلتُ إلىٰ سليمانَ

ذِكرَ خبرِ الشيخِ يوسُفَ وجيرانِه، وخبرِ المعركةِ التي شهدناها في أجمةِ الزيتون أمام بيته.

استنفدَ سليمانُ كلَّ ما أوتِيَ من فصاحةٍ وكِيَاسة، حتىٰ جعلَ من الحادثةِ قصيدةً مُحبَّرة. لكنِّي رأيتُ في وجهِ الوالي أنه لم يعبأ به كثيرًا.

ثم لمَّا فرغَ سليمانُ من قصِّ الخبرِ سألَنَا: «الشيخ يوسف! من هو؟».

فبيَّنتُ له أنَّ الشيخَ يوسُفَ صاحبُ أرضٍ عرفناه بسبب رغبتي في شراء أرض.

حَفَلَ فخامتُه بالأمرِ فجأةً، وبدا عليه الطرب، وقالَ: «أتفكر -سعادتك- بالإقامةِ ها هنا بين ظهرانينا؟»، ثم سألني إن كنتُ أفهم لسانَ الفرنسيس، فلما عرف أني أفهمه، أسهبَ بالفرنسية يكلمني في عزمي هذا، وأحسبه أبهجه أشدَّ البهجة. ثم قال: إن إقليمه ليُبارَكُ بوجودِ رجلٍ مثلي رفيعِ الأدبِ واعٍ، فأكونُ إذا حللتُ به مركزًا في تحسينه وشمسًا عليه، ويا لها مِن قرةِ عينٍ له خاصةً أن يكون بقربه رجلٌ متعلمٌ يحادثه. ثم أمَّلَ أنْ إذا فرغتُ من تشييد مزرعتي التي ستكون قدوةً للناسِ، ألا تكون عنايتي مقتصرةً علىٰ الحِراثةِ، بل أشتغل أيضًا بتحسين نسلِ غنمِ هذه البلادِ وبقرِها. وكان قد ترامىٰ إليه خبرُ سلالاتٍ بهيَّةٍ من الغنمِ والبقرِ في إنجلترة. وسمَّىٰ المزرعةَ قُدوةً؛ لأنه جزم من هيأتي وحديثي أنها ستكون قدوةً في كلِّ شيء. وتمنىٰ أن آتي بكثيرٍ من الثيرانِ والكِباشِ الإنجليزية، وضَمِنَ لي معونةَ الدولةِ في كلِّ أمرٍ أصنعه بهذا الصدد؛ فالسلطانُ يعتني بهذه التجارِب غايةَ العناية، وكان لا يسميه إلا جنابَ الحضرةِ السلطانية.

وشتان بينَ هذا كلِّه وبين عزمي الأولِ مِن عَيشِ عِيشَةٍ مطمئنة ما استطعت. لكنِّي وعدتُ فخامته أن أنظر في كلِّ أمرٍ أشارَ عليَّ به.

جعلني أدخن سيجارتين، وأشربُ كُوبَ قهوةٍ أعدَّها كاتِبُه علىٰ مِجمَرةٍ في ركنِ الحجرة. ثم استأذنني في أن يختمَ لقاءنا، وله ابتسامةٌ دَمِثَة، ويشيرُ بيده إشارةَ تلطفٍ، وذكر أن فراقي حسرة عليه، وما كان ليدعني لولا شدَّةُ شُغْلِه.

قمتُ من فوري، وقامَ معي سليمان.

ثم سألته أُذَكِّرُه: «والشيخُ يوسف؟».

فقطَّبَ الوالي قليلًا، وقالَ: «نعم، صدقتَ. مِن أيِّ ملةٍ هو؟».

قلتُ: «أظنه درزيًّا».

فقالَ: «وما ملة الذين اعتدوا عليه ولم تأخذهم به رحمة؟».

قلتُ: «دروزٌ أيضًا».

فقالَ: «إيه، فالأمرُ بينَ بني العمِّ كما يُقال. وإني لأُسَفِّهُ نفسي إذا دخلتُ بين الدروزِ، إلا أن يختصم إليَّ وفدٌ منهم؛ فطريقتنا في الحكم لا تطابقُ طريقتَكم التي استبانَ نفعُها في الحواضرِ المطمئنةِ رفيعةِ الأدبِ مثل بلادك. فإنَّا ندعُ العشائرَ والجماعاتِ المختلِفةَ تفصِلُ في الخصوماتِ التي تكون داخلَها بين أبنائها. ولا نتدخل إلا إذا كانت حربَ قبيلةٍ علىٰ قبيلة، أو ملةٍ علىٰ ملة، أو سَدَّتْ نزاعاتُهم طريقَ القوافلِ والمسافرين وهي تسير في دربِ السلطان. ما كنتَ تظن يا مون أَمِي[1]؟ إنا ها هنا في قارةِ آسية!».

فلما قال كلامَه هذا، وتبسم مترفقًا بأوهام فُتُوَّتِي رِفقًا لا تفي الألفاظ بوصفه، انحنىٰ فخامتُه لي يودعني.

لما خرجنا إلىٰ حجرةِ الانتظارِ دنا سليمانُ من أذني الشِّمالِ وخَرَقَها بهمسِه وقال: «أعطني أربعةَ ريالاتٍ مجيدية».

فاستعجبتُ وقلتُ له: «لأيِّ شيءٍ؟».

قالَ: «أُبيِّنَ لك فيما بعد، لكني أحتاجها الساعةَ».

فأخرجت الريالاتِ الأربعةَ من جيبِ سروالي، فلما تناولها رجع إلىٰ البابِ الذي وقف عليه الحاجب، ووشوش إليه، فدخل الحاجبُ إلىٰ الحجرةِ ورجع ومعه كاتِبُ قائمِ المقامِ وأمينُ سرِّه. فأفرطا في تقارُظِ المديحِ حتىٰ حسِبتُ أن لن يفرغا.

جعلتُ أدور مضطربًا في بلاطِ حجرةِ الانتظارِ، وليس في الناسِ من أبانَ سمتُه عن العجلة غيري. أما سائر الناسِ فمُسَلِّمونَ أتمَّ التسليم؛ فيهم من جلسَ بإزاءِ الحائطِ، وفيهم من قعد القُرْفُصاء. بعضهم يدخن، وبعضهم يلوكُ صنوفًا من

---

(١) مون أمي: أي يا صاحبي، بالفرنسية.

المُكَسَّراتِ، أخَذَتْ قشورُها تغطي الأرضَ التي تَلِيهم. بل إنَّ بعض هؤلاء السائلين تدبروا أمرَهم فأحضروا معهم جُرُبًا مُلئت زادًا، كأنما توقعوا أن يدومَ انتظارُهم أيامًا.

لمَّا أخذَ غضبي علىٰ سليمانَ يشتدُّ جدًّا، رجعَ وما كادَ يفعلُ، وقالَ لي: «استتب الأمر، ولنا أن نرتحل الآنَ إن شئتَ سعادتك».

فأجبته مغتاظًا: «إني لأشاءُ! فما لك أخَّرتني هذه المدةَ كلَّها؟ وإني -لعَمري- ما كنتُ أريدُ المجيءَ هنا، ويعلمُ اللهُ أنَّا ما استفدنا من مجيئنا شيئًا. وقد ضيَّعنا صباحًا كانَ لنا أن نقطعه في طريق سفرنا».

زفرَ سليمانُ محتملًا كلامي بطولِ أناتِه، وقالَ: «الله الله!»، ثم قالَ: «ما أشقَّ البلوغَ إلىٰ رضا سعادتِكَ وأعسرَه! ألم يختصك صاحب الفخامة بحديثه نحوًا من نصف ساعة وقد لاحت عليه أمارات الرضا كلُّها. أمَّا أنا فلم يكد يلقي عليَّ كلمةً واحدةً مع أني استدرجتُ سمعَهُ بِلُغةٍ أُحكِمَتْ لتسحرَ ألبابَ الملوك. فحُقَّ لي أن يضيقَ صدري؛ لأنَّ رجلًا عظيمًا مثلَه أغفلني. أما أنتَ فأحقُّ الناسِ بأن تبتهج؛ فهو الآن صاحبُك».

فأنكرتُ عليه وقلت: «إنَّ أكبرَ ظنِّي أنِّي لن ألقاه بعدَ يومنا هذا أبدًا».

فأخذني شيخي بالمحاباةِ وقالَ: «كلا! ما يدريك؟! وإنَّ معرفةَ رجلٍ من ولاةِ الأمورِ حسنةٌ علىٰ الإطلاق».



الباب الثالث والعشرون

عن الرشوة

أغلظتُ لسليمانَ السؤالَ وقلت: «ما أردتَ بتلك الريالات المجيدية الأربعة؟».

فقلب كفيه وقالَ: «لزِمني دفعُ الأجرِ المُستحَقِّ، لمَّا لم أرَكَ فاعلًا. وذلك لنصون عِرضنا وسيرتنا الطيِّبة التي أحكَمْنَا وضعها».

فقلتُ له: «أتقصدُ أنَّك لم تعطِها لقائمِ المقام؟».

قالَ: «معاذَ الله! راعِ يا حبيبي منزلتي من هذا الشأن. ودعني أضربْ لك مثلًا: هَبْ أنَّ ملكًا ووزيرَه زارا ملكًا آخرَ ووزيرَه. أسألك إن كانت معهما هدايا، أليسَ الملكُ يهدي بنفسه ما كان منها للملك؟ والوزيرُ يهدي ما كان للوزير؟ ولو كان إهداء الهديةِ للوالي في واقعةِ هذا الصباحِ واجبًا أو مندوبًا لكان ينبغي لك أن تهديها له بنفسك، ولا يكون ذلك لأحدٍ من الخلق غيرك. ولو تأمَّلتَ -سعادتك- تأملًا يسيرًا لظَهَرَ لك ذلك».

فأجبته بقولي: «يا ألله يا رحيم! لو فعلتُ لَصَرَعني».

قالَ: «ما كان ليفعلَ مثل هذا الفعلِ وهو الذي كملَ أدبه. وغايةُ ما قد يفعلُه أن يتبسم بدماثةٍ، ويشدَّ علىٰ يدِكَ برفقٍ ويدفعَها، كأنما هو قائلٌ: (أنتَ غِرٌّ في هذه الأمور، لا تعرف عاداتنا؛ لأنك غريبٌ عنا). لكنْ لا شكَّ في أن إهداءك إياه هديةً ولو صَغُرَت يُصَدِّق الرأيَ الذي عَرَضَ له لمَّا رآك».

ثمَّ قالَ: «لكنْ دع عنك هذا! أمَا وقد ناقشتني في حِسابِ الريالاتِ المجيديةِ الأربعةِ التي أعطيتني إياها كارهًا، فقد وهبتُ باسمِكَ للبوابِ منها ريالًا، وثلاثةً لكاتبِ قائم المقامِ الذي اختص بمعاليه. وضَمِنتُ من لُطفِ الكاتبِ أنه سيحضُّ مولاه علىٰ أن ينفذ أمرًا في سبيلِ حمايةِ ذاك المُسِنِّ الأثيمِ: الشيخِ يوسُف».

قطعتُ كلامَه مغلِّظًا: «أتقصدُ أنِّي لو وصلتُ الوالي بصِلَةٍ كما قلتَ إنه انبغىٰ لي، لكانَ أنفذ أمرًا في حمايةِ الشيخِ يوسُف؟».

فقال: «كلا! لم أقل ذلك. لكنَّه سيعتقد علىٰ الأقل اعتقادًا جازمًا أن عنايتك بذاك الفلاح المُسِنِّ عظيمة - مع أنَّه بغيضٌ في ذاتِ نفسِه، وأحقر من يخطر خطرةً واحدةً ببالِ امرئٍ لبيبٍ، أو له مُسكةٌ من تمييز. ولربما امتهن الوالي المالَ الذي تقدمه له، وهذا ما أحسبه يفعله بلا ريب، إلا أنك إذا قدمته إليه عَلِمَ حِرصنا في طلبنا، ولربما أنفذَ فيه أمرًا لرغبته في إرضائكَ، وأنتَ من أحبَّ مِن نظرةٍ، كما ذكرتُ مِن قبلُ».

قلتُ: «نظامكم كلُّه فاسدٌ، وأسوأ من ذلك أنَّ الألبابَ لا تعقِلُه».

قالَ سليمانُ: «وبهذا تقولُ الفرنجة!»، ولوىٰ منكبيه، وفرَّجَ بين يديه وبسطها كأنما جُبِهَ بجدارٍ من الغباءِ المستحكم الذي عرفه حق معرفته، فلا هو يُخفَضُ ولا هو يُتَسَلَّق. ثم قال: «وُلاتُنا، وقُضاتُنا، وصِغارُ عُمَّالِنا لا تُدفَعُ لهم الرواتبُ العظيمة، وهذا الذي يُعطىٰ لهم لا يُدفعُ لهم دائمًا في وقته؛ ولذلك لزِمهم قاطبةً طَلَبُ رزقِهِم، سواءٌ عَلَتْ منازلهم أو سَفُلَتْ. ومِن عُرْفِ بلادنا أن تُهدىٰ إلىٰ أهلِ السلطةِ الهدايا، فالله يعلمُ أنَّ تبسُّمَ أحدِهم خيرٌ من تعبيسه. ولسنا كالفرنجةِ الذين يقايضون كلَّ شيءٍ، وإن كانَ أشدَّ وجدانياتهم قدسيةً، بل وإن كانَ العشق. لكنَّا قومٌ يسرنا إهداء الهدايا، وأن تُستقبَلَ بصدرٍ رحب. وإن كانَ متلقيها لا يقدر أن يجزينا أجرَ تعبنا بشيءٍ، كما قد يقولُ فَرنجي».

صِحتُ به مغتاظًا: «أتبيعون العدلَ؟ فهذا ما ينتهي إليه فِعلُكم».

قالَ: «مَن ذكَرَ بيعَ العدل؟ لقد أخطأتَ. فلو كانَ عليَّ المثول بين يَدَيِ القاضي لقدَّمتُ إلىٰ سعادتِهِ هديةً قبْلَ ذلك، وقبوله لها لا ينبئني أنه سيقضي لي؛

فلا يُخيَّلَنَّ لك ذلك. بل حسبُ قبوله لها أن يبيِّنَ لي أنَّه لا يحملُ عليَّ في قلبه شيئًا. ولو ردَّها عليَّ لحُقَّ لي أن أفزَع؛ لظني أن خصيمي قد استماله كلَّ الميلِ. وإن منهجَ القاضي المقسطِ في الأمصارِ الشرقية أن يقبلَ الهديةَ من الخصمين من غيرِ تفضيلٍ، ويعذرَ من له عذرٌ؛ كمَن كان أفقرَ مِن أن يعطي، ثم يقضي بوقائعِ القضيةِ دون غيرها. وغالبُ ما نهديه شيءٌ يسير، بخلافِ بلادِ الغربِ التي يغلو فيها المحامون فيما يطلبون من أجورٍ، كما ذكرتَ لي بنفسك أكثر من مرةٍ، وذكر لي غيرك. ثم بعدَ دفعِ هذه الأجورِ العظيمةِ تَجِدُ أنَّ الصالحَ الذي لم يُذنِب قد يناله من العقابِ مثل ما ينالُ المجرم. أما هنا، فما يكادُ يُذكَرُ أنَّ رجلًا بَرًّا لم يُصِبْ ذنبًا عوقِبَ بدلَ فاجر. ولربما عُوقِبَ لِمامًا فاجرٌ مشهورٌ بفِسقِه بذنبِ غيرِه، إذا عَظُمَ الذنبُ ولم يجدوا المجرِمَ وكانت هنالك حاجةٌ أن يُجعَلَ للناسِ نكالٌ يعتبرون به علىٰ الفور. وأكثرُ ما يقعُ هذا إذا تدخلَ قنصلٌ غربيٌّ يطلبُ الثأر لأبناءِ بلدِهِ بسببِ أذًى يسيرٍ عليهم. ولا تقع مثلُ هذه الأمورِ إلا نادرًا إذا صارتِ المحكمةُ في هَرْجٍ ومَرْجٍ. لكنني زعيمٌ لكَ بأنَّ القضاءَ التركيَّ إذا جرىٰ علىٰ العادةِ، فهو ندٌّ للقضاءِ الأوربيِّ، وإن أبطأ. وهو أرخصُ من قضائك الإنجليزيِّ بقدرٍ عظيم».

تحيَّرتُ جدًّا، فلم أردَّ عليه جوابًا.

ولا يزالُ سليمانُ في سمتِهِ رزينًا، حتىٰ شَقَّ عليَّ أن أميِّزَ هزله في كلامِه من جده. وقد عرفت أنه مشتهر بين أهلِ البلادِ بشدة مزاحه، لكني عرفتُ الحقَّ من مديحِ غيرِهم له. ولست أقدر أبدًا أن أعلمَ من سمته إن كان قد تعمَّدَ المزاح.

أمسكَ سليمانُ عن الحديثِ أيضًا حتىٰ وصلنا إلىٰ خانِنَا. ثمَّ بعد نحو نصف ساعةٍ أمرتُ أن تُعَدَّ الخيلُ حتىٰ نرتحلَ علىٰ إثر الغداءِ، وضادَّني سليمانُ في ذلك وقالَ: إن الظهرَ أحرُّ من أن نسيرَ فيه، ولم آخذ بقوله. ثم آنستُه يقصُّ علىٰ رشيدٍ قصةَ زيارتِنا، ومنها هِبَةُ المجيدياتِ الأربعة، ورشيدٌ مشتغلٌ بتدليكِ كاهلِ حصاني متلكئًا.

قالَ له وفي صوتِهِ إقرارٌ ووُد: «إنَّ كاتبَ الوالي حسنُ التربيةِ؛ فقد رأيتُه حريصًا علىٰ أن يتناول الهديةَ بشِمالِه بأدبٍ جمٍّ، وكان قد وضعها متأهبةً وراءَ ظهره. ثم لم يحمدني، ولم يُظهِر علامةَ شُكرٍ إلا إغماضةً لطيفةً بعينيه».

فهجمتُ عليه من فوري عندَ اعترافِهِ هذا، وصحتُ بِهِ: «هذا ينبئك أنَّه عدَّ هذه المعاملةَ من السُّحت. وكلامُكَ هذا ينبئني أنَّك كذلك تراها سُحتًا».

تلَفَّتَ سليمانُ رويدًا حتىٰ نظرت عينه إلىٰ عيني، وما ارتبك ولا شيئًا قليلًا، مع أنه لم يشعر أني بمسمعٍ منهم إلا حينَ تكلمت.

ضَحِكَ سليمانُ بملءِ فيهِ، وقالَ: «ما أعندَ سعادتَك! ما عهدت منك قطُّ حبًّا للإصرارِ علىٰ باطلِ الرأي، وهذا ينبئني أنَّك إنما وُلِدتَ لتتبوأ مكانةً رفيعةً في الأرض. لا جرمَ أن هؤلاء العمَّالَ الصالحين قاطبةً، عِظامًا وصغارًا، يعدُّون أخذَ هذه الهدايا دونَ قدرِهِم مع أنهم أحوج ما يكونون إليها. فلو تلقَّوها بجَشَعٍ لكان كأنما يعرِّفون الناسَ أجمعينَ بِفاقتِهِم. وتأميرُ الدولةِ لهم يملأ نفوسَهم فخرًا، وليس في هذا الفخرِ إلا أنَّه جعلَهَم يحرِصُونَ أن يُرَىٰ منهم أنَّهم أجَلُّ من أن يصيبهم شيءٌ من خوفِ الفاقة. ولهذا تجد في أنفسهم استحياءً من أخذِ هذه الهدايا. وليس في هذه البلادِ مَن يُخَطِّئُ أخذَهم لها، أو إرضاءَهم المعطي بما استطاعوا من الأمورِ اليسيرة. وإنما الخطأ إن خانوا الأمانةَ التي ائتمنهم عليها رؤساؤُهم، أو استزلَّهم أحدٌ إلىٰ عملٍ يناقضُ ولاءهم، أو دينَهم. ولن تجد مثل هذا ولله الحمد. وهذه الهِبَاتُ لا تُطلب إلا في صغائر الأمورِ كالمُتاجَرَةِ وبذلِ المعروفِ، مما لا يكادُ يحيك في الصدور منه شيء. وليس أحدٌ من أهلِ هذه البلادِ يظن بهم ظنَّ سوءٍ، وإن قال لك الناسُ ما قالوا من باب المداهنةِ لأنك غربيٌّ. وإن من أشدِّ ما يعسر علىٰ أهلِ الغربِ: معرفةَ الحقِّ. فلا بدَّ لك أن تحمد الله أنَّ معك سليمانَ معلمًا». ثم استدرَكَ: «ورشيدًا أيضًا». لمَّا رأىٰ فتايَ واقفًا بجوارِه يترقَّبُ ذكرَ اسمِه.

وقد تبيَّنْتُ الآنَ صِدقَه بعد أكثرَ من عشرين سنةً خَبَرتُ فيها شؤونَ أهلِ المشرق.

الباب الرابع والعشرون

المعركة

دربُنا دربُ خَيَّالَةٍ غايةٌ في الضِّيقِ، حتىٰ إنه لربما اندثرَ في بعضِ المواضع ولزِمنا أن نحزِرَ مكانَه لنهتديَ إليه من جديد. تعرَّجَ بنا محاذيًا لشِعبٍ فيه غيضاتُ دِفْلىٰ، يجري من بينها جدولٌ آنَسنا خريرَه. وفي جهتنا من الوادي غابةٌ ممتدةٌ لا تنقطع، فيها أَجَمَاتُ زيتونٍ كثيفةٌ تحُفُّ القرىٰ، ونَبَتَت بينها أشجارُ آسٍ أقلُّ منها بكثير. وطابَتْ ظلالها في النهارِ، إلا أنَّ نفوسنا اغتمت من عتمتها واشتدَّ قلقُنا لما أقبلَ الليلُ، فما تزالُ وِجهتنا قاصيةً، ونحنُ في ريبٍ من طريقنا.

اشتدَّت العَتَمَةُ. وكنا إذا سرنا في براحٍ هنا وهناكَ ظهرت لأبصارنا النجوم، أما الشِّعبُ فمُلِئَ عَتَمَةً، ولم يكن بين الظلمةِ في الأجماتِ وبين الظلمة في البراحِ خارجها إلا فرقٌ يسير. وقد فوَّضنا إلىٰ خيلِنا أن تستبينَ الدربَ الذي لربما حاذىٰ أحيانًا حرفَ الهاوية.

وكانت علىٰ قلبي غمة، وزادَ رشيدٌ الطينَ بِلَّةً؛ إذ أسهبَ في حديثه عن المخاطرِ التي نَفِرُّ منها، فلم نفِرَّ من الصعاليكِ فقط، بل من الجنِّ والغول أيضًا. وحَمَلَهُ عواءُ الضِّباعِ الموحِشُ من بعيدٍ علىٰ أن يذكرَ أنَّ الغيلان تتصور بصورتها في الليل لتقتلَ المسافرين. فتدنو من الناسِ وتتمسح بهم كتَمَسُّحِ الهررةِ الوَدُودَةِ، وتسلُبُهُمْ ملامستُها عقولَهم، فيتبعونَ الضبعَ إلىٰ وِجارِهِ، فإذا صاروا فيه قتلَتْهم الغولُ، ودخلت أجسادَهم حتىٰ تُنضِجَ لحومَها.

ثمَّ تخوَّفَ رشيدٌ أن نلقىٰ رسومًا منيرةً، فنُخدَعَ ونظنَّها اجتماعًا لقوم، كما وقَعَ لقريبٍ له كريمٍ وهو في سفر. فحملتِ الجنُّ هذا الرجلَ، واسمُهُ عليٌّ، في غمضةِ عينٍ من ناحيةِ حماةَ إلىٰ قِفارِ جبل قاف بالقوقاز. وما نجَّاهُ من مِيتَةٍ فظيعةٍ أليمةٍ إلا ذِكرُه لله. ثمَّ ذكرَ لي أيضًا خبرًا وقع له حينَ كان معسكرُه في مَرسِينَ، إذ لَقِيَ نفرًا من الشياطين وهو راجعٌ من حاجةٍ خرجَ فيها، وقصَّ عليَّ قصصًا غيرَها حتىٰ اقشعرَّ جِلدي من الخوف.

تجاوزنا الأجماتِ، وصرنا إلىٰ براحٍ فيه أدغالٌ من قِصارِ الشجر. فانكفأَ فرسي فجأةً، ونَخَرَ فزِعًا، ورسخ في موضعه يأبىٰ أن يتزحزح عنه شبرًا. تركته واقفًا حتىٰ أدركَنا رشيدٌ، وأرادَ أن يتجاوزني، إلا أن فرسَه أبىٰ كفرسي أن يمضي.

وشوشَ رشيدٌ وفي صوتِه رعب: «لا ريبَ أنَّ ثمَّةَ جِنًّا!»، ثم نادىٰ: «دَسْتُورْ يا مُبارَكين!»[1]، وحاول أن يستحثَّ فرسَه، وهو يمانعه. فلَبِثنا وقوفًا هنالك، تحبِسُنا يدٌ خفيَّة. وشَنُعَ الأمرُ جدًّا؛ لِمَا وجدنا في موقفنا من ريحٍ مهلكٍ نَتْنُها.

اصطَكَّتْ أسنانُ رشيدٍ، وغمغم: «خيرٌ لنا أن نرجع».

قلتُ مضطربًا: «هاتِ عودَ ثِقاب؛ فعُلبَتِي فارغة!».

فابتهلَ في سؤالِهِ: «خيرٌ لنا أن نرجِع».

استفزَّني الذعرُ، فصحتُ به: «ثِقاب! أمَا تسمَع؟!».

أعطاني ثقابًا، وأظنني كنتُ أصرخ لمَّا حكَكْتُه. فاشتعلَتْ نارُهُ ولها شعاعٌ خَطِفَ بصري هُنيَّةً فما عدتُ أرىٰ شيئًا، ثم ما لَبِثَتْ أن انطفأت.

تمتم رشيد: «في الدربِ شيءٌ مرميٌّ».

فترجَّلتُ عن فرسي، وأوقدت ثقابًا ثانيًا وحرَصتُ أن أستُرَهُ إلىٰ أن تشتدَّ شُعلتُه. فأبصرتُ حينئذٍ يدَ آدميٍّ مرميَّةً أمامنا في الطريق.

---

(١) دَستُور: كلمةٌ دخيلةٌ تُقالُ للاستئذان من الجن. فإذا سكَبَ المرء ماءً أو دخَلَ موضعًا يظنُّ فيه جِنًّا – كبيوتِ الخلاءِ والغاباتِ – قال: «دَسْتور يا مبارك»، أو: «السماح يا مبارك».

بلغ الرعبُ مني مبلَغه، وصارَ المكان مُخيفًا علىٰ غيرِ العادةِ لمَّا انطفأَ الثِّقاب. لكنَّ هذه اليدَ الفظيعةَ ردَّتْ إلىٰ رشيدٍ رباطةَ جأشِه، حتىٰ جلسَ يقهقهُ، ويقول:

«الحمد لله! فليس في هذا ما يضُرُّنا. لا ريبَ أنَّ قتلًا قد اقتُرِفَ ها هنا، ولم يعلم به أحد. رَحِمَ الله صاحبَ تلك اليد. وإذا وصلنا إلىٰ غايتنا أبلَغْنَا عنه أحدًا من كبارِ عُمَّالِ الدولة».

ثم عَطَفْنا خيلَنا جهةَ اليمينِ، ومِلْنا بها حولَ تلك الأرضِ نُطِيلُ الطريق. فما كادَتِ الخيلُ تَجِدُ سكةً تمشي عليها إلا وفرسي -وهو المتقدِّمُ- يَقِفَ عَصِيًّا مرةً ثانية.

هشَّ رشيدٌ وقالَ: «بَضعةٌ ثانية!»، ونَزَل عن فرسِهِ لينظرَ، ثمَّ قالَ: «بل بَضَعاتٌ كثيرة! وما هذه والله إلا معركةٌ لم يستَفِضْ عند الناسِ خبرُها».

فسألتُهُ وأنا في ريبةٍ: «أنَّىٰ لمعركةٍ أن تقعَ ولا يعرِف الناسُ عنها؟».

قالَ: «لربما وقع هذا إذا اختصمت فئتانِ في شأنٍ محظورٍ؛ كأن يختصموا في غنيمةٍ من سرقةٍ، أو في ذَنْبٍ لَعِينٍ يجلبُ إقرارُه العارَ. فيقتتلانِ حتىٰ تُبِيدَ كلُّ فئةٍ أختها».

رجعتُ أسأله: «وكيفَ يكونُ ذلك؟».

فما استطاعَ رشيدٌ أن يردَّ من حينِهِ؛ إذ وجدنا أنفسنا ونحن نجانب جثث الموتىٰ فوقَ أرضٍ ذاتِ كُسُورٍ وبينَ أشجارٍ، فلزمنا أن نصرِفَ إليها عقولَنا بالكلية. فلما رجَعَتْ خيلُنا تدِبُّ مستقيمةً، قالَ لي: إن هذا الأمرَ ممكن الوقوعِ، وقد وقَعَ مِرارًا في تلك البلادِ التي كانت دماءُ رجالِها حامية. ثم قصَّ عليَّ خبرَ قُطَّاعِ طرقٍ اقتتلوا مرةً في جبالِ القلمون علىٰ غنائمَ، فقُتِلَ أكثرُ الفئتين، وأما من نجا فأُثخِنَ بجراحِهِ، وما عادَ له طاقةٌ بالحراكِ، فخرَّ وماتَ في المعركة. وقصَّ عليَّ خبرَ قريتين أعمىٰ الحسدُ أهلَها فاعتلجوا رجالًا ونساءً في معركةٍ، وانتهوا إلىٰ نفسِ المآل. جعلتُ أقطَعُ كلامَه بالأسئلةِ. وسُرَّ كلانا بالحديثِ كي ننسىٰ خوفَنا الأوَّل. فأطلقنا أعنةَ الفكرِ، واندفعنا في الكلام.

ثمَّ رجعنا نذكر تلك الأعضاءَ المقطَّعَة التي رأيناها، فقال رشيد:

«الآنَ أخبر سعادتَك كيفَ وقَعَ الأمر. اعتُدِيَ علىٰ أهلِ بيتٍ اعتداءً لَعِينًا في عِرضِ فتاةٍ منهم. فقَتَلَها أبوها وإخوتها حتىٰ يحُطُّوا عنهم العارَ؛ وهذا ديدنُ الفلّاحينَ ها هنا. ثمَّ جمعوا إليهم بَنِي عمِّهم بقضهم وقضيضهم، وهجموا علىٰ رجالِ بيتِ المعتدي وهم يحتطبون في هذه الغابة. وجرىٰ بينهم قتالٌ ضَرُوسٌ، واستمر ساعاتٍ كثيرة. واشتبكوا بأسلحةٍ من أسلحةِ القرويين، ووافقَ أن بعضهم قطّعوا إربًا إربًا. فلمَّا انقضىٰ الأمرُ، كان المنتصرون قد أُثخِنوا بجراحِهم، ولم يكن لهم طاقةٌ بالقيامِ فاستلقوا وماتوا».

سألته تصديقًا: «كَم تحسبهم؟».

فتفكَّرَ وقالَ: «لو قدَّرتُ عديدَهم من الرائحةِ فقط، لما قلتُ: رجلًا أو رجلينِ، بل لعلهم -والله أعلمُ- مئة».

قلتُ: «من العجيبِ أنهم مطروحون هنا ولم يطَّلِعْ عليهم أحد».

فردَّ رشيدٌ: «بل ليسَ عجيبًا إذا تأمَّلتَ أن هذا الموضعَ بعيدٌ من القرىٰ كلِّها، وأظنُّ بُعدَه عن الجادَّةِ كبُعدِهِ عن القرىٰ».

وقوله الأخيرُ هذا مُقلِقٌ، إلا أنَّنا كنَّا أهَشَّ من أن نجزَع.

ثمَّ قالَ رشيدٌ: «إنَّ هذه لحادثةٌ خليقةٌ أن تُدوَّنَ في كتبِ التاريخ. وإنَّا سنشتهر إذا بلغنا القريةَ؛ فهذه الأخبارُ لا تُعرَفُ إلا كلَّ قرنٍ من الزمان».

فكان جوابي: «ليتَنا نبلُغُ القرية!»، ثمَّ رجعنا نتصور في أذهاننا هذه الحادثة العجيبة.

وسمعنا بعد مدةٍ نُباحَ كلبٍ من بعيدٍ، فحَمِدنا الله. ثم أبصرنا بعد نصفِ ساعةٍ أمامَنا نورًا. لكنَّ رشيدًا بيَّنَ لي أنَّ النورَ لا يُفهمُ منه استيقاظُ أهلِ الحيِّ؛ فأهلُ ذلك القُطْرِ يرون أنَّ النومَ بلا نورٍ مهلكة. ثم بعدَ هُنَيَّةٍ جَعَلَ رشيدٌ يطرقُ بابًا، ومن حولنا كلابٌ عقورةٌ تعوي، تريد أن تنقض علىٰ رجله.

صاحَ بالدار: «قوموا يا أولي الشرف! مصيبةٌ عظيمة!»، فلما فُتِحَ البابُ أسهبَ في ذِكرِ خبرِ القتالِ الفظيع، الذي هلكَ فيه المتحاربون من الفئتين. وقالَ لهم: «قُطِّعوا إربًا إربًا. وقد عايَنَّا جِيَفَهُم. وإن كنتم في ريبٍ مما أقولُ، فاسألوا

مولايَ، وها هو ورائي، وهو من كُبراءِ الإنجليزِ، وقد عُرِفَ بين الناسِ بأمانته».

وكنتُ قد أعددتُ نفسي لأشهدَ علىٰ صدقِ كلِّ كلمةٍ قالها.

ثم ما مرَّتْ هُنَيَّةٌ إلا والقريةُ كلُّها قد هبَّتْ.

ووافقَ أنَّ هذه القريةَ كرسيُّ مدير مديرية[1]، وتحت يدِهِ جندياِنِ يأتمران بأمره. انتبَهَ هذا السيِّدُ من نومِهِ، وجاءَ يسائلنا، ثم خرجنا من هذه المساءلة بأنْ أَرسلَ الجنديين معنا ليطَّلِعَا علىٰ المعركة. ورافقنا -رغبةً في الاطلاعِ علىٰ الأمرِ- حشدٌ من الفلاحين متسلحينَ بالعصيِّ حاملينَ الفوانيس. ورجعنا مشيًا؛ لأنَّ خيلَنا قد نالَتْ كفايتها من السفرِ، وحفَّنَا الحشدُ الصاخِبُ، لا تنقطِعُ أسئلتهم عن الحادثةِ العجيبة. عمَّتْ ضوضاؤنا الغابةَ وسمعنا صداها يرجِعُ مِن جُرْفٍ مرتفعٍ. ثمَّ طلَعَ الفجرُ ساعةَ وصولنا إلىٰ الموضعِ الذي رأينا فيه أعضاءَ الآدميينَ، وما صارت لنا حاجةٌ في الفوانيس.

كنتُ أنا ورشيدٌ مُوقِنينِ أنَّ هذا هو المكانُ، فسرنا إليه مُقْشَعِرِّينَ تخَوُّفًا.

لكنَّا وجدناه خاليًا لا شيءَ فيه.

فشهق رشيدٌ رُعبًا، وذكرَ اللهَ فقالَ: «أعوذُ بالله! أقسم بمَنْجَاتي أنَّا رأيناهم ها هنا. باسمِ اللهِ علينا، إن هذا لسحر!».

واختلفَ أصحابنا علىٰ قولين؛ فمنهم من رأىٰ أنَّا كنَّا لهوَ الشياطينِ، ومنهم ومن رآنا نكذب.

ثمَّ تشمَّمَ رجلٌ وقالَ:

«أَجِدُ رائحةَ الموت!».

وما كان في الرائحةِ شكٌّ البتة. ثمَّ صاحَ أحدُ جنديَّيِ المديرِ وكان يفتش في الأدغالِ:

«وجدتُ بقيَّةً من يد».

ضربَ شيخٌ علىٰ رجلِهِ، وقالَ: «انكشَفَ لي الأمرُ يا أصحابي، وليسَ ها هنا سحرٌ ولا كذب».

---

(١) المدير: هو والي المديرية، وكانت البلادُ تُقَسَّمُ إلىٰ محافظاتٍ، وتُقَسَّمُ المحافظاتُ إلىٰ مديريات.

ثم ضحك، وأخذ بذراعي يسألني أن أرافقه. فسِرنا في الغابةِ شيئًا قليلًا، ثمَّ أراني هناك ثلاثةَ أضرحةٍ للدروزِ نائية في ظلِّ أشجارِ الآس. وهي أبنيةٌ من حجرٍ وطينٍ كأنها بيوتٌ صغيرةٌ، لكلِّ واحدٍ منها فُرجةٌ منخفضةٌ استوت بالأرضِ، وفرجةٌ أصغرُ منها جدًّا كأنها نافذة، ارتفعت عن الأرضِ بقدرِ ارتفاع المَرفِق.

قالَ مُرشِدِي: «أترىٰ؟ هذه مقابر. وقد أفرطوا في توسِيعِ الفرجةِ التي في الأرضِ، فدخلت منها بناتُ آوىٰ ونبَشَتِ الجِيَف. وإن القومَ الذين بنَوْا هذه القبورَ لحمقىٰ، ضلُّوا عنِ الحقِّ. فيحسبون أنَّ أرواحَ الموتىٰ تحتاجُ إلىٰ الطعام والنورِ، وتحتاج أيضًا إلىٰ فُرجةٍ تخرجُ وتدخل منها زحفًا. وقد سمعتُكَ آنفًا تسألُ فتاكَ عودَ ثِقاب. فتعالَ معي أريك أين تجدها دائمًا».

ثم أخذني إلىٰ أقربِ حريضٍ، وأدخلَ يَدِي في جُحرٍ ضيِّقٍ كان كأنه نافذة. فلمَستُ رُكامًا من أعوادِ ثِقابٍ سألني أن آخذها وأضعها في جيبي، وقالَ:

«ليست هذه سرقةً؛ فلك أن تقولَ: إن أصحابَ هذه الثِّقابِ نبذوها. وسيظنُّ هؤلاءِ الحمقىٰ أنَّ الموتىٰ هم مَن استعملها. وكانوا يضعون شموعًا وعلبةَ ثِقابٍ في اللحدِ، فلما شاعت بينَ الناسِ ثِقابُ الكبريتِ هذه آثَرُوها كَيْ يقتصدوا. فإذا جئتُ الغابةَ أشتغل لم آخذ معي نارًا؛ لأنِّي متيقِّنٌ من وجودِ وسيلةٍ أوقِدُ بها النار. والحمد للهِ علىٰ حماقةِ بعض الخلق».

فشكرتُه علىٰ هذه الحيلةِ، ثم رجعتُ بجنبِ رشيد، وكان يتذاكر مع القوم التلبيسَ الذي لُبِّسَ علينا. بيدَ أنَّهم أجمعوا أنَّ هذا الخطأَ متوقعٌ من رجالٍ حيارىٰ تائهينَ في ظلامِ الليل.

الباب الخامس والعشرون

قَـتَـلَـة

كنت أنا ورشيدٌ نسير إلىٰ طرابلس، وأطلنا التفتيشَ عن خيمةٍ معيَّنةٍ بجانبِ الطريقِ فيها خفائفُ أكلٍ وشربٍ يتقوىٰ بها المرء، وقد نصبها تاجرٌ نصرانيٌّ من أهلِ تلك القرية في الصيفِ قبلَ أشهرٍ حتىٰ تكون ترويحًا للمسافرين. ثمَّ لما ظهَرَتِ الخيمةُ لأبصارِنا بعد إبطاء، رأينا حشدًا من الناسِ يستجمون علىٰ الأرضِ أمامَ ظُلَّتِها. ثم ما لبثوا أن غابوا عنَّا مرةً ثانيةً لما هبطنا في الوادي، وما رأيناهم إلا لمَّا عَلَوْنا عُدْوَتَهُ الأخرىٰ وقاربناهم. قلت لرشيدٍ حينئذٍ: إنَّ غالبهم مقرَّنون في الأصفادِ، عليهم نَفَرُ حَرَسٍ من الجندِ الأتراك.

فقالَ رشيدٌ: «مجرمون في طريقهم إلىٰ سِجنِ الأشغالِ الشاقة».

ثم لما ترجَّلنا، سألتُه: «ما صنعوا؟».

فسارَ الهُوَينىٰ إلىٰ مرافقيهم واستقصىٰ منهم الخبرَ، ثم رجَعَ إليَّ وقال: «هم قَتَلَة».

وبعد أن عرفتُ خبرهم، عجبتُ ونحن نتغدىٰ من أنَّ وجوهَهُم طليقةٌ، وأنهم خاضوا في الحديثِ مع حرسِهِم وضاحكوهم. وكنتُ قد علمتُ أنَّ البلادَ المشرقية لا ترىٰ الجريمةَ جُملةً كما نراها نحن؛ فالمشارقةُ لم يعهدوا الإحساسَ بالنفورِ من المجرمين كأنَّ فيهم عَدوىٰ، كما ترىٰ في خُلُقِ الإنجليزِ إذا عاملوا مَن عصىٰ قانون بلادهم. لكنِّي مع ذلك لم أكن متهيِّئًا لمخالطةِ عُصبةٍ من القَتَلَة.

حَفَلْتُ بأمرِهم، ولمَّا رأيتُ رشيدًا قد استأنسَ بمحادثتهم تبيَّنتُ أنْ ليسَ في القربِ منهم مَخُوف. فدنوتُ منهم لمَّا فرغتُ من أكلي، وأعطيتهم سجائرَ، فأضَجُّوا بشُكري. وفي وجهِ كلِّ واحدٍ منهم من السرور ضحكةٌ أعرَبَتْ عن براءةٍ كبراءةِ الأطفال. وكان فيهم رجلٌ جلسَ مُنْتَبِذًا مغتمًّا، وهيئته قريبةٌ من الصورةِ الحاصلة في ذهني لما ينبغي أن يكونَ عليه قاتلٌ في طريقه إلىٰ سجنه. ثم تنبهتُ علىٰ أن هذا الرجلَ ليست عليه سلسلةٌ، وعجبت من ذلك. فذهبتُ إليه وغمزتُ مَنكِبَه، فرفعَ بصرَه حينئذٍ، ورآني مددتُ يدي بسيجارةٍ أريده أن يأخذها. فبادرَ إليها وحيَّاني من غيرِ أن ينطق ببنتِ شَفة.

فتكلم رجلٌ من القومِ بصوتٍ رقيق وقالَ:

«لا تَلُمْهُ يا مولانا؛ فقد ذهبَ عقلُه من الحزن، وهو أشقىٰ منا جميعًا. كان الله في عونه؛ فقد قتل أحبَّ امرئٍ في الدنيا إليه؛ قتلَ أخاه الأوحد».

فسألتهم وما زال في نفسي شكٌّ: «إذًا فذلكم حقٌّ أنكم قَتَلَة؟».

قالَ: «إي والله حقٌّ، يا حسرتنا! وإنَّا ملاقون جزاءَنا بسنةٍ نُستعبَدُ فيها».

فصحتُ بهم: «سنة؟! أهذا وحدَهُ جزاءُ من قتلَ نفسًا؟».

قالَ: «أوليست تكفي يا صاحبَ الرفق؟ لا تَظُنَّ أنَّا قتلنا حقدًا أو رغبةً في كسب. وإنما قتلنا في غَضبةٍ، أو في نزاعٍ بالعصيِّ بين قبيلتين؛ كحالِ ثلاثةٍ منا. وهذا ابتلاءٌ من الله، ونسأله سبحانه أن يغفر لنا».

فسألته: «وكيفَ قتلَ هذا؟»، وأشرتُ إلىٰ قاتلِ أخيهِ، وهو جسدٌ واجمٌ، وقد صرَفَ فكري إليه بتَوَحُّدِه.

أجابني: «كان يناله رجلٌ غنيٌّ من أهلِ قريتِهِ بظلم وعدوان، وقِيلَ: إن هذا الرجل كان ينافسه في الحظوةِ عند فتاةٍ معينة. وكان جنونُه يُجَنُّ أحيانًا من هذا العدوان. فجُنَّ مرةً علىٰ هذه الصورةِ، وجاءَه أخوه وحدثه بكلمةِ لومٍ في مسألةٍ مختلفةٍ، فقتله. وكان لربما قتلَ زوجه وبنيه ونفسَه وهو علىٰ تلك الحالِ من زوالِ العقل. فلما استفاقَ ورأىٰ ما كسبت يداه ودَّ لو أنْ قتلَ نفسَه».

فقالَ رشيد: «هذا ابتلاءٌ من الله! وحسرتُه عقاب. فلِمَ يُسجَن وقد أصابه ما يكفيه؟».

تبسم خطيبُ القَتَلَةِ تبسُّمَ أسيفٍ وردَّ عليه: «ما كان أحدٌ من هذه البلادِ ليفكر بمعاقبتِه، لكنَّ أخاه كان خادمًا لتاجرٍ غربيٍّ، أحسبه يونانيًّا من خارج البلاد. ففوَّض الأمرَ إلىٰ قنصل بلاده؛ ولذلك..». وضرب حينئذٍ ثناياهُ البيضَ بظُفرِ إبهامه إيماءً إلىٰ انقضاءِ الأمر. ثم قالَ: «لكنَّ الرجلَ المسكينَ نفسَه لم ينكر ذلك، وكان كأنما سُرَّ بمرافقتنا إلىٰ السجن. ولعل نفسَه تستريح بما يلقىٰ من شاقِّ الأشغالِ وغليظِ المعاملة».

ولمَّا كانَ في رِحالنا بقيَّةُ زادٍ، فرَّقها رشيدٌ بأمري علىٰ القومِ قتلةً وجندًا، ففرحوا بها. وهذه الثُّلَّة التي خلَّفناها وراءنا ثلةٌ مرحة، باستثناء قاتلِ أخيه. وقد أكل الطعامَ بشراهةٍ لما قُدِّمَ إليه، ولم ينطق بكلمة.

قالَ سائرُ القَتَلَةِ: «شفاه الله! ورفع هذه الغُمَّةَ عن باله!».

مضيت أنا ورشيدٌ في طريقنا علىٰ سكةٍ طويلةٍ متعرِّجَةٍ، تهبطُ بنا من خلالِ قِصارِ الأدغالِ التي تفوحُ بأريجِ ريحانٍ وأشجارِ عودٍ بريَّة. وأردتُ أن أبين لرشيدٍ أنه لَبَّسَ عليَّ باستعمالِ اللفظةِ التي وصف بها أولئك الرجال، وما لهم من جُرمٍ إلا ما نسميه بالإنجليزيةِ المَنْسَلاتَر. ولزمني أن أسهب في شرحِ الفرق بين الأمرين؛ فلفظةُ (قاتل) العربيةُ تُطلَقُ علىٰ كلِّ من قَتَل[1].

ففَطِنَ إلىٰ قصدي في أسرعَ مما كنتُ أتوقع. وقال: «أها! فهمتَ سعادتك من كلامي أنهم قُطَّاعُ طريقٍ، أو قَتَلَةٌ أُجَرَاءُ، يقتلون الناسَ للتكسب. أولئك هم كبار المجرمين، ممن جزاؤهم القتل. وليس فينا من هؤلاءِ إلا قِلَّة. ويندر ها هنا أن يقتلَ لِصٌّ رجلًا إلا أن يقتُلَه ذاك الرجلُ فينتقمَ لنفسه[2]. أما القَتَلَةُ الأُجَرَاءُ فقد عرفتُ خلقًا منهم حين كنت جنديًّا، وليسوا بأهلِ سوءٍ، بل أهل خيبةٍ؛ إذ وقعوا في سنٍّ صغيرةٍ تحتَ أيدي رجالٍ متجبرين جَشِعِين. وغالبُ ما يكون من

(١) المنسلاتر: هو القتلُ من غيرِ سبقِ إصرارٍ وترصد. واختلافُ التفريقِ في الألفاظِ تبعٌ لاختلافِ الأحكامِ المترتبةِ عليها في شرعنا وفي قانونهم. راجع فقهَ السنة للسيِّد سابق، من الصفحة ٧٧٨، لتعرِفَ أقسامَ القتلِ في الإسلام. وقد تكلَّم أحمدُ ابنُ شاكرٍ في كتابِهِ حكم الجاهلية (ص ١١٨-١١٩) عن هذا التفريقِ الأوربيِّ لمَّا استوردته دولٌ عربيةٌ واستعملت أحكامه في أقضيتها، فراجعه.

(٢) يقول ابن بكثال هنا: «وقد ترجمتُ جملةَ رشيدٍ هذه ترجمةً لفظية».

القتلِ في هذه البلادِ إنما هو مما لم يحدِّثِ المرءُ به نفسَه، وإنما هو في غَضبةٍ، أو غَيرةٍ تطبق علىٰ العقل».

فلما ذكرتُ حُسنَ معاملةِ الحرسِ الأتراكِ لهم، قلب كفيه وقال: «وهل الحكمُ عليهم لبني آدم؟ عاقبتهم الدولةُ ها هنا فصرنا خيرًا منهم، ولربما كنا شرًّا منهم إذا حكمَ ربُّنا بحكمه. وإنَّ هذا الأمرَ لشديدٌ علىٰ هؤلاء الرجالِ الذين لقيناهم آنفًا؛ فأكثرهم إنما سُجِنوا لأنهم ما بلغوا من الغِنَىٰ ما يمَكِّنُهُم من دفعِ الدِّيَة. أما من كان ذا مالٍ، أو له أقارِبُ أغنياء، فمن اليسير لهم أن يصالحوا قرابةَ الميتِ بقدرٍ من المال علىٰ أن يعدوا موتَه طبيعيًّا، أو يتركوا طلبَ الثأر. قلتُ لك: إن الأمرَ شديدٌ علىٰ هؤلاءِ الرجال الذين لقيناهم آنفًا، خاصةً الرجلَ الذي قتلَ أخاه - ربطَ اللهُ علىٰ قلبه».

وكنتُ أطوفُ بالمدينةِ بعدَ أيام قلائلَ، ومررتُ بسجنها. وكان في وسَطِ بابه من وراءِ قُضبانِ حديدٍ رجلٌ بائسٌ يهزُّ علبةَ معدنٍ فيُخشخشُ السِّكَكَ التي فيها. جعلَ يسأل المارَّةَ صدقةً للسجناءِ المساكين. ثم مرَّ بهذا الطريقِ نفرٌ من سيَّاح إنجليز، وهم رجلٌ وامرأتان حسناوان، يؤمهم دليلٌ بارعُ الهيئة. فحدجوا بأبصارِهم هذا الشخصَ الرثَّ الواقفَ ببابِ السجن.

سألهم دليلُهم بالإنجليزيةِ: «أنتم تريدون أن تعطوا **شيء طفيف للسجينين؟**».

فسأله الرجلُ: «بأيِّ ذنبٍ سُجِنوا؟».

قالَ: «غالبُ الظنِّ في قتلٍ».

فأخذتِ الرجلَ حفيظةٌ وقالَ: «كلا! البتة!».

تجرأتُ وجئتهم، ثم بينت له أنهم ليسوا قتلةً بالمعنىٰ المستعمل عندنا، وأنهم يعوِّلُونَ علىٰ صدقاتِ الناس حتىٰ يُحَصِّلوا أدنىٰ بُلْغَةٍ من العيش. فكان جزائي وشكري أن أزلقني الرجلُ ببصرِه، وانقبضتْ وجوه المرأتين أنفةً، وقالوا: «أها، بالله عليك!»، وفي صوتهم تكبرٌ شديدٌ، حتىٰ إني استحييتُ وانصرفت. ولعل علَّةَ عدمِ إفلاحي هي أنني كنتُ لابسًا عمامةً كوفيَّةً وعقالًا، فظهرَ لهم أني من أهلِ البلد.

أما أنا فلا أزال أرىٰ من ذلك اليوم أن الصدقةَ علىٰ القتلة في البلادِ المشرقية واجبةٌ عليَّ.

الباب السادس والعشرون

أشجارٌ في الأرض

كان لنا في تفتيشي عن ضيعةٍ أشتريها عذرٌ في أن نزورَ أماكنَ كثيرةً قاصية، ونتعرف صنوفًا كثيرةً من أغربِ الخلق. ورُحِّبَ بنا في قرًى ببهجةٍ لا حدَّ لها، وتلقانا أهلُ قرًى بتحاملٍ وتجهُّمٍ وجلافةٍ ليست من الترحيب في شيء. ومع أنَّ صفةَ تلقينا قد تباينت، إلا أنَّا ما حللنا بمكانٍ إلا استُقبِلنا بقدرٍ من القِرىٰ، وعُرِضَ علينا كلُّ ما أردنا أن نرىٰ. فوقفنا علىٰ كثيرٍ من الأراضي من أشكالٍ شتىٰ، ولم تَفِ واحدةٌ منها بأولىٰ شروطي. وكنتُ أريد بيتًا لا أستحيي من سُكنايَ فيه، وأرضًا تُزرَعُ وتكفي سَعَتُها أن ترجعَ عليَّ بالكسب. وخُيِّلَ إلينا أنَّ العثورَ علىٰ أرضٍ تجمع هذين الأمرين متعذرٌ، أو هو متعذرٌ علىٰ ما جُعِلَ تحت تصرفي من المال.

وفتنتنا قطعةُ أرضٍ وتعلقنا بها حتىٰ مكثنا في القريةِ المجاورةِ لها أسبوعًا كاملًا، نختلف إليها كلَّ يوم لنطوفَ عليها وننظرَ أتُغيَّرُ فتكون صالحةً لحاجتي. وكانت فيها أجَمَةُ زيتونٍ معمرةٌ بهيجة، وفيها مدرجاتُ تينٍ وتوتٍ وخضراواتٍ فُرِّقَتْ كي تصيبَها شمسُ الصباح، وتنحدر من جنبِ الجبلِ إلىٰ وادٍ كثيرِ الشجرِ تحفُّهُ صخورٌ عالية. أما الماءُ فيها فوافر. لكن ليسَ في الأرض بيتٌ ذو بال. ففيها دورٌ ثلاثٌ مربعة، يسكنها عُمَّالُ الأرضِ إقامةً تعدِلُ المِلْك، فإذا اشتريتُ الأرضَ صاروا شركائي فيها علىٰ عُرفِ البلادِ. لكنَّها أرضٌ رخيصة، ولربما بَقِيَ لي من المالِ بعد دفعِ ثمنِها قدرُ ما أشرع به في بناءِ بيتٍ فاخر. فقد ذكرَ سليمانُ

لي أن: «الحاجات تنجَزُ ها هنا بالتدريج، وليس من أحدٍ يتوقع أن يرىٰ قصرًا دَفعةً واحدة. فابتدئ بحجرتين ومربِط، وزِد حجرةً كلما صارت عندك أربعون جنيهًا لا حاجةَ لك بها».

وأحسب قيمةَ البناءِ حُدِّدَتْ في ذلك الريفِ بأسره أربعين جنيهًا لكلِّ قبة، ويقصدون بالقبةِ الحجرةَ في الأبنيةِ؛ لأنَّ كلَّ حجرةٍ تُقَبَّب.

واستعصىٰ علينا أن نجد مكانًا نبني فيه البيتَ من غيرِ أن نعتدي علىٰ موضعٍ من الأرض مربح. ووقعتُ بعد مدةٍ علىٰ موضعٍ توسط أعلىٰ المدرجاتِ، فيه أشجار زيتونٍ غايةٌ في القِدَمِ، فجازَ لنا أن نجودَ بها. فلما استقرَّ رأيي علىٰ ذلك، قعدتُ وَسْطَ هذه الأشجارِ طَرِبًا أتأمل المنظرَ في الوادي. وكانت هذه البقعةُ -لعَمرِي- موضعًا رائعًا للدار.

قالَ رشيدٌ: «سيُرَىٰ منزلنا من بعيدٍ، ويبصر المسافرون في الطريقِ القاصيةِ نوافذَه تلمَعُ، وليَسألُنَّ عن اسمِ صاحبِه. مع أني كنتُ أُوثِرُ أن لو استقبلنا شمسَ العشيِّ؛ فالناسُ تنتشرُ ساعةَ المغيب أكثرَ من ساعةِ الإشراق».

وكانَ سليمانُ قد انسدحَ أمامنا علىٰ الأرضِ، يمضغُ ساقَ زهرةٍ، فغمغمَ بحكمةٍ وقالَ: «شمسُ الصباحِ أنجعُ في إنباتِ الزرع، وأصلحُ لظلِّ العشيِّ؛ وهذا أبهج».

وبينما نحن نتلكأ في حديثنا، إذ بأحدِ الفلاحين الذين شاركونا الأرضَ يعبر الشجرَ إلينا بطبقٍ فيه أكواب قهوةٍ أعدها لنتنشط بها.

زفرَ سليمانُ وقالَ: «سلَّمَ الله يديك يا قاسم، جئتَ حينَ قالت نفسي: (قهوة)».

بَرَقَتْ أساريرُ وجهِ الفلاحِ قاسمٍ من السرورِ بما أغدقنا عليه من الشكر، ثم قعد القرفصاء وسألنا إن كنا أجمعنا علىٰ أمرٍ بعد.

قلتُ: «نعم! سنقطعُ إن شاء الله أشجارَ الزيتونِ الثلاثَ هذه، ونبني مكانها بيتًا».

فانقلب حينئذٍ تبسمه جزعًا شديدًا، وقالَ: «لا يكونُ لكم هذا».

فسألته: «ولِمَ؟».

قالَ: «ليسَ لنا أن نمسَّ هذه الأشجار».

قلتُ: «لكنَّ الشيخَ عليًّا أخبرنا أن هذا المدرجَ له».

فقالَ: «وهو كذلك، هذا من جهةِ الأرض. أما الأشجارُ فلا».

قلتُ: «فلمن إذًا هذه الأشجار؟».

قالَ: «لقومٍ شتَّىٰ».

قلتُ: «فأنَّىٰ لي أن أعرف أشجارَنا من أشجارِهم؟».

قالَ: «لا يلزمك يا صاحبَ السعادةِ أن تشغلَ بالَكَ؛ فهم يحسنون التفريقَ بينها».

فقلتُ: «لكنْ لا بدَّ لهم أن يسيروا في أرضنا حتىٰ يبلغوا شجرَهم».

قالَ: «لا شكَّ ولا مِرية».

فقلتُ: «ما سمعنا بمثل هذا قطُّ!».

فقطعَ سليمانُ علينا الكلامَ، وكان واسعَ الحفظِ، وقالَ: «لربما! لكنَّها طريقةُ القومِ منذ طُوفانِ نوح. ولو تفضَّلْتَ سعادتك بقراءةِ التوراةِ لرأيتَ في خبرِ شراءِ سيدنا إبراهيمَ لمغارة المكفيلة أن أشجارَ الأرضِ ذُكرَت علىٰ حِدة».

لم ألتَفِتْ إلىٰ كلامه، بل أكملتُ مساءلة الفلاحِ هَلِعًا.

سألته: «كم رجلًا يملك هذه الأشجار؟».

قالَ: «عشرون أو ثلاثون».

فسألته: «ويجيئون أرضَنا ويطؤونها؟».

قالَ: «نعم، هو كذلك».

قلتُ: «فمن رئيسهم؟».

قالَ: «لا أعلمُ، لكنهم يقولون: إنَّ النصيبَ الأوفرَ فيها لمحمدٍ أبي حسن. وسهمه من الشجرِ كلِّه اثنا عَشَرَ قيراطًا، أي مثلُ أسهمهم مجتمعة. هذا الذي يقولونه، والله أعلم بالحق».

قلتُ: «فإني أودُّ أن أحَدِّثَ محمدًا أبا حسنٍ هذا».

وضعَ قاسمٌ يدَهُ علىٰ جبهته إيماءً بالطاعةِ وقالَ: «علىٰ رأسي، الآنَ آتيك به».

فلما أَفَلَ قالَ سليمانُ بحرصٍ: «ابرَأْ مِن أصحابِ القراريطِ هؤلاءِ. وإن سمعتَ كلمةَ قيراطٍ تُقالُ مرةً، ففِرَّ من المكانِ؛ فإني أضمن لك أنه بيتٌ للأذىٰ كلِّه. فمنذ أن يملك المرء قيراطًا أو قيراطين فقط، تكون له سلطةُ أربعين ألف رجلٍ ليؤذيك من غيرِ سبب».

فسألتُ: «وما القيراط رحمكم الله؟».

فأجابني رشيدٌ علىٰ ما عهدت من حرصِه علىٰ أن يبين الأمور: «القيراطُ لفظةٌ يُقَسَّمُ إليها كلُّ أمرٍ حسيٍّ أو معنويٍّ ويُجَزَّأُ من غير إعلان، وقد يقسم المرءُ قِسمَه كيفما شاء. والقيراطُ أمرٌ ليس له وجودٌ حقيقي إلا أن يتفق نفرٌ ويقولوا: (ها هو هنا، أو هناك). والقيراطُ..».

فقطعَ سليمانُ علىٰ رشيدٍ شرحَه قبلَ أن يتمه، وقال موجزًا: «كلُّ شيءٍ ينقسم إلىٰ أربعةٍ وعشرين جزءًا، الواحدُ منها قيراط. فهَبْ أنَّ نفسي مرِضَتْ، وسألتُ الطبيبَ: (كم قيراطًا من الرجاء عندي؟)، فمن جوابِهِ أُسَرُّ أو أيئسُ؛ كأن يقولَ: (أربعةً) أو (عشرين). ولو ملَكَ المرءُ قيراطًا واحدًا في شأننا هذا المتعلق بالعقارِ، لربما كانَ خيرًا له من أن يملِكَ الثلاثةَ والعشرين قيراطًا الأخرىٰ. والشاهد علىٰ ذلك: قصة جحا؛ وهو أدهىٰ رجلٍ خرجَ من هذه البلاد. وكان لجحا دارٌ من حجرةٍ واحدة. فلما أرادَ أن يكسب شيئًا من المالِ، أكرىٰ داره سنةً، وجعل المكتري يدفع الأجرةَ مقدمًا، واستبقىٰ لنفسه من الدارِ قيراطًا واحدًا. ثم ليُبَيِّنَ موضعَ قيراطِهِ، دقَّ مسمارًا في الحائطِ داخلَ الحجرة. ثمَّ بعد أن سكنَ المستأجرون أسبوعًا، جاءَ جحا بجرابٍ من فولٍ وعلَّقَه بمسمارِه. فلم ينكر عليه أحدٌ إذ لم يأخُذْ إلا حقَّه. ثم جاءَ بعد أيامٍ وأزالَ جِرابَ الفولِ وعلَّقَ ثومًا مكانَه. ثم رجعَ بعدَ أيامٍ بهرَّةٍ عجوزٍ تقادَمَتْ جيفتُها، وهلمَّ جرًّا. فما فتئ يجيء بأمورٍ مؤذيةٍ، حتىٰ أُكرِهَ المستأجرون علىٰ الخروجِ من الدار، وتركوا كراءَ عامِهِم من غيرِ عِوَض؛ إذ لم يتعدَّ جحا حقَّه. ولهذا أقولُ لك: احذر؛ فسيفسد الأرضَ أصحابُ القراريط هؤلاءِ».

ضحِكَ رشيدٌ مسرورًا، وهمَّ أن يقُصَّ قصةً وقعت له لولا أن طلعَ قاسمٌ حينئذ. ومعه من الرجال عصبةٌ، لا رجل واحد، وعرفنا من حيننا أنهم أصحابُ الأشجارِ من صياحهم وهم مقبلون يقولون: إنَّا نأثمُ إن قطعنا الشجر.

سألتهم أن يختاروا خطيبًا لهم؛ إذ لم أكن أطيق أن أكلمهم جميعًا دَفعةً واحدةً. فقُدِّمَ إليَّ محمدٌ أبو حسن، وقعدَ القرفصاء علىٰ الأرضِ مستقبلًا إياي، مستدبرًا رهطه. وكنا تحت أغصانِ الزيتون وورقه فتخلل النورُ من بينها، وصوَّرَ الظلَّ علىٰ صفحاتِ وجوههم المنقبضة كأنه نقشٌ يمورُ. وبدت عليهم شدَّةُ اضطرابِ الفكر.

سألتهم: بكم يقبلونَ بيع هذه الأشجار؟ وأريتهم الأشجارَ الثلاثَ التي أردت قطعها كي أفسحَ للبناء.

فردَّ عليَّ خطيبهم قَلِقًا: «أتقصد مِلكًا؟ لا نبيعها لك ولو بخمسِ مئة جنيه. لكنَّا قد نبيعك منها سهمًا».

قلتُ له: «لا أريدُ منها سهمًا، بل أريد أن أقطعها».

فصاحوًا حينئذٍ جميعًا أنَّ هذا لا ينبغي.

قلتُ لهم: «الشجرُ لكم حتىٰ بعد قطعه، فسأوتيكم خشبَهُ تستعملونه في حاجتكم. ولكم فوقَ ذلك قدرٌ طيبٌ من المال».

فأطالوا التشاور همسًا قبلَ أن يرجع إليَّ محمدٌ أبو حسنٍ بالجواب. ثم قالَ بعد إبطاء:

«لا يكون لك ذلك. اعلم أنَّا جميعًا من عَقِبِ رجلٍ واحدٍ كانت له هذه الأشجار في سالفِ الدهر. لكنا لسنا إخوةً، ولا بني عمٍّ، فبيننا تحاسد. ونحن نختصم كلَّ عامٍ في غلة هذه الأشجارِ حتىٰ نكاد نقتتل، وكلُّ واحدٍ منا يظن أنه قد غُشَّ في سهمه. لكنَّ الأمرَ ليس بشديدٍ؛ إذ يؤمل كلُّ رجلٍ أن يُعوَّضَ في العام المقبل بسهمٍ أكبر. فهَبْ أن لنا قدرًا من المالِ بدل شجرٍ تؤتي ثمرها كلَّ عامٍ. فالقِسمة في هذه الحالِ ليس فيها عِوَض، فمن ظنَّ أنه خُدِع، سيحمل في صدره غِلًّا إلىٰ يوم القيامة. ولهذا أقول لك: إنا لن ندعك تقطعها، لكنَّا مع ذلك

رضينا أن نبيعك كلَّ شجرِنا في هذا المدرج؛ شريطةَ أن تجعل لنا من شجرِكَ كلِّهِ، هذا وغيرِه، قيراطين فقط».

فصحتُ بهم غاضبًا: «أخربَ الله بيتَ قيراطيكم! ما أريد منها شيئًا! ولن أجعلَ داري في جوارِ قومٍ بلغوا من الحمق هذا المبلغ، وسأفتش عن ضيعةٍ في موضعٍ آخر».

فتبسم الفلاحون ضاحكين من دعائي علىٰ القيراطين، وغمغموا يعتذرون إليَّ. وبدا عليهم وهم ينصرفون أن نفوسهم قد اطمأنت.

ثم أشارَ عليَّ سليمانُ برأيٍ سديدٍ، وكان قد لزِمَه أن يفارقنا من الغد.

فقالَ: «لن ينفعك أن تعامِلَ الرَّعاعَ ممن سكنوا حقيرَ الدورِ وقَذِرَها، وأرادوا أن يستوفوا كلَّ منفعةٍ من أراضيهم الصغيرةِ. وإن لك صاحبًا من كبارِ شيوخ الدروزِ، فاذهب إليه في حصنه، واذكر له رغبتك. فله بيوتٌ كثيرةٌ فاخرةٌ لا يستعملها، ولن يتشدد في الثمن؛ لحبه إياك. وسيرىٰ أن في تفضله علىٰ رجلٍ إنجليزيٍّ سبيلًا يحصل بها علىٰ الحظوةِ عند الحكومة البريطانية. فإن له مساعيَ في السياسة. وكلُّ رجلٍ عظيمٍ إما أحمقُ وإما آثمٌ».

قالَ رشيد: «هذا خيرُ الرأي!»، ثم انطلقنا بمشورته، لمَّا لم يكن في رؤوسنا خطَّةٌ غيرها.

الباب السابع والعشرون

شـراء الـبـيـت

حتىٰ سراة الناس في المشرق يقومون بكورًا، وقد وصلت إلىٰ حصن شيخ الدروز السادسةَ صباحًا في الصيف، فوجدت حشدًا من أهل الجبالِ في أرديةٍ سودٍ وعمائمَ بيضٍ قد وقفوا ببابه ينتظرون أن يأذن لهم سموُّه، فلم أعجب من ذلك. بل لم أعجب من أني وجدت سموَّهُ متيقظًا منبعثًا في شأنه حين أُدخلتُ عليه قبل القوم لأني كنت أثيرًا عنده. وإنما عجبت من لباسه؛ إذ تزيًّا بمعطفٍ إسطنبوليٍّ وبكلِّ ما يلحقه من ثقيلِ اللباس، وهذا في زمانٍ ما زال فيه أرفعُ أهلِ الأدبِ من الباشاواتِ يلبسون لباسَ العرب. أصغىٰ إليَّ وأنا أحدثه برغبتي في أن أثوِيَ ببلادِه، وعجب منها وبدا عليه السرور، وأجلسني إلىٰ جنبه علىٰ أريكةٍ في غرفةٍ عظيمةِ الفساحةِ، أفسدها في رأيي أثاثٌ فرنجيٌّ تمجُّهُ العيونُ، ولوحاتٌ زيتيةٌ لملوكِ أوربَّةَ زيَّنَتْ جدارَه.

جلسَ يفكر بصورةٍ ظاهرةٍ كعادةِ المشرقيين إذا فكروا، وهو يشدُّ بإصبعه علىٰ جبهتِهِ، ثم قالَ:

«لي دارٌ قريبةٌ في الجهةِ الثانيةِ من الشِّعبِ، ولعلها خَربةٌ قليلًا. بيد أنَّا نقدر علىٰ إصلاحها عما قريب. هلمَّ إلىٰ النافذةِ؛ فالدار تُرىٰ من هنا». وأشارَ إلىٰ برجٍ فيه شيءٌ من العَرَاضةِ، في رأسِ قريةٍ مليحةٍ وسط بساتين. ثم قالَ: «إن وددتَ أن تعاينه ذهبنا إليه بعد أن أستقبل قومي».

ودعاني إلىٰ استقبالهم معه، إلا أني رأيتُ الحشدَ الواقفَ ببابه، فرأيتُ أن من الحكمةِ أن أرجع إلىٰ خانِ القريةِ حيثُ تركتُ فرسي، فأصيب فَطورًا، وأنَبِّئ رشيدًا كي يعد لخروجنا.

ثم رجعتُ بعد ساعتين، فوجدتُ الشيخَ قد استوىٰ علىٰ جوادٍ رائعٍ، يقوده خادمٌ يضاهيه في الروعة. وكان قد انطلق يفتش عني، وفي إثره نصفُ خلقِ الله علىٰ قولِ رشيد.

ثم سرنا -لعَمري- في موكبٍ طويلٍ يتحدر تعرُّجًا من صببِ الجبلِ في طريقٍ حَجِرٍ، وقد غشينا ظلُّ الحوائطِ وما تدلىٰ من فوقها من أغصانِ الشجر. هبطنا إلىٰ الوادي، وعبرنا جدولَه، ثم صَعِدنا ضفته الثانية.

لما بلغنا القريةَ وجدنا أهلها قد هاجوا واضطربوا، وحُشِروا علىٰ بكرةِ أبيهم إلىٰ ميدانٍ رحبٍ، أو أرضٍ مستويةٍ إن كانوا خيَّالة. وانتشرَ الملأ أمام الدارِ التي لربما تصير داري. وكان في وسطِ هذا الميدانِ شجرةُ خُرْنوبٍ بهيجةٌ معمَّرة، حُوِّطتْ من عندِ أصلِ جذعها الضخمِ بدَكَّةٍ من حجارة.

أما البيتُ فحصنٌ قديمٌ مبنيٌّ بصُلبِ الحجارةِ، وفيه أثقابٌ للرماةِ، ونوافذُ حديثةٌ أيضًا. وله بابٌ مقنطرٌ في أعلىٰ درجٍ من حجارةٍ عريضة. واستقرت أمامه بيوتُ القريةِ الصغيرةُ حتىٰ بدت كأنما هي ترقىٰ إليه لتحتمي به.

أقبل علينا رجالٌ ذوو بالٍ وحيَّوُا الشيخَ، فترجَّلَ مستعينًا بهم كأنهم عبيده. وعرَّفني الشيخُ بدرزيٍّ متعممٍ مهيبِ المنظر، وقال: إنه الذي سكنَ الدارَ الآن. وعرفني بابن هذا الدرزيِّ المتعممِ، وكان يعرف شيئًا من الفرنسية وتشوَّقَ إلىٰ الإذاعة بها.

سُئِلَ هذا المتعمم، واسمه الشيخُ حسينٌ، أن يُذَكِّرَ رئيسَ قبيلتِهِ بتفاصيلِ أوصافِ البيتِ والضيعةِ وحقوقها الإقطاعيةِ وما لها من فضائل. فذكَّرَه بذلك كلِّه، وكان كأنما يؤدي إليه الواجبَ، وفي صوته أسًى شديد.

قالَ ابنه بالفرنسية: «أنت **تأتي** تسكن، ونحن **يجب** نذهب. والدي **هو** لا يحب **أنه** يذهب؛ لأننا نسكن **رخيص** برُخص التراب». فعرفتُ من قولِه أنهم سكنوا في الدارِ من غير كراءٍ حتىٰ صاروا يرونه دارَهم هُم.

ثم خُبِّرتُ أنَّ صاحبَ الدارِ له السلطةُ علىٰ الميدانِ، والميدانُ سوقُ المدينةِ أيامَ السِّلمِ، وله خُمسُ الشجرةِ العظيمةِ التي توسطته، وله أيضًا خُمسُ الماءِ الذي نبع والذي سينبع من عينِ القريةِ العظيمةِ. وله أن يستخدمَ الفلاحين يومًا في السنةِ جزاءَ حمايته لهم من الأعداء. وهذا كلُّه غيرُ أرضِ الدارِ التي سنعرج عليها فيما بعد. ثم سألتهم: كيف أقدر أن أضمن خمسي من ماءِ العين؟ فأنبأني الشيخُ أنَّ ذلك يكون إذا نضب منبعها في مواسم القحط، ولم ينضب قطُّ، والحمد لله.

اطلعنا علىٰ البيتِ، وسرَّتني حجراتُه الفسيحةُ المقببة، وقد بدت فيها قدورُ الشيخِ حسينٍ ومقالِيه وفُرُشُه صغيرةً ما تكاد تُرىٰ. وتضاءل نسوةُ بيتِ الشيخِ حسينٍ، وكنَّ قد انتقبنَ لدخولنا. ثم ركبنا خيلنا بعد ذلك وانطلقنا إلىٰ الأرضِ لنعاينها، وكانت منتشرةً في عُرضِ الجبلِ، مدرج ها هنا، ومدرجٌ هنالك. فأطلنا جدًّا إلىٰ أن رأيناها بأسرها.

نَصِبَ الرئيسُ فنزلَ عن فرسِهِ، وقعد في ظلِّ أشجارِ لوز. ثم أمر الشيخَ حسينًا أن يأتينا بخفائفَ نتنشطُّ بها. صاحَ صاحبنا، فانكمشَ جماعةٌ من القرويين في ذلك. وجلسنا غيرَ بعيدٍ، ثم قُرِّبَتْ إلينا أكلةٌ من كعكٍ مُعَسَّلٍ وفاكهة، وشعائرُ إعدادِ القهوةِ قائمةٌ عندنا في الظل.

جعلَ الشيخُ حسينٌ يذكرُ الله بسُبحتِهِ، ويقولُ: «الله! الله!».

وقالَ ولده طويلُ الأملِ بالفرنسية: «أبي حزينٌ كما أنت يراه، هو لا يحب أن **يقوم بالرحيل**». منغمًا صوتَه بسرورٍ شديدٍ يجمُل به أن يبديَه عند رجلٍ رفيعٍ مثلي لم يلقَه إلا الساعةَ.

صاحَ رئيسُ القبيلةِ في غضبةٍ: «ما أشدَّ الحر! لعنَ الله دينَ هذا الذباب!».

ثم خُبِّرتُ أن الشجرَ كلَّه بدون استثناءٍ تابعٌ للأرضِ، وسرَّني ذلك. وسيكون لي خُمسُ خراجِ هذه الأرضِ من أيِّ صنفٍ تُؤتيه، وأما سائرُ الخراجِ فللفلاحين، وهذا حقُّهم من سالفِ الدهر. فما كانتِ الناس في تلك البلادِ تعرِفُ المرتب لحرثِ الأرض.

تضرَّعَ إلينا الشيخُ حسينٌ وسألنا أن نرجِعَ فنتغدىٰ في بيته، وحاجَّنا أنه قد أمرَ بمأدبةٍ عظيمةٍ أن تُعَدَّ، إلا أن رئيسَ القبيلةِ قال له: إنَّا أشغلُ من أن نُرَخِّصَ

لأنفسنا في هذه اللذات. وكنا حينئذٍ أسفلَ من القريةِ قليلًا، فلم نرجع إليها. وإنما سرنا ركوبًا في دربٍ بين البساتين حتىٰ وجدنا السكة التي تنزل إلىٰ الشِّعب.

لمَّا استأذنَّا القومَ في أن ننصرفَ، لمَحَتْ عينا الشيخِ حسينٍ عينيَّ. وعيناه واسعتان، بَرَّتانِ، عسليَّتان، فيها حزنٌ مكظوم. وتكلَّفَتْ شفتاه تبسمًا أوجبَهُ الأدب.

قالَ ابنُه واسعُ الأملِ بالفرنسية: «**تكون** في حفظ الله، نراك **أنت** علىٰ خير».

ثم جاءني رشيدٌ من ورائي ونحن نسير وصبَّ في أذني حديثًا عن الشيخِ حسينٍ، وأنه كان يرجو لنا الشرَّ، ولو عزمنا علىٰ شراءِ الدارِ لما ادخر جهدًا في جعلِ مُقامنا فيه عصيبًا. وقد حادثَ رشيدٌ أهلَ القريةِ لمَّا كنا في الدارِ نطلع عليها.

ثم طمأنني، وفي صوتِه راحةٌ عظيمة، وقالَ: «لكنَّ غالبَ الناسِ معنا، ولا يحبون الشيخَ حسينًا؛ فهو بخيلٌ ومنافق. ويقولون: إنَّا إن شاءَ اللهُ مُذِلُّوهُ غايةَ الإذلال».

جلس يحدثني كأنما كنا في حربٍ، ونبصِرُ النصرَ رأيَ العين، بل كأنَّا وضعنا رِحالنا بالدار. وسررت بذلك جدًّا؛ لأني رأيتها بشارةً علىٰ راحةِ بالي إن اشتريت الضيعة. وكنتُ قد عقدت النية علىٰ شرائها إذا كان ثمنها مُتأتِّيًا لي.

كانَ جوابي لرشيدٍ: «أخشىٰ أن يكون ثمنها غاليًا جدًّا». فزفرَ منه زفرةً، وقال: إن الدارَ لها من الصفاتِ ما ينوِّهُ بذِكرنا.

رجعنا إلىٰ قلعةِ رئيسِ القبيلةِ وأُدخِلْتُ حجرته الخاصة، فشرعتُ من فوري في مسألةِ الثمنِ التي أقلقتني. قال لي: «الله يعلم أني أود أن أهَبَكَ بيتًا وأرضًا لرغبتك فيها. لكنَّ لي أراضي مرهونةً غيرَ هذه قد أهمَّتني؛ وذلك لأني أقدر أن أوفيَ زيادةَ الربا كلَّ عامٍ، وهي باهظة، إلا أني لا أجِدُ رؤوسَ الأموال في هذه البلادِ. فاقضِ عني هذا الدين، وخُذِ البيتَ والأرضَ، جزاكَ الله خيرًا».

ثم سمَّىٰ قدرًا من المالِ، فشككتُ فيما سمِعَتْهُ أذناي من شدَّةِ قِلَّتِهِ قياسًا بما قدَّرتُهُ ثمنًا للعقار. وهو قدرٌ لا يجاوز البتةَ ما في يدي من المال. وودِدتُ أن

أكتب له صكًّا بالمالِ من حيني وقبلَ أن أبرحَ مكاني، فنهاني وقال: «الله يعلم أني لربما أضعتُ الورقةَ، أو قطعتها حينَ غفلةٍ. فاذهب أنتَ إلىٰ غريمي فضلًا منك ولْتعطينَّه المالَ، ثم جِئني بصكٍّ أني في حِلٍّ».

ثم سمىٰ لي رجلًا إرمينيًّا أعرفه، دَمِثًا، متعلمًا، رِزقُهُ الكفاف، وما كانَ في تصوري إلا أنه أبعدُ مَن في البلادِ عن أكلِ الربا. ثم عرفتُ منه أن الربا ليس ديدنه؛ فقد أنبأني أنه ليس له استثمارٌ بهذه الصورةِ إلا القرض الذي أقرضه رئيسَ القبيلة. وكنتُ قد عرجتُ عليه عشيةً في المدينة، وسلَّمته صكَّ المالِ، وبينتُ له الأمر والخبر.

زفرَ إذ أخذَ الصكَّ وقالَ: «جررتَ عليَّ المضرة! أتعس به من يوم! إني لآمَنُ علىٰ مالي اليسيرِ هذا وهو عنده أكثرَ من المصرِف، وكانت تَدخلُ عليَّ كلَّ عامٍ فائدةٌ طيبة منه. فأنَّىٰ لي أن أجد الآن استثمارًا مثله؟».

جعلَ يُحَشْرِجُ ويكتبُ ليَ صكًّا بقَبضِ المالِ، فلما فرغَ انطلقتُ به إلىٰ الشيخِ، فشكرني وقالَ: إن البيتَ بيتي، وسيدوَّنُ ذلك رسميًّا.

فرجعتُ حينئذٍ إلىٰ الدارِ راكبًا، وتآمرتُ أنا ورشيدٌ فيما أردنا أن نغيره فيها، والشيخُ حسينٌ يتبعنا ومنظره كئيبٌ، وابنُهُ البشوشُ يبذل لنا النصيحةَ بفرنسيةٍ ركيكة. وكانا قد أدركا أن مقامهم في الدارِ قد انتهىٰ. فسلَّمَ الشيخُ حسينٌ بعد مدةٍ للأمرِ الذي ليسَ منه مناص، وصارَ يتألَّفني، بل وأشارَ عليَّ بمشورةٍ ردَّها رشيدٌ من حينه؛ فقد رآه ألدَّ أعدائنا. فلما رأىٰ الشيخُ إعراضنا عنه خضعَ وأذعن.

وقالَ ولده متهللًا: «أبي **إنه** سعيد، كما ترون. هو لا يريد **أنه** يذهب، هو يريد **أنه** يبقىٰ معكم **يكون** رئيسًا للخدم».

الباب الثامن والعشرون

خـيـبـة

لما كنت قد اشتريت بيتًا وأرضًا كما اشتهت نفسي، وأحسبهما ينوِّهان بذِكرنا في البلاد؛ كما قال رشيد، قضيتُ أني قد استحققتُ أن أنال شيئًا من الراحة. وهي جِبِلَّة فيَّ إذا قطعتُ أمرًا، أعتزِلُ مكانَ وقوعِهِ شيئًا قليلًا، وأوطِّنُ نفسي علىٰ هذا الأمرِ الحادثِ بالتدبر. فلما فرغتُ من تفحص الدارِ وأنا صاحبها هذه المرة، ارتحلتُ ومعي رشيدٌ في سفرِ عشرةِ أيامٍ إلىٰ موضعٍ لا تبلغه رسائلُ ولا برقيات.

فلما انقضتِ الأيامُ العشرة ركبنا إلىٰ بيروتَ، ونزلنا بخانٍ صغيرٍ كنا نختلف إليه، مبنيٍّ علىٰ مرسًى فوقَ البحر. ووجدت فيه رسالتين تنتظرانني، إحداهما من شيخِ شيوخِ الدروزِ الذي باعني البيتَ والأرض. كتبَ فيها:

«والله ما تجرَّعتُ قطُّ احتقارًا ولا شنارًا مثل هذا. ولعَمري ما كان هذا هو الظنَّ بصُحبتِك. وقد أطعتُ أمرَ القنصلِ، فبعثتُ كتابًا عاجلًا إلىٰ غريمي الخواجةِ فلانٍ، وأنبأته أنَّا قد غلطنا، وسألته أن يبعثَ بالصكِّ إلىٰ القنصلية البريطانية. وإني لأرجو الله أن تكون تَسَلَّمته سالمًا قبلَ أن يبلغك كتابي هذا. واعلمْ أنِّي قد أثقلني الوجعُ من هذا الإذلالِ العظيم، ولن أُعَمَّرَ بعدَ هذه الفضيحةِ النكراء».

أما الرسالةُ الثانيةُ فمن كبيرِ قناصلةِ فخامةِ ملكةِ بريطانية، وناشدني فيها أن أعرِّجَ علىٰ القنصلية من غيرِ إبطاءٍ، واحتوت الرسالةُ علىٰ صكِّي الذي كتبته للرجل الإرمينيِّ بقدرِ الرهنِ الذي كان له علىٰ صاحبي الدرزي.

قصدتُ القنصليةَ من ظهرِ نفسِ اليوم، ووجدتُ المكتبَ الخارجيَّ قد غصَّ بقومٍ إنجليزٍ وأدعياءِ أجلزةٍ عادتهم أن يجتمعوا هنالك للقيلِ والقال. فلما دخلتُ عليهم حمَلَتْهُم رؤيتي علىٰ صياحٍ فيه شيءٌ من السخرية. فأنا الشابُّ السمْحُ الذي لربما اشترىٰ قريةً بأسرها، من رجلٍ من أهلِ البلد أيضًا، من غيرِ أن يخطر بباله أن يدون مِلْكَ العقارِ باسمه. وبدا أنهم عرفوا عن المسألةِ أكثرَ مما عرفت. استحييتُ منهم، وأظن الكربَ بدا علىٰ وجهي؛ فقد تغيَّرَت أصواتهم إلىٰ تلطُّفٍ، وقالوا: «لا تبتئس يا رجل! فكلُّنا وقعنا في مثل ما وقعتَ فيه. وقد أحطتَ الآنَ بهؤلاء الشياطينِ خُبْرًا. واعلم أنهم سيختِلونك متىٰ ما تمكَّنوا. وليسَ عليك عارٌ من هذه الواقعةِ وأنت في سنِّك هذه؛ فالقوم دهاةٌ عفاريت».

وما خَبَرْتُ حتىٰ تلك الساعة، بل حتىٰ يومنا هذا، رجلًا من أهلِ البلادِ خدعني في عظيمٍ، أو غشَّني. ولكنَّ القصةَ تناقلها الناسُ علىٰ هذه الصورةِ، ولا شكَّ في أنهم ما زالوا يتناقلونها.

ثم دُعيتُ إلىٰ حضرةِ القنصلِ، فوبخني توبيخًا شديدًا لتواريَّ في أشدِّ أوقاتِ الحاجةِ إليَّ. وكنتُ قد كتبتُ إليه فرحًا أخبِّره بالصفقة. فسمعت الآن منه أنِّي لَزمني أن أنتظر جوابَه قبلَ أن أتمها. وعنَّفني بقوله: إن قِطَعَ الأرضِ ما هكذا تُشترىٰ. ولأني غِرٌّ جدًّا، ولأني أحمقُ -وهذه كنَّىٰ عنها ولم يصرح- تدخَّلَ ليوقِفَ البيعَ، وعلَّقَ طلباتٍ وإجراءاتٍ كان لا بدَّ منها قانونيًّا. فإن ذهبَ البائعُ إلىٰ المحكمةِ وسجل نقلَ المِلكِ، وأمضىٰ البيعَ علىٰ الوجه الصحيحِ: فبها ونعمت، مع أنه وقع في فهمه أنَّ البائعَ أَنِفَ من ذلك. فإن لم يفعل، فمشورته لي أن أدع الأمر كلَّه. ولا جرمَ وقَعَ كلامُه مني موقعًا عظيمًا؛ لأني أدرك أني غِرٌّ، ولأن للقنصلِ يدًا بيضاءَ عليَّ لا أكفرها. وحسبتُ أني كنتُ أحمقَ، بل مجنونًا، فعاهدته أن أصنع كلَّ ما يسألني إياه. ثم لما انصرفتُ من خلالِ المكتب الخارجيِّ وفي وجهي كآبةٌ أشدُّ من ذي قبلُ، هتف القومُ بي يزيدون في الابتهال إليَّ أنْ أبتهِجَ؛ فكلُّهم وقعوا فيما وقعتُ فيه.

ولما أخبرتُ رشيدًا بما باغتنا من خيبةِ الأملِ حزنَ أكثر مني، ولعنَ القنصل والدروزَ علىٰ حد سواء. إلا أنه -ونحن في مسيرنا إلىٰ الجبالِ- قلَّبَ بذهنه

المُصلِحِ مصيبتي حادثةً أُحكِمَتْ حتىٰ (تُنَوِّهَ بذكرنا)؛ فمنزلتي عاليةٌ في بلادي حتىٰ إن الملكةَ كتبت بنفسها إلىٰ كبيرِ قناصلها تأمره أن يستوصيَ بي، ويتحرَّىٰ ألا أكون خُدِعتُ لمَّا اشتريتُ أرضي. أما القنصلُ فكان قد غَفَلَ عني، ولم يعلم عن الأرض التي أردت شراءها شيئًا، فخافَ غضبَ الملكةِ، وفعلَ فَعلته الهَوجاء. ولم أسمع هذه الراويةَ حينئذٍ، ولم أسمعها من رشيدٍ مشافهةً، لكنها بلغت سمعي آخرَ الأمرِ بعد أن انقضىٰ صيتُها.

لكنَّا مع ذلك رجونا أن تؤولَ الدار والأرض إلينا.

دخلتُ علىٰ شيخِ الدروزِ فألفيته خارًّا إلىٰ وجهه في خنوعٍ واضطراب. حيَّاني بزئيرِ سبعٍ، وأخبرني بشدَّةِ العارِ الذي لحقه، والوجع الذي أثقله. ونظر إليَّ وفي عينيه العذلُ والملامةُ. فما الذي فعله قطُّ بي واستحقَّ به أن أرسل هذا الشنارَ لينصبَّ عليه صبًّا؟ فاحتقرت نفسي عنده واستحييت، رجلٌ كريمٌ عومل معاملةَ الأراذلِ بسببي.

ما فتئ ينوح علىٰ نفسه ويقول: «إني لأعلم أني لن أحيا بعد هذه المهانة كلها، وسأهلك. وإن عشيرتي قاطبةً تعرف كيفَ عوملت - مثلَ الكلب».

قلت له: إن المسألة قد وقع فيها لبسٌ، وإن كلَّ ما أصابه من عارٍ فهو جريرتي؛ لأني آثرتُ لذَّةَ نفسي وغِبتُ في الساعةِ التي لربما أجَرْتُه فيها بكتابٍ هيِّنٍ أبين فيه الحقَّ.

حشرجَ الشيخُ وقالَ: «لن يتيسَّرَ بُرئي. ورجعَ عليَّ الدَّينُ الذي فرحتُ بقضائه».

فبيَّنتُ له أن القنصلَ لم يوقِفِ البيعَ إيقافًا باتًّا، وإنما علَّقه علىٰ شرطِ استيفاءِ الإجراءات القانونية اللازمةِ لنقلِ المِلكِ قبلَ أن أدفع الثمن.

قلتُ له: «ما يريد من سموك إلا أن تتفضل فتجيءَ قائم المقامِ ومعك شهود، وتكتبَ لي عقدًا بنقلِ المِلك».

فما فرغتُ من قولي هذا، وقد تلفظت به بنيةٍ حسنة، إلا وهذا الرجلُ العظيمُ يرتعد رعدةً شديدةً، ويتلوَّنُ وجهه، حتىٰ خشيتُ أن يُصرَع. ثم بدأ الغضبُ يُسَرَّىٰ عنه، حتىٰ قالَ آخرَ الأمر: «هذا رأيٌ ظالمٌ، وما أظنُّ أحدًا اقترحه

علىٰ القنصل إلا أعدائي. فاعلم أن الرجل الذي تقلد الآن منصب قائمِ المقامِ خصيمي وأعدىٰ أعدائي. ولم نجتمع لحوارٍ سنينَ عددًا، وإذا تلاقىٰ خدمنا في طريقٍ عَرَضًا اقتتلوا. وقد كنتُ قبلَ خمسِ سنينَ في منصبِ الوالي الذي تقلَّدَه الآن. فمشىٰ إذ ذاك في إسطنبولَ بالنميمةِ عليَّ والمكر الخبيثِ، حتىٰ خلعني وغلبني علىٰ الولاية، فحلفتُ يومئذٍ بالأيمان المغلظة ألا أُقِرَّ بالحكومةِ أبدًا، وألا أطلبهم رخصةً في أمرٍ ما دام هُوَ وكيلَهم. ويسألني القنصلُ الآن أن ألتجئ إليه. أما والله إني لأوثِرُ أن أنصَبَ علىٰ رمحٍ حيًّا».

وسكتَ ساعةً يكتمُ غيظَه، ثم قالَ:

«لكن سأصنع لك هذا. سأنادي نقباءَ قومي جميعًا إلىٰ حضرتك، وهم رأسُ كلِّ آلِ بيتٍ، وأُشهِدُهُم قاطبةً أنَّ العقارَ لك. وآمرهم أن يقسموا بالله أن يقاتلوا دونك ودونَ خلائفك فيه من بعدك، وأن يبذلوا مُهَجَهَمْ إذا استلزم ذلك، وأن يُوَرِّثوا عقِبَهم من بعدهم هذا التكليفَ فرضًا مغلظًا. وأحسب هذا يكفيك كي تضمن مِلكًا مطمئنًّا وإن مِتُّ. ولعلي أهلِكُ مما لقيت من معاملةٍ ما سمع بمثلها أحدٌ قطُّ. وإن أحياني الله إلىٰ زمانٍ خيرٍ من هذا، أرىٰ فيه عدوِّي يُعزَلُ من منصبه، فلك حينئذٍ أن تنالَ شهادةَ الحكومةِ التي رأىٰ القنصلُ أن لها هذا الشأنَ العظيم».

وقد عرفتُ الساعةَ أنَّ الميثاقَ الذي عرضه لي لَيَزِنُ أكثرَ من كلِّ سجِلٍّ قانونيٍّ في تلك البادية، وهو أن يجيء قومَه، وهم لا جرمَ كانوا سيصيرون جيراني، ويفرض عليهم كافةً فرضًا مغلَّظًا أن يذودوا عن حقي. بل إنَّ الإرمينيَّ الذي سُرَّ باستمرار رهنه، أخبرني بمثلِ ذلك لما لقيته مرةً ثانيةً في المدينة. ورآني سَفِهتُ نفسي إذ لم أسارع إلىٰ قبوله، لا سيما أنه باعني الأرضَ بثمنٍ بخس. إلا أنَّ نهيَ القنصلِ، ونذيرَ الجاليةِ الإنجليزية: كان له إذ ذاك في نفسي قدرٌ أعظمُ من رأي الإرمينيِّ، بل أعظم من رأيي، فما أنا إلا غِرٌّ.

قلتُ لشيخِ القبيلةِ: إنَّ عرضه هذا لا يجزئ.

فأنِفَ وقالَ: «فإني أعتذرُ إليك، ويُطوىٰ البساطُ ها هنا. فقد بيَّنتُ لسعادتك العلة التي تمنعني من الذهابِ إلىٰ المحكمةِ الآن».

حزن رشيدٌ لما أنبأته أني لم أفلح. ورجعَ يلعن الدروزَ، والقناصلَ جميعًا. وتشعبه الفكرُ ونحن قافلونَ علىٰ خيلنا من بينِ الجبالِ. ثم خَلَصَ إلىٰ أن هذا الأمرَ أيضًا يُنَوِّهُ باسمِنا، فلا ريب أن كلَّ رجلٍ دوننا في الرفعةِ كانَ سيسارع إلىٰ قَبولِ عرضٍ كالذي عرضه الشيخُ لي. أما نحن فلا، ولا بد أن تُنجَزَ كلُّ حاجةٍ عندنا علىٰ أكمل وجه. ونحنُ نعَضُّ علىٰ هذه الرسومِ المتبعة بالنواجذ.

وبقي أمرٌ واحدٌ ما استطاع رشيدٌ أن يرضىٰ به ويتجاوز عنه، قال: هو «فوزُ عدونا الشيخِ حسين. وإني لأكره أن إخالَه مرتاحًا في دارنا».

الباب التاسع والعشرون

في الجريمة والعقاب

إن شئنا أن نمكث في محلٍّ أكثرَ من يومٍ أو يومين، طافَ رشيدٌ بالأسواق ساعةَ وصولنا يستخبر عن المساكنِ التي تُكتَرىٰ فيه، وأجلس أنا في مقهًى أنتظره. ثم يرجع إليَّ في نحو ساعةٍ يبشرني بمسكنٍ طيب. فنتوجَّه إليه من فورنا بمتاعنا، ونربط خيلنا في أقرب خان.

كان خادمي خبيرًا ماهرًا بالاستعارة، حتىٰ إني ما سمعت قطُّ صوتَ تخالُفٍ بينه وبين من يستعير منه. بل وتُحِسُّ كأنما كان الجيران يجيئوننا فرِحين من تلقاء أنفسهم ليعيرونا القدورَ والمقالي وغيرَ ذلك مما نحتاجه. وكان أيضًا يطبخ ويتسوق من غير أن تشوب ذلك شائبة، فنحس بتلك الحُجَيرةِ البيضاءِ التي لربما اكتريناها أسبوعًا أو شهرًا علىٰ الأكثرِ كأنما هي بيتُنا.

وكان رشيدٌ يخاف من تَركي وحدي إذا اضطر إلىٰ الخروج في حاجةٍ، فأنا عنده مُفَرِّطٌ في متاعي، لا أؤتمنُ عليه البتةَ؛ وذلك لأنه يجله ويقدسه.

وكان يقول لي: «إذا أردتَ أن تخرج لتستروحَ وأنا غائبٌ فلا تنسَ أن تغلقَ البابَ وتضعَ المفتاحَ في مخبئه الذي عيَّناه لكي أجِدَه فيه. فإن في هذه الدنيا قومًا فَسَقَة. وإن جلستَ وحدك فاجعلِ المسدسَ علىٰ حبلِ ذراعك».

ثم أنبأني أن بيوتَ الناسِ تُسرَقُ في المدنِ في وَضَحِ النهار إذا خَلَتْ، لا في الليلِ إذا ضجَّتْ بغطيطِ النائمين. ولم أشكَّ في صدقِ زعمه، إلا أني خالفته في أني لم أرَ فيما حملناه شيئًا يستميل اللصوص.

فكان يغلظ لي الجوابَ ويقولُ: «لن أضيع إبزيمًا من حزامٍ، ولا حبَّةً من سمسمٍ بهذه السبل الخسيسة».

وخرجَ مرةً ذاتَ صباحٍ في دمشقَ، بعد أن تضرع إليَّ كعادته يسألني أن أكلأَ المتاع كلَّه بعيني. وكانت حجرتنا التي سكنَّاها في آخر دربٍ مسدود، فوقَ تسعِ درجاتٍ من حجارة. وهذا الدربُ يجيء من زُقاقٍ غصَّ بالناسِ، وقد أظلَّتْ طرفًا منه حينئذٍ شجرةُ آسٍ بهيجةٌ معمرةٌ، وحفه عن يمينٍ وشمالٍ متاجرُ فيها سِلَعٌ تنوعت ألوانها.

اضطجعت في حجرتنا علىٰ فراشٍ من وسائدَ مستعارةٍ، وجلستُ أقرأ كُتَيِّبَ قصصٍ اشتريته آنفًا، واسمُه: نوادرُ أبي نُوَاسٍ، ونظرتُ من مكاني إلىٰ الألوان في ذلك الزُّقاقِ وحركة الناسِ فيه، وكأني أنظر إلىٰ الطرف الثاني من مشكالٍ[1]، فالذي بيني وبينهم ظلٌّ دامس.

أقبلَ حينئذٍ رجلٌ من دربنا، ولا يكادُ يسلك دربَنا أحدٌ، فتصفَّحتُ هيئتَه، فألفيتها غريبةً. عليه قميصٌ أزرقُ بالٍ، وعلىٰ رأسه ضربٌ من العمائم كثيرُ الألوانِ ما رأيتُ مثلَه علىٰ أهلِ البلاد قطُّ، وتدلدلَ من جنب العمامةِ ذيلٌ أو ذؤابة. وبشَرَتُه كذلك أسمر بكثيرٍ من الشاميين، لكنَّ سَحْنَتَه -مع ذلك- ليست من الزِّنجِ في شيء. وأضحكني شيءٌ في هيئته وهو يتسلل قادمًا، وذكرني باللصِّ الذي يروع رشيدًا في منامه. أويتُ إلىٰ أظلمِ ركنٍ في الحجرةِ واضطجعت ساكنًا لا أتحرك. رَقِيَ الرجلُ الدرجَ، ووقفَ بالبابِ وسدَّه بجُثَّتِهِ، وجعلَ يمد بصرَه إلىٰ الحجرة.

ووافقَ أنَّ رشيدًا قد اشترىٰ في الصباحِ جرابًا من عدسٍ وتركه في طرفِ الحجرة. فأخذَ اللصُّ الجِرابَ، وهمَّ أن يفتش عن غنيمةٍ غيرِه إذ ظنَّ أن لم يره أحد. فجلست حينئذٍ وسألته عن شأنه. فوثبَ وثبةً، وقالَ: «لا شيءَ!»، ثم ولَّىٰ من فوره. أتأرتُه بصري وهو يفرُّ إلىٰ أن توارىٰ عني في زحامِ الناس.

---

(١) المشكالُ: آلةٌ كالمنظار يلعب بها، في آخرها ألوان بهية، كلما أدرتَ طرفه تغيرت هذه الألوان وتموجت.

لما رجعَ رشيدٌ قصصتُ عليه ما وقع في غيابه، فلم يضحك. بل أغلظَ لي السؤالَ عن صفته، فلما نعتُّه غمغمَ وقال: «هذا نوريٌّ (أي غجري)، ومَن مِن الناسِ يعلم مخابئهم؟ ولربما ثقِفته لو كان مدنيًّا أو قرويًّا واسْتَرْدَدْتُ العِوَض».

وكان يحدِّثُ نفسَه بهذا الكلام، ثم التفتَ إليَّ وفي وجهه التوبيخُ وقالَ:

«سرقَ جِرابَ عدسِنا وأنتَ تنظر إليه وهو يسرقه! وكان مسدسنا الفاخر علىٰ حبلِ ذراعِكَ، ولَمْ تطلق عليه مع ذلك!».

قلتُ: «ولِمَ أطلق علىٰ رجلٍ من أجلِ شيءٍ تافه؟».

قالَ: «لا تنظر سعادتك إلىٰ حجمِ المسروقِ وثمنهِ، بل انظر إلىٰ وقوعِ الجُرم. فمَن تعمَّدَ سرقةَ جِرابِ عدسٍ فهو رجل فاجرٌ، وإنْ فجرَ الرجلُ استوجبَ الموت، وهو يتوقعه».

قلتُ له: إن النفسَ لتَطِيبُ بجِرابِ عدسٍ لغجريٍّ، فأبىٰ أن يأخذ بهذا الرأي. وما فتئ يراجعني في أني عَجزتُ عن أداءِ واجبٍ افتُرِضَ علىٰ الناس. فلما لم يفلح خرجَ إلىٰ دكانٍ في الناحيةِ الثانيةِ من الطريقِ، وهو لِقهوجيٍّ كانَ يحفظ أكوابَه ومجمرته بنقبٍ في جذعِ شجرةِ آسٍ معمرة، ويضع في ظلها مقاعدَ لمَن يرتادُ مقهاه، وتعدت المقاعدُ إلىٰ طريقِ الناس. تبعتُ رشيدًا بعد دقائقَ فوجدته يقص علىٰ الجمعِ كافةً خبرَ السرقة. وتابعه هؤلاءِ السبهللُ جميعًا في أنَّ مِنَ الصواب إطلاقَ الرَّصاصِ علىٰ لصٍّ.

فما كانَ جوابي إلا أن قلتُ مستنكفًا: «أفي جِرابِ عدسٍ؟ يعلم الله أني لا أُضِبُّ في صدري علىٰ غِلٍّ مثلِ هذا لأحدٍ من العالمين».

فصاح القومُ حينئذٍ جميعًا: «معاذَ الله!»، وطفِقَ واحدٌ منهم يبين لي ويقول:

«من المعاصي أن تردَّ مسكينًا مُعْوِزًا قصدكَ يسألك بالله شيئًا كهذا. أما من نَهَبَهُ اختلاسًا أو قسرًا فشأنه مختلف. فهَبْ أنك قتلتَ -يا صاحب السعادةِ- هذا اللصَّ المجرمَ، فلو فعلتَ لما كانَ ينهبُ الآن من هم أفقر منا ممن تكون هذه النكبة أشدَّ عليهم. وهَبْ أنَّ جِرابَ العدسِ هذا هو كلُّ قُوتِكَ من الدنيا. فعسىٰ أن يكونَ في الدنيا من هم أفقر من ذلك».

فأنكرت عليه وسألته: «لِمَ أقتلُ رجلًا لم يعتدِ عليَّ؟».

قالَ: «بل لِمَ تترك قتله وقد تبيَّنَ لك فجوره؟».

ضحك القهوجيُّ وقالَ: «لِمَ تأبىٰ الفرنجة قتلَ الفجرة؟ وتُكَثِّرُ بين ظهرانيها الخبيثَ والطيب؟».

غمغمَ رجلٌ بلحيتِهِ وقالَ: «ذلك لأنهم لا دينَ لهم».

فسمعه رجلٌ مُسِنٌّ جليلُ القدرِ، ووافقه. ثم تكلم بصوتٍ فيه رفقٌ وإشفاقٌ، وقالَ:

«ذلك لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخرِ. فقضوا أنَّ المرءَ ليست له إلا هذه الحياةُ العاجلة، وأنَّ الموتَ آخر ما قد ينزلُ به من الدواهي وأفظعُها. فإذا قتلوا رجلًا ظنوا أنهم أهلكوه هلاكًا لا شيءَ بعدَه، فخافوا هلاكَ أنفسِهم مثلَه إذا صارَ القتلُ ديدن الناس. ولهذا تراهم يَعيبونَ القتلَ في قوانينهم وفي نواديهم السَّنِيَّة. أما نحن إن قتلنا رجلًا فنعلم أن الموتَ ليس آخرَ الأمر. وسيحاسِبُ القاتلَ والمقتولَ مَن يعلم ما تخفي الصدور. أما المقتول فلم يُحرَمِ الرجاءَ كلَّه. والموتُ عندنا حادثٌ وعندهم آخرة. وهم كذلك لا يعرفون التضحيةَ، فعِلَّة القتلِ عندهم الكرهُ في كلِّ حال».

فتلطفته وسألته: «ما تقصد -سعادتك- بقولك الأخير هذا؟».

فتبسم الشيخُ بدماثةٍ، وأجابني أَسِفًا: «لا تستأ إذا أفصحنا عما في صدورنا عندك. ولو أردنا لك الشر لما أفصحنا عنها. من الأمور التي تُعرَفُ عندنا في بلادنا: قتلُ المرءِ لِأحبِّ الخلقِ إليه علىٰ وجه الأرض. ولا يلومه علىٰ فَعلته لائمٌ؛ لأنها في سبيلِ تحقيقِ أحدِ مقاصدِ الشارع؛ وهو صلاحُ أمرِ الناس. ولهذا كانت السنَّةُ القديمةُ، التي أقرَّها العالمون، أنَّ كلَّ سلطانٍ من بني عثمانَ ينبغي له قتلُ إخوته خشيةَ أن يخرجوا عليه ويثيروا الفِتَنَ في البلادِ كلِّها. أوليست حلاوةُ الدنيا تُنزَع منها نزعًا إذا فتكوا بأصحابِ صِباهم وأقرب الناسِ إليهم؟ ومع أنَّ قلوبَهم امتزجت بأبدانِ قَتْلاهم، إلا أنهم أنفذوا القتلَ. وأقبلَ القتلىٰ كذلك علىٰ موتهم بنفسِ التَّجَلُّد، اللهم إلا نفرًا ممن كانَ معدنهم دون غيرهم في البطولة».

ثم قالَ: «وقد قرأتُ بعضَ كتب التاريخِ التي دوَّنها الأوربيون، وهم لا يفقهون في هذا الأمرِ شيئًا. فلا يظنوننا إلا عُتاة. وهم في ذلك مثلنا في قِصَرِ النظر؛ فنحن لا نظنهم إلا جشعين. لكني مع هذا أخالف خادمك الكريمَ في هذه المسألة، وأراكَ أحسنتَ إذ عفوتَ عن النوريِّ».

وكانَ رشيدٌ ينصت للشيخِ موقرًا له كسائرِ الجمعِ، فقالَ حينئذٍ:

«ما اقتصرَ الأمرُ علىٰ النوريِّ أو جِرابِ العدس يا مولانا! فسيِّدي غافلٌ هكذا أبدًا. فإذا خرجَ وأنا غائبٌ لم يوصِدِ الباب، مع أن كلَّ مالِنا في تلك الحجرة».

فألانَ الشيخُ التبسمَ في وجهي، وقالَ له: «مولاك غِرٌّ». ثم وعظني موعظةً رقيقةً في غفلتي، وذكرَ لي ما كان مِن دأبه أن يفعله ليحتاطَ إذا أغلقَ دارَه، أو متجره. ومن ذلك أذكارٌ جعلني أكررها عليه. وبينما هو في تلقينه هذا، إذ برشيدٍ ينصرفُ ثم يرجع في نحو ثلاثِ دقائقَ، وقد بدا علىٰ وجهه خليطٌ عجيبٌ متنافرٌ من الغيظِ والنصر.

مَثَلَ أمامي وسطَ جمعِ الجالسين، وقالَ:

«تركتَ البابَ مفتوحًا علىٰ مصراعيه مع أنك رأيتَ النوريَّ يسرق جِرابَ العدس. وقد ذهبتُ إلىٰ البيتِ الساعةَ ورأيته. ومسدسنا مطروحٌ علىٰ الأرضِ يُرىٰ من البابِ في النورِ الساطع. رحمتَكَ يا ألله! ما أدري ما أصنع بك!».

ضحك أستاذي الشيخُ وقهقه، فبكىٰ رشيدٌ حينئذٍ وذرفَ الدمعَ الغزير؛ إذ لم يكن متصنعًا في قُنوطه. وحاولَ من أحاطَ بنا من الناسِ التخفيفَ عنه، ولم يفلحوا.

الباب الثلاثون

بستان الكَرْمِ المكشوف

مررنا ذاتَ صباحٍ ببساتينِ كَرْمٍ في عُدوةِ الوادي ونحن ماضونَ علىٰ ظهورِ الخيل. فترجل رشيدٌ وجعلَ يقطِفُ عنبًا. ثم ترجل سليمان مثلَه، وسألني أن أصنع كما صنعوا.

فأنكرتُ عليه وقلتُ: «أما إنها سرقة!».

فوَلوَلَ سليمانُ كمن نفد صبره، يقولُ: «الله الله!»، ورفعَ رأسَهُ وغطَّاه كاملًا بيديه كأنما تُنزَعُ الروحُ منه. ثم أهابَ برشيدٍ وهو يلتهم العنبَ:

«أنِ ارجع أيها الآثم! ارجع يا أفسقَ اللصوص! فقد أذنبتَ ذنبًا عظيمًا! وهذا قولُ مولاك».

فرجعَ رشيدٌ إلينا من حينه، ومعه عنقودٌ من عنب أرجوانيٍّ، همَّ أن يعطيني إياه لولا أن منعه سليمانُ وقالَ:

«أتُدَنِّسُ سيدَنا الشريفَ بوضعك الثمرَ النَّجِسَ في يديه؟ كأنما قد اشترك معنا في هذه الجريمة. عارٌ عليكَ أيها الغاصب الأثيم، يا محتالًا علىٰ المساكين».

فحَدَجَهُ رشيدٌ ببصره ثم نظر إليَّ، وقد مددت يدِي إليه أريد العنب.

صاحَ بي سليمانُ وقالَ: «لا تمسَّها؛ فهي مسروقة!».

فقالَ رشيدٌ برفقٍ: «والله ما أدري ما أنتَ بصدده أيها المزَّاح الخبيث، لكنِ اعلم أنك لو سمَّيتني لصًّا مرةً ثانيةً لهَشَمْتُ رأسَك».

قالَ سليمان: «أأنا أسميك لصًّا؟ ألا إنك وهِمتَ يا روحي. فوالله ما أنا إلا لسانُ سيدك هذا، وهو الذي يقول: إن قطفَ العنبِ من بستانِ الكَرْمِ هذا سرقةٌ».

فنظرَ رشيدٌ ناحيتي مرتابًا، فلما رآني آكلُ العنبَ شرِهًا إليه، ضحك وقالَ:

«ما في الأمرِ إلا أنه لا يفقه أعرافنا. ووالله ليس في هذه البلاد رجلٌ بلغَ من الشحِّ والجَشَعِ أن يبخل علىٰ عابري سبيلٍ عطشىٰ بعذقِ عنبٍ من بستان كَرْمه، أو تينٍ أو مِشْمِشٍ من أشجارٍ علىٰ جنبِ الطريق. ولو دخلنا إلىٰ وسطِ بستانِ الكرمِ لنجنيَ من ثمره لكانَ هذا عدوانًا، أما القَطف من حاشيةِ البستانِ فجائزٌ لا حرجَ فيه. وكذلك إن جئنا ببغالٍ نُوقِرُ أحمالها بالعنبِ فتلك سرقة. فمَن ذا الذي يلومنا علىٰ ما قطفناه في طريقنا لنتنشط به إلا أبخل الناس ممن قد يمنع المحتاجين من التقاطِ ما بقي من حبَّاتِ الحِنطة في المزرعةِ بعد حصادها؟ والذي تُقدِّرُ - سعادتك - أنه جريمةٌ، نعدُّه نحن فضلًا بُذِلَ وأُخِذ».

قالَ سليمان -وكان قد حباه الله بملكةِ البيان-: «نعم، وكذلك أمورٌ غيرها تَعيبُها علينا -سعادتك- وهي علىٰ الحقيقةِ أفعالُ بِرٍّ محمودة. فمن عُرْفِنا: أنَّ الخادمَ يحِلُّ له أن يأخذَ نزرًا من خيرِ سيده بغيرِ إذنه فيما كان متعلقًا بأمورِ الغذاءِ والمعاش. ولأن الخادم بذل نفسَه خالصًا لسيده، فليس له سبيلٌ آخرُ إلىٰ الرزق، ولا بُدَّ له مع ذلك من التماسِ المعاش، نعم، وينفقُ علىٰ زوجه وعياله إن كان له زوجة وعيال. ومن عُرْفِنا: أنَّ كُبَراءنا يعطون زهيدَ الأجور؛ إذ ليسَ عندهم من النَّقدِ الحاضرِ إلا قليل. لكنَّ لهم عَرَضًا كثيرًا، وسلطانًا واسعًا، يشترك معهم فيه كلُّ خادمٍ بقدرٍ يسير. وليس أحدٌ منهم ينكر علىٰ خدمه الكسبَ اليسير، كالذي أصابَه طباخك ذاكَ لما كان في خدمتك، وثرَّبتَ عليه أنتَ تثريبًا عظيمًا. ولو لم يُرِدِ السيدُ أن يتكسَّبَ خادمه وراءَ راتبه، فليَزِدْهُ في الأجرِ بما يكفيه للعيش. ولا ريبَ في أن الأجرَ الذي كنت تجريه له أقلُّ مما يحتاجه للعيشِ».

فقلتُ له مُغضبًا: «أعطيتُه الذي سألني إياه».

قالَ: «ولقد سألك ما رآه مجزيًا قياسًا بما ضَمِنَ كسبَه وهو مقيمٌ في خدمتك، فأنتَ فرنجيٌّ وشابٌّ كثيرُ الرغائب».

وكان تسريحي لهذا الطبَّاخ قد تخالجَ في صدرِ رشيدٍ منذ زمنٍ، فقالَ: «كنتُ قد أنبأته أنك أكرمُ الأحياءِ قاطبةً!»، ثم قالَ منكرًا: «هذا عُرْفُ البلاد».

فقلتُ: «وهو عرفٌ أبغضه أشدَّ البغض. وما أحسب أهلَ هذه البلاد إلا في جشعٍ دائم. وانظر إلىٰ ما يطلبه التجار من أثمانٍ، بل انظر كيف يساومون. فهم ينازعونك في كلِّ بارةٍ[1] كأنَّما نيطت بها حياتهم. وقد ذهبت عقولهم من حبِّ الكسب».

فرد عليَّ سليمانُ وقالَ: «جانبتَ الصوابَ مرةً ثانية، فما يغالون في الثمنِ من طمعٍ، بل طلبًا لِلَّهو. وإنك لتجدهم أحيانًا يطلبون ثمنًا دونَ قيمة الشيء الحَقَّة، وهم مع ذلك يدَعُون المشتري يستحط الثمنَ، لا لشيءٍ إلا لِلَّهوِ في المماكسةِ، وطلبًا لرؤيةِ ما يستعمل من حِيَلٍ فيها. وتراهم يصبون للمشتري كُوبًا طيبًا من القهوةِ، أو ربما كوبين إذا طالتِ المجاذبة، ويسقونه ما اشتهىٰ من كؤوس أُدهِقَتْ عصيرًا».

وقالَ رشيدٌ: «وإن أبىٰ مشترٍ دفعَ الثمنِ إلىٰ تاجرٍ مع شدَّةِ إنقاصه فيه، فإن التاجرَ كثيرًا ما يهديه السلعة؛ كما وقعَ لسعادتك قبلَ أيامٍ قلائل في حلب».

فأجبته: «تلك حيلةٌ احتالها ليُخَجِّلَني فأدفعَ له الثمن».

قال: «لا، والذي فطرك!».

فقالَ سليمان: «لربما أصابَ رشيدٌ، إلا أني لا أقدر أن أحكم علىٰ هذه الحادثة بعينها؛ إذ لم أشهدها».

علونا حينئذٍ ناحيةَ أكمةٍ ورأينا جماعةً من رجالٍ ونساءٍ يجنون العنبَ من بستان كَرْمٍ أكبر من البستانِ الأول بكثير.

فتهللَ رشيدٌ كمن انتصر وقالَ: «الآن ترىٰ!»، ثم نزل عن فرسه عند أقرب الكَرْمِ إليه، وتطأطأ. فلما أبصره العمال صاحوا: «تفضلوا!»، وهي الصيغة المعروفة للترحيبِ في الدعوة. فلما امتنعنا عن الدخول إليهم في وسطِ البستانِ، خرجَ إلينا رجلٌ يتهادىٰ وقد حملَ علىٰ رأسه سَلَّةً ملئت عنبًا مركومًا. أخذَ منها

---

(١) البارة: عملةٌ عثمانية قديمة، وهي أقلُّ من القروش.

سليمانُ ثلاثة أعذاقٍ ضخمةٍ، لكلِّ واحدٍ منا عِذق، ودعا اللهَ للواهب. ثم عرضتُ للفلاح أن أدفعَ له، فأبىٰ وشدَّد في الإباءِ وقالَ: «عارٌ علينا إذا فعلنا!».

فلما أقبلنا علىٰ طريقنا قالَ رشيدٌ: «أرأيتَ الآن؟ ليس من السرقةِ أن يأخذ عابرو السبيلِ ما يتنشطون به».

ثم قالَ سليمان: «أمَّا عُرفُ التجار في طلبِ ثمنٍ أغلىٰ من الذي يرضون به آخرَ البيع، فما كان ظنُّك فيه؟ اعلم أن هؤلاء التجارَ أغنياء، ولهم من المالِ ما يكفيهم أمرَ حوائجهم كلِّها. وليسَ قصدهم كقصدِ تجار الفرنجة الذين يريدون التَّزَيُّدَ في الغنىٰ، وبَذَّ الأقران. وإنما يريدون طيَّ الوقتِ بما يسرهم؛ ولهذا يحبسون المشتري ما استطاعوا، خاصةً إن كان رجلًا مثل سعادتك، يحب الدعابة والضحك. وإن الخيبة كلَّ الخيبةِ لتجارنا أن يدفع المشتري أول ثمنٍ طلبوه منه، ثمَّ ينصرفَ من فوره. وأحفظُ نادرةً هي خيرُ ما يستدل به في هذا الباب».

«كلُّ الناسِ تعرف عبده، المغنِّيَ المِصريَّ الكبيرَ الذي توفيَ آنفًا. وقد لقِيَتْ بنته الوحيدة حتفها بمِيتَةٍ محزنة. وكان هذا ليلةَ عُرْسِها؛ إذ ماتَ العروسان من انقطاعِ النَّفَسِ من رائحةِ الورود والعطور التي انتشرت في الحجرةِ التي ناما فيها. فلما أبصرَهما عبده جنازتين، كسرَ عودَه وأقسمَ بالله جَهد يمينه ألا يرجعَ إلىٰ غناءٍ أبدًا».

«وكان عبده غنيًّا؛ فقد كسب من الغِناءِ مالًا طائلًا، وكثيرًا ما كان يبلغ أجره في الليلة نحو مئةِ جنيه. إلا أنه كان يفتش عن سبيلٍ يطوي بها الزمانَ حتىٰ يجيئه الموت. فاتخذ له متجرًا في القاهرةِ، وأمَّلَ أن يجد محاورةً مؤنسة عند المماكسة. إلا أن المصريين ودوا سماعَ غنائه مرةً ثانيةً، وتآمرَ أهلُ الغِنىٰ منهم علىٰ أن يشتروا بضاعتَه كلَّها من فورهم. وفعلوا ذلك ثلاث مراتٍ، حتىٰ قنَّطوا عبده، وعلم أنه سُلِبَ ما كان يرجو من اللهو. فأُكرِهَ آخر الأمرِ علىٰ أن يسأل القاضي أن يحلله من قَسَمِه، وأُكرِهَ علىٰ أن يرجِعَ إلىٰ الغناء، مع أنه كان يؤثر أشدَّ الإيثارِ أن يكون تاجرًا. وهذا يبين لك الفرق بين التاجرِ في مدننا، والتاجرِ في مدينةٍ من مدن الفرنجة ممن لا همَّ له إلا الإسراعُ في البيعِ والإكثار منه».

فما كان جوابي إلا أن قلتُ: «للناس فيما يعشقون مذاهب، أما أنا فأبغض هذه المماكسة».

فقالَ سليمان متلطفًا: «إذا عرف نزهاء التجار ذلك لم يُعنِتوك، بل يطلبون منك ثمنًا عدلًا، ويخلون سبيلك. مع أنهم يتحسرون علىٰ ذلك؛ فهم يؤثرون مجالستك ساعةً يحادثونك فيها». ثم قلب كفيه وقالَ: «إنما تُعجِبُ أكثرَ الناسِ مقارعةُ الألباب».

ثم قالَ رشيدٌ -وفي صوتِه تظلُّم-: «كنتَ تقص علينا سعادتك أمسِ أنَّ رجلًا إنجليزيًّا تعرفه خوَّن خدمَه في بلادنا. ولا ريب أنه لم يأتمنهم فأغلقَ علىٰ متاعه كلِّه، فكان كأنما يقول لهم: (أتحدىٰ عقولَكم بتحفُّظِي وأقفالي). ولا يقدر إلا قليلٌ من الأشِدَّاءِ أن يمنعوا أنفسهم عن هذا التحدي، وهو لعمري حثٌّ لهم علىٰ السرقة. أما إذا ائتمن السيدُ خدمَه واستودعهم المتاع كلَّه، فلن يخطر ببالِ أحدهم سرقته إلا إن كانَ ابنَ لئام».

«ودعني أضرب لك مثالًا آخرَ لأبين الأمر. لم يكن ليقع في نفسِ أحدٍ من الناس أن ينهبَ عِنَبَ ذلك البستانِ حين يراه مكشوفًا لا يزيدُ ارتفاع حائطه عن حجرين. أما إذا حُفَّ بحائطٍ طويلٍ حصينٍ، فسوف يحك في صدرِ كلِّ ابنِ آدمَ صرمُ عناقيده عن آخرها».

قلتُ: «لا يقعُ في نفسي مثلُ هذا أبدًا».

فقالَ سليمان: «وذلك لأنك أَلِفْتَ -سعادتك- الحُجُبَ والحواجز. أما نحن في ممالكِ السلطانِ ففي فسحةٍ أعظم منكم، والحمد لله. والحيطان الطويلة عندنا إهانةٌ، حاشا في المدن».

الباب الحادي والثلاثون

الـزنـديـق

ما رأيت سليمانَ قطُّ يزاولَ صنعته في الدلالةِ، مع أني عرفته نحوَ عامين، ورافقني في نحو ستة أشهرٍ منها. وكان يكسب من صنعته هذه في شهرين ما يكفيه لحفظِ زوجته وعياله في قريةٍ علىٰ ساحلِ صُورَ وصَيْدَا، وكان يحدثنا عن هذه القريةِ بمحبةٍ تَرِقُّ لها الأفئدة، مع أنه قلَّما ذهب إليها. وما أذِنَ لنا أن نسيرَ معه إليها إلا بعد طولِ إلحاح، وكانت واقعةً لا أنساها، ما تمالكتُ فيها أن عجِبتُ من موافقةِ سَمتِه سمتَ الجبابرة. كان سليمانُ وقورًا في الجملة لما لقيته أولَ مرةٍ، وما زال كذلك، وهو من أصفيائنا، فما خلا ذرعُه إلا وقد جاءنا. وأحسب أن نفعه عظيمٌ في دلالته للسائحين، قدَّرتُ ذلك من ملكته في الحديثِ التي أعجبتنا جميعًا، وتبحرِهِ في معرفةِ البلادِ. فلما عرفتُ أن أصحابًا لي قادمون إلىٰ فلسطينَ كتبتُ إليهم أنصحهم أن يطلبوا سليمانَ، وألا يطلبوا أحدًا غيره. وسرَّني أني لبثتُ بعدَ ذلك قليلًا ثم عرفتُ أنه معهم. فلما قَدِموا إلىٰ الشَّمالِ لحقت بهم في دمشقَ وسافرت معهم في آخرِ نصف شهرٍ لهم في البلاد.

ما جلستُ في المخيم إلا دقائقَ، وحسبي بها حتىٰ أتبين أن سليمانَ علىٰ غير طبيعته، وأن أصحابي لم يُعجَبوا به كما قدَّرت. وتشكَّوا منه في أولِ عشيةٍ جالستهم فيها بخيمتهم. فأخبروني أنه جاوزَ الحدَّ في الكسلِ، وكان يأبىٰ أن يذهب بهم إلىٰ أماكنَ أرادوا زيارتها. ولم أنشب أن عرفتُ العلة؛ وهي أنهم حملوا معهم خريطةً ودليلًا أعظموا تدارسها كلَّ ليلةٍ، وتتبعوا ما فيها من الأماكنِ التي ذُكِرَ أنها تُشَوِّقُ النفس. أما سليمان فقد كانت في رأسه خطَّةٌ منذ انطلاقهم

علىٰ أن يجعلَ رحلتهم أبهجَ رحلةٍ يتصورها إنسان. فأمَّلَ أن يجعل لها تسلسلًا ومعنًى بزيارةِ قومٍ مخصوصين ومواضعَ مخصوصة. وخلاصةُ القولِ: إن سليمانَ مُتفَنِّنٌ في السفرِ، وأرادَ أن يجعلَ للبلادِ عندهم أطيبَ الذكرىٰ، فهم إنجليزٌ، ولا فرق عندهم بين المواضع والأخبار. فلما رآهم أكثروا من الإعراض عنه عرفَ أنهم لن يفوضوا إليه أمرهم، فذهبَ عنه كلُّ ما وجد من سرورٍ بالرحلة. وكانت هيئتُه إذ ذاك هيئةَ كبيرِ خدمٍ بليدٍ مشمئز، علىٰ النقيضِ من الرجلِ الذي أعرفه. وألفيته جالسًا في ثيابٍ فاخرةٍ عند نارِ الطباخِ في مروجِ دمشقَ، وقد كانت حينئذٍ روضَ زهرٍ أُنُفًا.

لم يبين لي المسألةَ دَفعةً واحدةً. فلما لُمتُه علىٰ غفلته عن أصحابي، ما زاد علىٰ قوله: «تلك مشيئة الله أن جعلَ الناسَ طرائقَ قِددًا؛ ففيهم المودود، وفيهم البغيض». لكنَّ مقدمي أصلح من الأمرِ شيئًا قليلًا. والحمد لله، فقد قال لي أصحابي الإنجليز: إنهم آنسوا أن خُلُقَ سليمانَ وسائرِ الخدمِ قد حَسُنَ جدًّا. وأظن علة ذلك أن هذه الأنفس المسكينة عرفت أن لها الآن أحدًا تبث إليه شكواها، ويتفضل بمحادثتهم. فليس شيءٌ أغربَ علىٰ طريقةِ المشارقةِ في العيشِ من إقصاءِ الإنجليزِ لخدمِهم. وإن الناسَ سواسيةٌ في حقِّ التحادثِ في بلادِ المشرقِ التي لا تفرق بين الخلقِ. وإن خدمةَ الأوربيين لتشق علىٰ المشارقة، وما يحملهم عليها إلا أن أجرها أعظم بكثيرٍ من غيرها وأضمن.

وما يكاد أصحابي الإنجليزُ ينطقون بكلمةٍ طيبةٍ عن أيِّ خادمٍ من خدمهم العرب، إلا أني رأيت في صدورهم بُغضًا خالصًا للطباخ خاصةً. وهو رجلٌ لا جرمَ هيئتُه هيئةُ أشرارٍ؛ فهو أعورُ، وفي عينه الباقيةِ حدَّةٌ في النظر، وستَرَ رأسه المحلوقَ بقلنسوةٍ كانت في الدهرِ بيضاءَ، وبرزت منها أذناه الطويلتان الحادَّتان. ولبس قميصًا أزرقَ قاتمًا أبلاه الزمن، وكان إذا ركب ألقىٰ فوقه رداءً فرنجيًّا عتيقًا، أو خيشةً إن مُطِرنا. وكان مكشوف الساقين، ينتعل خِفافًا حُمرًا. وإن منظره وهو راكبٌ علىٰ حمارٍ عُلِّقَتْ عليه صواني الطبخ عن يمينه وشماله، متقدمًا لحَمُولَةِ القوم[1]، يوحي إلىٰ الناظرِ إليه ممن لم يعرفه أن الحَمُولَةَ وأحمالها مسروقة.

(١) الحَمولة: هي الدواب التي جُعِلَت لحملِ المتاع والأثقال، وهي خلافُ الرَّكوبة التي جُعِلَت للركوب.

حدثت سليمانَ عنه يومًا وهو معي، وكانت قد آبت إليه نفسه التي عهدتها، وذكرت له شدة إبغاضِ أصحابي للرجل.

فقال: «سَفِهوا أنفسَهم أن ذمُّوا شكلَ الرَّحَىٰ التي تخرج لهم أحسنَ الطحين. وهم ينتفعون بطبخه، وهو طبخٌ حسن. وإنه لعمري أحذق طباخي الدنيا، وهو نسيجُ وحدِهِ. وقد تكلفت مشقةً شديدة حتىٰ آتيَ به في هذه الرحلة؛ لعلمي أن هؤلاءِ الخواجاتِ أصحابٌ لك».

واشتدَّ القهرُ في صوتِه، حتىٰ خشيتُ أن يبكيَ، فسارعتُ إلىٰ الجوابِ: «ليسَ الأمر كما ظننتَ، فطبخه يعجبهم. لكنَّ أخلاقَه..».

فقطعَ كلامي وقالَ: «وما يدرون من أخلاقه؟ أدَخلَ قطُّ خيمةَ جلوسهم أو نومهم ودنَّسها؟ أتَكلَّمَ قطُّ عندهم بكلمةٍ قبيحة؟ أنبئني بجُرمه، وسأضربه ضربًا شديدًا. إلا أني أعرف حقَّ المعرفةِ أنه لم يخطئ في شيء، فقد ضبطته بالحزمِ هذه الأيامَ كلَّها. وما ينكرون إلا شكلَه، وهذا أمره لله، لا لهم. فأسأل الله أن يجازيهم».

قلتُ: «أتقول: إنك ضبطتَه بالحزم؟ أذلك لضرورة؟».

قالَ: «لا ريبَ؛ فهذا المسكين مجنون. وظننتهم يستأنسون بجنونه، فهو مضحكٌ جدًّا. لكنَّ الله يعلم أن أبدانهم خاويةٌ من ضحكةٍ واحدة، فمنعته لذلك من مقاربتهم».

وكلمةُ (مجنونٍ)، التي ترجمتها إلىٰ الإنجليزية هنا بقولي: (مَاڈ)، كثيرًا ما تتضمن في العربيةِ المدحَ كما عرفتُ. وتبيَّنْتُ من كلامِ سليمانَ أن الطباخ لم يكن معتوهًا أهوجَ، وإنما هو كمن نَصِفُهُ في البلادِ الإنجليزية بأنه (كارَكْتَر).

فصاحَبْتُه بعد ذلك، وعَجِبتُ من ملكته في قصِّ القصص، ومحاكاةِ الناس. وعجبت أيضًا من ارتيابه في كلِّ شيءٍ رِيبةً غريبة، يخلطها بتهكم. وكان يتفكَّه إذا تكلم في هذه المسائل، ويستعمل الكلامَ الفاحش أحيانًا، وهذه الخَصلة جليَّةٌ في كلِّ حديثه. وهذا أكثر ما سرَّ النادلَ والبغالين منه، وهم من يستمع إليه عادةً؛ فهم أقرانه في الطريق. وكانوا يضحكون منه ويشتمونه بألفاظٍ دينيةٍ فيقولون: كافرٌ وزنديقٌ فاسق، وهو يعُدُّ هذا التعنيفَ من جميلِ الثناء. وكان ديدنه أن يحيِّي

أصحابَه بالسِّبابِ، وهم يتلقونه منه بصدرٍ رحبٍ؛ لعلمِهم بحاله. وحدثوني مرةً حديثًا وأسرُّوه مهابةً، مع أنهم تبسموا ضاحكين، وذكروا لي أنه باعَ قبرَ أبيه مازحًا. وما استطعتُ قطُّ أن أحملهم علىٰ بيانِ هذا الخبر.

وأدركتُ حينئذٍ لِمَ أخذه سليمانُ بالحزمِ في هذه الرحلة؛ فأصحابي الإنجليز أثقل من أن يجدوا في امرئٍ عجيبٍ مثله أَمرًا مضحكًا. ولم أخبرهم قطُّ عن الواقعة العجيبة في هذه الرحلة، التي أشرفَ فيها طباخهم علىٰ الموت.

وذلك علىٰ مقربة من قريةِ مَجدَلِ شَمْس، في الوادي أسفلَ جبلِ الشيخ. وقد خيَّمنا فيها يومَ الأحدِ، واستراحَ أصحابي العصرَ في خيمتهم. فانتهزتُ وسليمانُ الفرصةَ وخرجنا نتمشىٰ وحدنا، وانتفعنا بهذا التَّمْشِيَة. فلما رجعنا أدراجنا نريدُ الشايَ، أفاضَ جمعٌ من الفلاحين من ناحيةِ خيامنا، يلوحون بأيديهم ويصيحون، وترىٰ منهم غضبًا شديدًا. فناداهم سليمانُ حتىٰ يعرف الخبر.

فصاحوا: «زنديق! زنديق! زنديق!».

سألتهم بحرصٍ: «أين؟».

فردَّ عليَّ شيخٌ أبيض اللحيةِ، قد حدَّجَ ببصره من الفزع، وقال: «هناك، في تلك الخيمة». وأشارَ إلىٰ رِواقٍ جلسَ عنده طباخنا الشهيرُ، يحدق إلىٰ إبريقٍ وضعه ليعدَّ فيه الشاي. ثم قالَ الشيخ: «وإنا ذاهبون الساعةَ لنجيء بالعُدَّةِ حتىٰ نحسِنَ قتلَه».

فقطعَ سليمان عليهم الأمرَ وقالَ: «أقْصِروا؛ فقد وهمتم. هذا طباخُنَا، وهو رجلٌ صالحٌ متدينٌ، إلا أنه يُجَنُّ أحيانًا».

فصاحَ جماعةٌ منهم: «كلا، ما من وهمٍ يا أصحابَ السعادة». ثمَّ بيَّنَ المسألةَ لنا نفسُ الشيخُ الذي أشارَ لي إلىٰ الطباخِ، فقال:

«يقول -واللهم لا تؤاخذنا بما قالَ-: (أترون هذا الجبل؟ أمَا إني أنا الذي خلقته. فاسجدوا لي؛ فإني خالقُ الأرض). وكنا وقوفًا حوله نُسَائله -من غير أذيةٍ- كما هي عادةُ الناسِ عن نسبه، وتجارته، وغيرها. فلما سمعنا هذا الكفرَ القبيحَ شققنا جيوبنا، وانكمشنا في عَدْوِنا لنجيء بأسلحتنا كما رأيتم. ولا تؤخرونا، فليَمُوتَنَّ لا محالة».

قالَ سليمانُ: «إياكم وهذا الفجور؛ فالرجل مجنون».

قالوا: «كلا، بل هو عاقل».

قالَ سليمان: «بل مجنونٌ مجنون، أقسم لكم. وارجعوا معنا، وسأبين ذلك لأَفهماكم».

وَكَّدْتُ قولَه. فرجعوا معنا، علىٰ غمغمةٍ واختلافٍ في الرأي. وما تمالكتُ أن عجِبتُ من إيمانِهِمُ الخالصِ الذي استحثَّهم في طرفةِ عينٍ علىٰ قتلِ رجلٍ أظهرَهُ كلامُه زنديقًا. لكني خفتُ أشدَّ الخوفِ مما قد يكون، ومما قد يقع في نفوسِ أصحابي الإنجليز مما لا يَسُرُّ. وصارَ الأمرُ كلُّه موقوفًا علىٰ فعلِ الطباخ.

قالَ لهم سليمانُ وهو يسير إلىٰ النار: «قلت لكم: إنه مجنون، وإن من الإثمِ قتلَكم رجلًا ابتلي بمثلِ هذا البلاء». ثم صاحَ به كأنما ينادي كلبًا: «هلمَّ يا منصور!».

نهضَ الطباخُ وأقبلَ علينا في صورةٍ حمقاء.

فقالَ له سليمان: «اضطجع أمامَ فرسي حتىٰ أمتطيكَ وأركبه».

فسجدَ الطباخ، ثم انقلبَ علىٰ ظهره. وفغرَ فاه في بلاهةٍ، وجعلَ يلهث.

قالَ سليمان: «قُمِ الآنَ وقَبِّلْ نعلي».

فأطاعه الطباخ، وما فعلَ إلا والقومُ الذين همُّوا بقتله يغمغمون عطفًا عليه.

فسألهم سليمان: «ألم أقلِ الحقَّ؟».

قالَ الشيخُ الذي كلمنا علىٰ أنه لسانُ القوم: «بلىٰ يا أخا الصدق، مجنونٌ مجنون، يا لَشِقوته. وإن من الإثم قتلَنا إياه وهو في هذه الحال. وما غرَّنا إلا سمته أول ما كلمناه. شفاه الله! كيفَ نزل به هذا الداء الفاجع؟».

قالَ سليمان: «أنزله به غرامُه بمن لم يعبأ به».

فلما انصرفَ القرويون قانعينَ، ناحت نساؤهم: «يا حسرةً علىٰ هذا المسكين! آهٍ من خيبةِ الرجال!»، حتىٰ إذا ما غابوا عنا عن آخرهم، اندلعَ من فمِ الطباخِ أطول لسانٍ رأيته قطُّ في بشر، وأدخلَ الشقيُّ إِصبَعَه في أنفه سُخْرِيَّة. ثم أَتبَعَ هذه المقدماتِ بصياحِ ديكٍ حقيقي.

سألتُ سليمانَ: «ما حملَ الطباخَ علىٰ أن يصير هكذا، خاويًا من الوقار؟».

فأجابني بجوابٍ عجيبٍ، فقال: «ذلك لأنه ولد في القدسِ، وهو نصرانيٌّ، وُلِدَ فقيرًا. فكان المبشرون يختصمون فيه، كلٌّ يسعىٰ أن يجعله من شيعته علىٰ معتقده السخيف، فحمله ذلك علىٰ أن يصير إلىٰ هذه الحال - كأنَّه زنديق».

وكان النادلُ سليمٌ قريبًا منا، وسمع آخر ما قالَ سليمانُ، فلم يملك نفسه من الضحك.

وقالَ: «زنديق، أفهمتَها -سعادتك-؟ معناها أنَّ الرجلَ لا يؤمن بوجود الله، مَثَلُهُ كَمَثَلِ خُنْفَساء». ثم استمسك بجنبيه اللذين اضطربا من الضحك.

وكأني به هو وسليمانَ يظنان الزندقةَ أمرًا يضحك الملائكة، مع أنهما راسخان في الإيمانِ كأولئك الفلاحين.

الباب الثاني والثلاثون

بيعُ مسدسنا

أصابتني حمىٰ التيفوئيد. وقبيلَ أن ينزل بي مرضي، استعارَ ابنُ شيخٍ في حينا مسدسي أيامًا؛ لأني لم أكن أستعمله البتة. وتالله ما من أمرٍ وددتُ أن أطلق عليه. أما أهلُ القريةِ فكانوا يسارعون إلىٰ كل عُصَيْفيرٍ سمعوا تغريده، وإن بَعُدَ وكان في أجماتِ الزيتون أو في ناحيةِ الجبل. وفي تلك الأرضِ أيضًا بناتُ آوىٰ، وضباعٌ في بعض الأحايين، وفي الجبالِ العليا نمورٌ، وما فتئ القومُ يزعمون ذلك. وأحسبهم يقصدون الليباردات، أو الوُشُوقَ؛ فجُهَّالُ العربِ يجمعونَ الجِنسَ كلَّه في اسمٍ واحد، فيسمون مثلًا كلَّ نباتٍ بريٍّ لا رائحةَ له ولا قيمةَ عُشبًا. وما اطَّرحتُ مسدسي إلا بعدَ أن فتشنا عن النمورِ ولم نظفر بطائل.

وسألني ابنُ الشيخِ أن أعيره إياه، فأذِنتُ له ورشيدٌ غائب. فلما عرف ما كسبت يدايَ لطَّخَ وجهَهُ بالترابِ وأَعوَلَ. ووافق أن سليمانَ معنا إذ ذاك فلامني أيضًا، واسودَّ وجهه كأنما أذنبتُ ذنبًا ما سمع به العالمون قط. وخبروني آسفينَ أن من التَّعْسِ أن يعير الرجلُ مسدسَه لأحدٍ، وإن كان أخصَّ أصدقائه علىٰ وجه الأرض. وليست علة ذلك الطِّيَرَةَ، بل لأن في القانونِ أنَّ المسدسَ إن قُتِلَ به أحدٌ، فالمذنبُ صاحبُ المسدس ولا يبالون أيما يدٍ أطلقت.

فلويتُ شِدقي وقلتُ: «وأَنَّىٰ لهم معرفةُ صاحبِ المسدس؟».

قالَ رشيد: «لكلِّ مسدسٍ تذكرة[1]، وصاحبها مسؤولٌ عن كلِّ ما يُستعمل فيه مسدسه».

وهذا القولُ كأنما هو بيانٌ للناسِ أن تذكرةَ المسدس لا تُنقَلُ.

قلتُ لهما مغتبطًا: إني لا أملك تذكرةً، فما رأيتُ ذلك نفَّسَ عنهما ولا شيئًا قليلًا. وما زالا يظنان أنَّ الأذىٰ لربما لحقنا منه.

ثمَّ مرضتُ بعدها، وانقطعتُ عن الخروجِ في الحوائجِ والمعاشِ، حتىٰ رأيتُني في مستشفًى اسمُه فرسانُ القِدِّيسِ يوحنا الأورشليميِّ، وهم ألمان. واعتنىٰ بي هنالك الممرضاتُ الفاضلاتُ وعالَجْنَنِي.

وجاءني من العُوَّادِ العربِ الداني والقاصي وأنا مُلْقًى علىٰ فراشي، وفيمن جاءني الشابُّ الذي استعارَ مسدسي، ومعه أبوه وإخوته. وذرفوا عندي الدمعَ الغزيرَ، ودعوا لي بتمامِ العافية. وحادثوني كأن لي عليهم أياديَ سابغة. وتحيرت من سَمْتِهم حينئذٍ شيئًا قليلًا، إلا أني ذهلت عن هذا التحير لما سافرتُ راجعًا إلىٰ الجبالِ مع رشيدٍ، وقد أُذِنَ لي بعد إبطاءٍ بالخروجِ من المستشفىٰ.

وبلغتني في نفسِ يومِ رجوعي دعوةٌ من والد الفتىٰ إلىٰ غداءٍ عنده ساعةَ الظهرِ من الغد. فتقبَّضَ وجهُ رشيدٍ حينَ عرفَ ذلك، فلما سألته عن العلة، شمخَ بأنفه وقالَ: «معه مسدسنا!».

قلتُ: «نعم، صدقتَ، هو معه. ولا بدَّ أن أذكر أن أسأله إياه غدًا».

فكأنَّ رشيدًا مُلِئَ حينئذٍ استبشارًا، إلا أنه كَظَمَهُ، وما صنعَ إلا أن دمدمَ بقوله:

«لن تسأله إياه، فأنا أعرف سعادتَك. ولن يردَّه هذا الرَّذْلُ من تِلقاءِ نفسه».

فلما أتيتُ دارَ الشيخِ من الغدِ ألفيتُ فيها جمًّا غفيرًا كأنهم جاؤوا إكرامًا لي. وما أكثرَ ما هنؤوني بشفائي، وأسمعوني الخُطَبَ والكلماتِ الأنيقة، وأنا أرد عليهم بأحسن ما يتيسر لي. ثم جاء الطعامُ في نحوِ بضعٍ وثلاثين دفعةً، وُضِعَتْ في أطباقٍ علىٰ الأرضِ علىٰ الطريقةِ القديمةِ في البلاد، والناسُ كلُّها تأكلُ من

(١) هكذا وردت في الأصل بحروفها (تذكرة)؛ وهو اسم رخصة السلاح إذ ذاك.

الآنيةِ بأيديها. فلمَّا أَزِفَ خِتامُ مجلسنا، لحَظَ الابنُ إلىٰ أبيه، فلما ردَّ عليه أبوه بإيماءةٍ قامَ وخرجَ من الحجرة. وما لبث أن رجع حاملًا مسدسي، فأتىٰ به إليَّ كأنما يريد أن أباركه، ثمَّ طافَ به علىٰ سائرِ الضيوف كي يطَّلِعوا عليه. أضَجَّ القومُ بقولِ: ما شاءَ اللهُ، وهم يثنون علىٰ حِذقِ صنعه، ورأىٰ أحدهم أن المسدسَ لا ريبَ كلَّفَ مالًا طائلًا، وودَّ ثانٍ لو كانَ له صِنوُه، وهلمَّ جرًّا. ولا شكَّ في أني قُصِدتُ بتعجبهم هذا وتناجيهم، ووقع في نفسي أن العلة الحقيقيةَ للمأدبةِ وحضورِ الناس إنما هي عَرْضُ المسدَّسِ، لا اجتماعُهم فرحًا بشفائي. مع أني لم أعرف سبب ذلك.

ثم أفصحَ صاحبُ الدارِ وقال: «في هذا المسدس أمرٌ من أعجبِ ما رأيت؛ وهو أنه إن رُمِيَ عنه غرضٌ لم يَكُنْ ليُخطِئَه. وقد جربت أنا وبَنِيَّ أن نرمي عنه غَرَضًا سُمِّرَ علىٰ شجرةٍ، وكُنَّا نبعد مئةً وخمسين خُطوةً منها، نعم، بل وأبعد. وإنَّ الرَّصاصةَ -وربي- لَتُصِيبُ في كلِّ مرة عينَ الموضعِ الذي سددنا المسدس نحوه، ولو لم يكن أكبرَ بكثيرٍ من بعوضة».

ثمَّ قامَ الجمعُ علىٰ بكرةِ أبيهم -وما أدري لِمَ- وأرادوا تقبيلَ يديَّ، كأن فضائلَ مسدسي إنما هي بسببي. ولا مِريةَ لم يجمل بي أن أستردَّ المسدسَ حينئذ.

فلما رجعتُ البيتَ بعد هذا الحفاوةِ الغريبة، استقبلني رشيدٌ مطَّرِحًا بشاشته، وقالَ:

«ما جئتَ بمسدسنا! أخشيتَ أن تسألهم إياه! ألم أعلمْ مآلَ الأمر؟ أوَّه، يا ألله يا ألله!».

قلتُ له: «لم تسنح لي فرصة، لكني سأُرسِلُ الساعةَ إليه أسأله أن يرده. فتهيأ للكتابِ؛ فإنك مُبَلِّغُه».

قالَ: «علىٰ العينِ والرأسِ، حبًّا وكرامة. وما فرحت قطُّ بالسيرِ في حاجةٍ مثل هذه. فهذا الرَّذْلُ ما فتئ يخبر الناسَ أن المسدس هديتك إليه، ويفاخر به في الجبالِ كلِّها. ولا جرمَ أنه يعوِّلُ علىٰ أن مرضَك أضعفَ ذاكرتك، ويؤملُ أن تغترَّ أنتَ فتظنه هديةً لا عاريَّة».

فسألته: «ولِمَ لَمْ تخبرني بذلك من قبل؟».

قالَ: «أفكانَ الأمر يعنيني قبلَ أن تظهر المسألة؟».

كتبتُ للشابِّ رسالةً رفيقةً، سألته فيها أن يردَّ المسدس في أيام؛ فأنا أَلُمُّ متاعي إعدادًا لسفري قافلًا إلىٰ إنجلترة. وشكرته علىٰ عنايته بمسدسي، فقد حفِظَه أحسنَ من حفظي له حينَ أعرته إياه، كما ذكرتُ له يومئذ. ثم قبضَ رشيدٌ الكتابَ وانطلقَ به طَرِبًا.

ثم جاءني هذا الفتىٰ في نحو ساعةٍ بدون المسدس، وهو في حالٍ أشدَّ ما تكون من البلاء والقنوط. فلما أغلقَ البابَ ليضمنَ ويتيقن أنَّا وحدَنا، خرَّ علىٰ الأرض واستخرط في البكاءِ، وكاشفني بأنه بلغَ من تعلقه بالمسدس أنْ صارَ يتخيله مسدسَه كلَّ ليلةٍ علىٰ فراشه قبل أن يغلبه النوم.

ثم قالَ لي بسخفٍ -كأنما يحسب تعليلَه هذا يهوِّنُ خطيئته-: «إلا أني لم أخبر بشرًا أنه مِلكي، وإنما تخيلت هذا فقط. وما أخبرتهم بذلك إلا حين علمت أن سعادتَك طريحٌ في فراشك ولربما توفيت. فظننتُك تموتُ وتتركه عندي».

فلما حسبني في عِدَادِ الأموات أخبرَ أباه وإخوتَه أن المسدس هديةٌ مني، أو هو أشبه بالإرث. وقد اشتهرَ نبأُ جُودي عليه ومحبتي له وطارَ في الآفاق. فلما بلغه كتابي قبلَ ساعةٍ ناجىٰ أباه الحبيبَ بعد إبطاءٍ يكاشفه بالحقِّ. فأَنَّبَهُ أبوه علىٰ خديعته، ورضي أن يدفع لي أيَّ ثمنٍ أُعيِّنُه للسلاحِ، حتىٰ أكفيه عارَ الفضيحةِ الفظيع. فلو ذاعتِ القصةُ في البلاد لهلك أسفًا. فكان عِرضُ هذا البيتِ الكريمِ تحت يدي.

والحقُّ أن هذا المسدسَ الذي اشتد إعجابهم به رخيصٌ جدًّا. وقد اشتريته في لندنَ بعشرة جنيهاتٍ قبلَ ثلاث سنين، آخذًا بنُصحِ عمٍّ لي حاذقٍ في هذه الأمورِ كلها. فتفكرتُ هنيةً ثمَّ قلتُ له: «ثمانيةُ جنيهاتٍ إنجليزية».

فرأيتُ منه فرحًا بالفرحِ مفرطًا وشكرًا ما رأيتُ قبله مثله ولم أرَ بعده، وما طرقَ أذني قطُّ ثناءٌ خارجٌ من صميم القلبِ مثلَ ثنائه علىٰ كرمي. فأحصىٰ المالَ أمامي، وأصرَّ علىٰ أن يعانقني مرارًا. ثمَّ خرجَ مسرعًا يريد أن يخبرَ أباه.

فلما أفلَ، طلعَ رشيدٌ عندي ساخطًا مُتَنَحِّيًا كأنه من الملائكةِ الكاتبين.

وقالَ حَنِقًا: «هذا جرمٌ اقترفتَه. فقد أخبرني هذا الرَّذْلُ ونحن في الطريقِ أن نفسَ أبيه لَتطيبُ بمئةِ جنيهٍ كي يحفظ عِرضَهم. وقد أذنبَ؛ فالعدلُ أن يذوقَ بيتُه العقاب».

ضحكتُ وجزمتُ له: «أما لو كنتَ مكاني لما فعلتَ إلا كما فعلتُ».

فأَنِفَ وكانَ جوابُه أنْ: «لو كنتُ مكانَ سعادتِكَ لجعلته يدفع مئةَ جنيهٍ ثمنًا للمسدس، أو لأقنعتُه أن قيمتَه مئةُ جنيهٍ، ثم وهبته له عفوًا. وسواءٌ فعلتُ الأولىٰ أو الأخرىٰ فإني قهرتهم أشدَّ القهر. أما أن يقبلَ رجلٌ في منزلتك ثمانيةَ جنيهاتٍ ثمنًا لمسدسٍ مثلِ هذا، ويقرَّ أنَّ هذا ثمنُه لا غير، فهذا عيب. فإن كان مرادُكَ المالَ، فما كان ينبغي لك أن تَلِيَ الأمرَ بنفسك، بل تُفَوِّضَه جملةً إليَّ، خادمك، وأنا الذي ما فَتِئتُ أصونُ شرفَكَ، وهو شرفي».

ثم صارَمني بعد ذلك يومين.

الباب الثالث والثلاثون

المتفضل عليَّ

لما عرفتُ آخرَ الأمرِ أنِّي مفارِقٌ الشامَ، غَلَبتْ عليَّ رغبةٌ في شراءِ كلِّ صنفٍ من خُردَوَاتِها، حتىٰ أعرِضَها علىٰ قومي في بلادي. وقد أدركتُ الآنَ أن مِن السَّفهِ إنفاقَ المالِ علىٰ هذا الوجه؛ فهذه السِّلَعُ تزولُ مكانَتُها إذا نُزِعَتْ من موضعها الذي قُدِّرَ لها.

وكنتُ إذا رحلتُ عن الشامِ إلىٰ إنجلترةَ بعدَ ذلك، لا أشتري لنفسي إلا ذخيرةً من أقلامِ البوصِ أكتبُ بها العربية. إلا أني في تلك المرة الأولىٰ، وددت لو حملتُ البلادَ كلَّها معي.

وكان ثمة شيخٌ نصرانيٌّ متعلمٌ من أهلِ بيروتَ ألقىٰ عليَّ دروسًا في العربية أكثرَ من مرة، وكان يكرمني بزيارته أبدًا كلَّما نزلتُ بقريته التي كان حاضرةَ البحرِ، وهي من أبهجِ قرىٰ البلادِ ومن أبغضها. وكان يلبس أوسعَ السراويلِ الفضفاضةِ، حتىٰ إنك لتظنُّه تَنُّورةً، ويتطربشُ بطُربوشٍ قصيرٍ تدلت منه قُنزعة عظيمة، ويرتدي رداءً أسودَ فرنسيَّ الطرازِ نُسِجَ من صوفِ حيوانِ الألبَكة، ويلبس صدريةً قِرمزية، وجوربين أبيضين من قطن، ونعلين يُمَطَّان من عند الكعب، فيسهلُ خلعهما قبيل دخوله إلىٰ حجرة. وكان يحمل دائمًا في الطرقاتِ عصًا مَقْبِضُها من فضة، وما وافقَ أن دخلَ حجرةً إلا أسندها إلىٰ الحائطِ، ولا يضعها البتة علىٰ الأرضِ أو علىٰ منضدةٍ أو كرسيٍّ. ولا أذكرُ أنِّي رأيته قطُّ مبتسمًا مدَّة ما عرفتُه، إلا أنَّ عينه قد يعلوها لِمامًا شيءٌ يشبه التلألؤ من تحتِ حاجبين كثيفين

أشمطين. وله شاربٌ أبيضُ كثٌّ وافرٌ فوقَ العادةِ، طويلُ السِّبالَين، يشبه بسببه فظًّا مُسِنًّا[1]، إذا رأيته خالطَ نفسَك إعظامٌ لهذا الشبه وإشفاقٌ عليه. وإنَّ بعضًا من العامة كانوا يسمونه شيخَ البحر، وهذا اسمُ الفظِّ في العربية.

زارني هذا الشيخُ لما خرجتُ من المستشفىٰ، وكنت قد نزلتُ علىٰ أصحابٍ لي إنجليزٍ أيامًا قبل أن أرجِعَ إلىٰ الفَلَوَاتِ لأوَدِّعها. فحمدَ الله مِرارًا علىٰ سلامتي وبُرئي. وما رأيتُ قطُّ رجلًا أوقرَ منه في كلِّ شأنه، وأقوَمَ وأضبطَ منه في كلِّ كلماته وحركاته. وكان ينكر صُحبَتي لرشيدٍ المسكينِ؛ لأنَّ رشيدًا كانَ يتكلم بلغة السَّفِلَةِ من السُّوقة. وإنِّي لأعلمُ أنَّه سيستهجنُ سليمانَ شمسَ الحكمةِ إذا رآه في صحبتي؛ لأنَّه يُجِيبُني إلىٰ دنيءِ رغائبي في سفيهِ القصص. وكان يُعرَفُ بالمعلِّمِ قُسطَنْطِين، وهو والله رجلٌ كريم.

لما حيَّاني بتحياته التي عَهِدَها وألزمَ نفسه بها، وهي تُنبِئُكَ عن علوِّ مكانَتِهِ وأنَّ المثلَ يُضرَبُ به في العلم، قالَ: إنه جعلَ نفسَه تحت يدي وحيثُ أريدُ فيما أرغبُ في شرائه؛ لعلمِهِ -كما قالَ- أني لربما انشغلتُ الأسابيعَ التي تسبق ارتحالي. فسرَّني عرضُه هذا حينئذٍ سرورًا شديدًا. وكنتُ أودُّ كما ذكرتُ أن أشتريَ سِلَعًا كثيرةً، منها لِباسُ أهلِ البلادِ كاملًا، وأما العلة لشرائه، فلستُ أقدر الآنَ علىٰ إدراكها. فأثنىٰ المعلم قسطنطينُ علىٰ عزمي، وشدَّدَ قولَه: إنَّ أهلي وأحبابي لا ريبَ سيَحْفِلُونَ به، وسيَبْسُطُ لهم في علمِهم، إذ يعرفون دقائقَ أروعِ ثِيابِ الدنيا. ثمَّ قضىٰ أني لا بدَّ لي من حُلَّتَينِ، وثوبَيْنِ طويلين، تُلبَسُ مع حُلَّتين غيرِ الأَوَّلَتَيْنِ، حتىٰ يقعَ في أذهانهم تصوُّرُ زِيِّ الشامِ من غيرِ قصور. وهذه الثيابُ، مع ما كان عندي واعتدت لُبسَهُ من الأثوابِ المختلفةِ، تجزئني في عرضِ ملابسِ البلاد.

فلما كان الغدُ سمِعتُ طَرقًا رفيقًا وأنا ألبَسُ، وكانَ ذلكَ بعد أن صارتِ الساعةُ العاشرةَ صباحًا، فما زال المرضُ يقعدني بعضَ الشيء. دخلَ عليَّ قسطنطينُ وأدخلَ معه صاحبًا له، خياطًا، يضاهيه في جِدِّهِ ووقارِه. فانطلقَ يقدِّرُ المقاييسَ من فورِه، ويمدحُ ما وُهِبْتُ منِ اتِّساقِ الأعضاءِ، ويسألُ الله أن يُسَمِّنَ

(١) الفظُّ: حيوانٌ يشبه الفقمة يكون في البحار المتجمدة، وله شارب كثٌّ ونابان مثل أنياب الفيل.

هذه الأعضاءَ التي أنحلها الوجع. وإن ساعةَ استيقاظِ المرءِ هي الساعةُ التي يؤثِرُها الناسُ للزيارةِ من خدمٍ، وتجارٍ، وباعةٍ طوَّافين ببضاعتهم، وكلِّ مَن أرادَ الاستجداء. أو لعلها كانت كذلك؛ فعاداتُ القومِ القديمةُ أخذت تندثر الآن. وقد اجتمعَ عليَّ ذات صباحٍ جماعةٌ بلغ عددهم اثني عشر رجلًا، وكان ذلك في أولِ صباحٍ بعدَ وصولي إلىٰ مدينةٍ مشرقيةٍ صادفَ أني معروفٌ فيها. وقعدوا حولي القُرْفُصاء علىٰ الأرضِ ينظرون إليَّ وأنا عند حلَّاق يحلق رأسي، وصبيٌّ يحملُ مناديلَ وإبريقًا وطَسْتًا، وهو تلميذ الحلاق، ووقفَ عليه يخدمه كأنه مولاه.

لما فرغَ الخياط من تدوينِ ما لزِمَهُ من ملاحظاتٍ، انصرفَ بعدَ كثيرٍ من التحيات. وتخلَّفَ عنه المعلم قسطنطينُ هُنَيَّةً، ليوكِّدَ لي - بوشوشةٍ قُصِدَ بها الجهرُ والإسماع - أن هذا الخياطَ رجلٌ أعوِّلُ عليه في صنعِ ما هو خيرٌ لي، وأني ينبغي لي أن أعُدَّ نفسِي ذا حظٍّ عظيم لأني ظفرتُ بخِدمتِه، فإنَّ عليه غالبًا من الشُّغْلِ ما لا طاقةَ له به، فالمَطالِبُ عليه كثيرةٌ ممن يعتنون بأناقةِ لِباسِهم. إلا أنَّه لإعجابِهِ بي كما قال، لا ريبَ سيخرج لي جماعةً من الأثوابِ التي تأخذ بمجامعِ القلوب. فلما فرغَ المعلم قسطنطينُ من مقالتِه هذه التي حبَّرها بأفصحِ العبارات وأرشقِها، خرجَ ولَحِقَ الخياطَ بسُدَّةِ الدار. وما رأيته بعدَ ذلك إلا في يوم سفري، حين كنتُ في دارِ كبيرِ قناصلةِ الإنجليزِ التي وُطِّئتْ أكنافُها للأضياف، أنتظر العربةَ التي ستحملني إلىٰ المرفأ.

خُبِّرتُ حينئذٍ أنَّ رجلًا يريدُ أن يلقاني في أمرٍ ضروري، فخرجتُ إلىٰ ليوانِ الدارِ العظيمِ[1]، أو سمِّهِ البَّهْو، وألفيتُ فيه صاحبي، مسندًا عصاهُ التي لها مَقْبِضُ فضةٍ إلىٰ الحائطِ برفقٍ كعادته، وحاملًا تحت يدِهِ أَسْفارًا، فانحنىٰ بوقارٍ وأهداها لي.

وقالَ: «هذه كتبٌ أربعةٌ لا بأس بها، وافقَ أنها عندي، وخطرَ ببالي أنك لربما استحسنتها؛ لأن نفسك تميلُ إلىٰ كلِّ الأخبارِ التي تتناقلها العامةُ مما هو غريبٌ وسفيهٌ غالبًا. فتفضَّلْ عليَّ بقبولِها هديَّةً مني أوَدِّعُكَ بها».

---

(١) هكذا وردت في الأصل (ليوان). والليوان كالبهو في الدار، وجمعه: لواوين، وأصله من الإيوان ثم خففت الهمزة.

فشكرتُهُ غايةَ الشكر، مع أني تحرجت منه إذ لم أدرِ أين أضعها، فقد شددتُ رِحالي كلَّها. ثمَّ سلمني فاتورةَ الخياطِ، وكنت قد نسيتُها ونسيتُ الثيابَ التي طلبتها.

سألته: «أينَ الثيابُ؟ فإني نسيتها».

فأشارَ إلىٰ حُزمةٍ عُلِّقَتْ بإجلالٍ بلِفافةِ حريرٍ، ووُضِعَتْ علىٰ الأرضِ عند عصاه التي لها مَقْبِضُ فضة. فشققتُ عن الظرفِ حينئذٍ، ونَشَرْتُ الفاتورة. ووجدتُ الثمنَ بلغَ عشرينَ جنيهًا.

وكنت قد أعددتُ مالي للرحلة، وهممتُ أن أُعَرِّجَ في طريقِ إنجلترةَ علىٰ بعضِ الجزائرِ اليونانية، ومدينةِ إزميرَ، والقسطنطينية، ورجوتُ أن يتيسر لي فوقَ ذلك رؤيةُ طرفٍ من بلدانِ البلقان. وإنَّ دفعَ عشرينَ جُنيهًا يقتضي أنَّ أقلَّ ما ينقُصُ من ذلك السَّفَرِ نصفُ شهر. وقد نسيتُ هذه الثيابَ بالكلية كما ذكرت، وظننتُ كلَّ دينٍ عليَّ في الشامِ مُستَوْفَىٰ القضاء.

وكان البهو خاويًا ليسَ فيه أحدٌ غيرُنا، وإني ليحزنني أن شراري تطايرَ علىٰ المعلِّمِ قسطنطينَ من الغضبِ، وذكَّرتُه بوعدِهِ أنَّ الثيابَ لن تكونَ ثمينة.

فذادَ عن نفسه وقالَ: «بل هي شديدةُ الرُّخصِ بالنسبةِ إلىٰ مادتها. وإن كانت رغبةُ سعادتِكَ أن تدفعَ دونَ ذلك، فما كان ينبغي لك أن تختارَ أقمشةً ثلاثةُ أرباعِها حرير. وما كنت أعلم أنك تعُدُّ المال».

وصدقَ والله، فما أحصيتُ مالًا قطُّ مدَّةَ مُقامي بالشام حتىٰ تلك الساعة. فالعيش في هذه البلاد رخيصٌ رُخصًا عجيبًا قياسًا ببلاد الإنجليز، وقد عِشتُ فيها بما عندي من قليلِ النفقة عيشةً رغدة. ولعله ظنَّني واسعَ الغِنىٰ، ووالله حقَّ له ذلك، إلا أني لم أكُنْ حينئذٍ في حالٍ أستعملُ فيها عقلي. فأعطيتُه المالَ وأنا غاضب. وبينما أنا أكلمه، جاءَ القوَّاصُ ليخبرني أنَّ العربةَ مهيأةٌ وفي انتظاري، وفي إثرِهِ رشيدٌ تفيض عينه من الدمع. وإنَّ الكربَ الذي وجدتُه عند رحيلي عن الشام ومفارقتي لرشيدٍ وفرسنا شيطان وكثيرٍ من أصحابنا، قد استمكنَ من نفسي. فودَّعتُ المعلمَ قسطنطينَ علىٰ عجلةٍ، وأحمد الله أني غيَّرتُ صوتي في آخرِ لحظةٍ وأني هُدِيتُ إلىٰ قولِ الصواب، فسألته ألا يشغل باله بالأمرِ جملةً بعدَ ذلك.

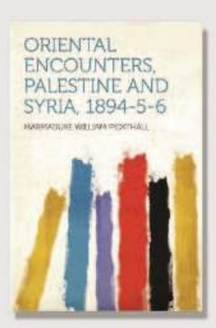
لكني لن أنسىٰ حتىٰ أموتَ وجهه الذي لاحَ عليه الذُّعْرُ وأنا أوَبِّخُه، ونظرتَه التي تنبئك عن حُزنِهِ من أنَّه قد انخدعَ بي.

فانصرفتُ أدحسُ الكُتُبَ في رِحالي هنا وهناك، وأمرت رشيدًا أن ينبعثَ بالثياب، واستأذنتُ من أصحابِ الدارِ الكرامِ، ثم انحدرتُ بالعربةِ إلىٰ المرفأ معجِّلًا. وما أدركتُ إلا بعدَ زمنٍ من وصولي إلىٰ إنجلترةَ أنَّ المجلداتِ التي أهداني إياها هي طبعةُ بولاقَ الكاملةُ لكتابِ ألفِ ليلةٍ وليلة، كتابٌ نفيسٌ، وهو أعظمُ كنزٍ عندي.

ولم يتسنَّ لي شكرُ الواهبِ شكرًا يليقُ بالهبة، ولا مَحْوُ الأثرِ القبيحِ الذي ترَكَتْهُ حدةُ طبعي في نفسه، فقد قيلَ لي: إن الرسالةَ التي بعثتها إليه من إنجلترةَ لم تبلغه، ولمَّا نزلتُ ببلدِ المعلم قسطنطينَ مرةً ثانيةً، ألفيتُه قد انقطعَ إلىٰ جوارِ من أرجو أن يجزيه خيرًا علىٰ رفقه، وصبره، وأدبه، وسائرِ خصاله الحميدة.

تمَّ الكتاب

اللقاءات المشرقية في بلاد الشام



في كتاب من كتب أدب الرحلات الماتعة البديعة، يقصُّ الأديب الإنجليزي المسلم ابن بكثال (ت1355) خبر رحلته إلى بلاد الشام في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وهي الرحلة التي بذرت في قلبه حبَّ الإسلام، وحببت إليه العرب. ذكر فيها عجيب الحوادث وطريف النوادر ومحزن الوقائع التي شهدها في الشام أو بلغت سمعه. ووصف البلاد وأهلها وأحوالهم ، بأسلوب عذبٍ رشيقٍ يسلب روح القارئ ، فهو كتاب أدب وتأريخ، وإمتاع وإفادة.





www.takween-center.com
info@takween-center.com
@takweencenter
/takweencenter